

دانتي و الشرق

تأليف: بريندا دين شيلديغين
ترجمة وتقديم: سمير كرم

1561

تذهب شيلديغين - فى هذا الكتاب - الذى يتميز بالبحث الدقيق إلى أن معالجة دانتى للمشرق مكنته من أن يستخدم الخطابة التى كانت مستخدمة فى المرويات الصليبية وغيرها من أدب الرحلات ، لكى يعارض الأهداف الأدبية والجدالية للحملات الصليبية ، وأن يتطلع إلى إصلاح الكنيسة والدولة على السواء .

تؤكد شيلديغين معرفة دانتى بالمشرق عن طريق تفصيل إدراكه للجغرافيا التجريبية ورسم الخرائط ، اللذين كانا يتماشيان مع النظريات السائدة للقرنين الثالث عشر والرابع عشر . غير أنها تذهب فى تدليلها إلى أن دانتى يعارض التقاليد التى كانت تسود فن رسم الخرائط ومعتقدات المرويات الصليبية ، عن طريق استبدال الرحلات المجازية بحج أدبى ، وكان بذلك يحول التركيز بعيداً عن البصيرة المادية للأماكن المذكورة فى الكتاب المقدس المستخدمة فى المرويات الصليبية ومرويات الحج الأخرى .

تصور شيلديغين - وهى تمزج البحث التاريخى الرصين بالفكر التجديدي المعاصر - كيف كان تبنى دانتى الفريد للخطابة الصليبية يمنحه دور النبى ، فقد كان - بحكم انشغاله ذهنى بالبلاد الواقعة وراء الحدود الأوروبية ، إنما دون أن " يشرقها " أو يصنع منها " تعويذة " - يضع موضع التساؤل مفهوم الخلاص خارج البلاد المسيحية ، ويطلق رسالة شعرية ملتزمة على عالم لاتينى متدهور مزقه الأزمت ، عالم لا يرقى إلى مستوى مثله العليا المعلنه . وفى توقيف دانتى العميق للمشرق تصبح عجائبه رموزاً لعظمة الرب وجمال المملكة الإلهية .

دانتي والشرق

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1561

- دانتى والشرق

- بريندا دين شيلديغن

- سمير كرم

- الطبعة الاولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Dante and the Orient

By Brenda Deen Schildgen

Copyright © 2002 by the Board of Trustees of the

University of Illinois

Reprinted by arrangement with the University of Illinois Press.

Arabic Copyright © The National Center For Translation (NCT)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

دانتى والشرق

تأليف : بريندا دين شيلديغين

ترجمة وتقديم : سمير كرم



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

شليديغين، بريندا دين.
دانتي والشرق / تأليف: بريندا دين شليديغين، ترجمة وتقديم :
سمير كرم .
ط ١، القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠ .
٢٤٠ ص ، ٢٤ سم
١ - دانتي أليغييري، ١٢٦٥ - ١٣٢١ .
٢ - الشعراء الإيطاليين .
٣ - الشعر السياسي .
(أ) كرم، سمير (ترجمة وتقديم)
(ب) العنوان
٩٢٨، ٥١

رقم الإبداع ٢٠١٠/٤٥١٤
الترقيم الدولي 7-903-479-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعليقها بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

الإهداء

إلى ماثيو

إن كل لحن يعزف بعذوبة قصوى في الآذان الفانية

في الآذان الفانية إنما يسترق الروح بعيداً

على نحو ما يهدر رعد من سحابة

فإذا ما فيس بتلك الفيثارة

التي تردد أجراس الياقوتة المستديرة

التي حولت السماء الباهرة الضياء إلى لون الياقوت الساطع

- الفردوس، الأنشودة ٢٣، الأنبيات ١٧-١٠٢

المحتويات

11 مقدمة المترجم
25 تمهيد وتوجيهات
30 ملاحظة عن نصوص دانتي
31 مقدمة
61 الفصل الأول : جغرافية دانتي
99 الفصل الثاني : الشرق فى العالم اللاتينى
133 الفصل الثالث : دانتي والحملة الصليبية فى الأراضى المقدسة
173 الفصل الرابع : دانتي والأندوس : خلاص الوثنيين
201 الفصل الخامس : المعجز والأعجوبة: دانتي وعجائب الشرق

الأشكال

الشكل ١ - خريطة العالم لهيرفورد (القرن الثالث عشر) (بتصريح من دين وفرع هيرفورد وهيرفورد لخراائط العالم) .

الشكل ٢ - لوكان، فارازاليا (القرن الرابع عشر) . المكتبة الرسولية فى الفاتيكان . فاتيكانا لاتينا . (بتصريح من مكتبة الفاتيكان) .

الشكل ٣ - ماكروبيوس . تعليق على حلم سيبيو (القرن الثالث عشر) بالاتينا لاتينا ١٥٧٧ . (بتصريح من مكتبة الفاتيكان) .

الشكل ٤ - خريطة العالم لسالتر . (بتصريح من المكتبة البريطانية) .

الشكل ٥ - سالوست ايوغورتا (القرن الثالث عشر) المكتبة الرسولية فى الفاتيكان فاتيكانا لاتينا ٣٣٢٨ (بتصريح من مكتبة الفاتيكان) .

الشكل ٦ - بيتوس اللباني (تعليق على سفر الرؤيا - ١٦٩٠) (بتصريح من المكتبة البريطانية) .

مقدمة المترجم

هل لا يزال دانتى بحاجة إلى تعريف؟

ربما إذا سئل هذا السؤال فى الغرب - حيث ولد وعاش وأبدع - لكانت الإجابة بالنفى، بوضوح وبصورة قاطعة، لكن إذا طرح السؤال نفسه فى بلادنا فى الوطن العربى عامة - تكون الإجابة الصحيحة ودون خداع للنفس بالإيجاب.

ذلك أن معرفتنا بدانتى لا تزال محدودة للغاية، وليس هذا زعما بأن من شأن هذه المقدمة أن تقدم تعريفاً به يعوّض عن هذه المحدودية .. إنما هى دعوى للدخول بقوة فى مجال ما يسمى منذ سنوات طويلة "الدراسات الدانتية"، هى دعوى للباحثين والأدباء والشعراء والمعنيين بالفلسفة والمؤرخين بالعصور الوسطى والمعنيين بنهايتها ويزوغ عصر النهضة، وحتى لأساتذة العلوم السياسية، فلقد كان لدانتى نصيب فى هذا كله، ولم يكن مجرد نصيب كمى .

أهم ما بُذِل من جهد للتعريف عربياً بدانتى يتمثل فى الترجمة الدقيقة التى قدمها الباحث المصرى القدير حسن عثمان لـ الكوميديا الإلهية، عمل دانتى الأشهر والأخلد - إذا جاز التعبير - والمقدمات الثلاث التى كتبها لأجزاء الكوميديا الإلهية الثلاثة، وهى - أى المقدمات الثلاث - تشكل معاً كتابة على درجة كبيرة من الإتساع والعمق عن دانتى وعن هذا العمل الكبير^(١) .

ولقد كان من شأن هذا العمل المتميز أن يحفز كثيرين على الاهتمام بدانتى باكثر مما حدث بالفعل، لكن هذا لم يحدث فى وطننا العربى. وليس المجال هنا مجال البحث فى أسباب ذلك .

فى كتاب نادر (نافذ) منذ سنوات يقول مؤلفه كل شىء يتعلق بدانتى له صفة العظمة الحقيقية". هذه عبارة شديدة الإيجاز تلخص الكتاب بعنوان دانتى كمفكر سياسى، والمؤلف هو إى بى دانتريف^(٢).

إذا عدنا إلى كتاب دانتريف عن دانتى كمفكر سياسى نعرف إلى أى مدى كانت كتابات دانتى السياسية ذات أهمية تاريخية فى حينها.

يقول المؤلف: إن دانتى كان منظر الإمبراطورية الوسيطة (نسبة إلى العصر الوسيط) وأن كتابه بعنوان الملكية Monarchia اعتبر بمثابة لوحة القبر التى تؤبن الإمبراطورية المقدسة. وأن هذا الكتاب يقف جنباً إلى جنب مع السياسة لأرسطو والجمهورية لأفلاطون ورأس المال لكارل ماركس بين أهم الكتب السياسية النظرية. ويكشف دانتريف أن فكرة الإنسان كحيوان سياسى التى قال بها أرسطو قبل دانتى بنحو سبعة عشر قرناً كانت متغلغلة فى فكر دانتى بعمق، وإن كان قد أخضعها لعملية تخليص وتحويل وإخضاع من جانب الشاعر والفيلسوف والصوفى فيه .

وينبئ دانتريف إلى فكرة بالغة الأهمية حين يقول: إن المشكلة فى دراسة دانتى المفكر السياسى تكمن فى حقيقة أنها لا تستطيع أن تعتمد على كتاباته السياسية وحدها، ولابد لها أن تغوص فى أعماق الكوميديا الإلهية. ففى الكوميديا يحول دانتى المفاهيم السياسية إلى صور شعرية ببراعة لا نظير لها.

ويقول مؤلف دانتى كمفكر سياسى: إن تفسير دانتى القوى لشخصيات الباباوات والملوك والأباطرة ومصائر المدن والأمم تكمن كلمته الأخيرة فى السياسة ... لقد عاش دانتى حياة كاملة مستغرقاً فى تأملات سياسية ... وينتهى هذا كله بملاحظة للحزن اللامتناهى أمام عرش متعالٍ فى السماء محجوزاً للأمير سىء الطالع الذى كثيراً ما تطلع الشاعر إليه متمنياً أن يكون على يديه تحقيق الفداء لبلده وللعالم ككل.

يقول دانتريف: إنه في دراسته لدانتى كمفكر سياسى طرأت له فكرة واحدة هادية في معالجة هذا الموضوع؛ إن اهتمام دانتى بالشأن السياسى يبدو له أمراً تحدده ثلاثة عوامل رئيسية أو لعلها مصادر ممكنة بالإلهام: المدينة، الإمبراطورية، والكنيسة. ولا يتطابق هذا الإلهام فقط مع المشكلات الرئيسية التى واجهت دانتى فى زمانه. بل إنها تفسر وتصور الطوابق أو المواضيع المختلفة التى لا يكون من الممكن بدون مجهود مفرط اكتفاء أثر تطوره الفكرى.

لهذا فإن دانتريف اختار - هذه المشكلات الثلاث المدينة، الإمبراطورية، والكنيسة - لتكون عناوين لمحاضراته الثلاث التى ألقاها بدعوى من الكلية الجامعية فى لندن فى فبراير (شباط) ومارس (آذار) عام ١٩٥١، والتى شكلت محتويات كتابه المذكور. ويقول فى المحاضرة الأولى: إن من الواضح أن أى دراسة لفكر دانتى السياسى لا تحتل تماماً إذا لم تأخذ فى حساباتها التأثير الذى مارسه عليه خبرته فى مدينة الدولة .

مع ذلك فإن الأمور التى يمكن تأكيدها عن فكر دانتى السياسى تبقى قليلة فى ضوء حقيقة قلة المصادر المباشرة التى بقيت لنا بعده عن فترة تأملاته فى السياسة فى سنوات شبابه. ففى تلك الحقبة كان قليلاً ما يتأمل. فقد كان يعيش تجاربه ويسلك خلالها، لكن هذا لم يمنع دانتريف من أن يؤكد "أن صميم فلسفة دانتى السياسية ظل فى جوهره مدنياً" ... وأن الكوزموبوليتانية - العالمية - قد فرضت عليه فرضاً بحكم حياته فى المنفى. لم تكن أبداً بالنسبة إليه شيئاً أكثر من إلهام، عبادة أخفت جروحه " .

لكن إذا ما أردنا أن نعرف ماذا كانت مشاعر دانتى الحقيقية فى هذا الصدد، فما علينا إلا أن نقرأ قوله فى البلاغة الفجة: " فيما يتعلق بملذات أو شعور الارتياح الحسى لدينا فإنه لا وجود لمكان أكثر جمالاً فى العالم من فلورنسا".

أو فلنقرأ قوله: "ولكن بالنسبة إلينا، نحن الذين نعتبر عالمنا هو بلدنا الأصلي، تماما كالبحر للسماك، على الرغم من أننا شربنا من نهر أرنوب قبل أن تنبت أسناننا وعلى الرغم من أننا نحب فلورنسا حبا جما، حتى أن الحب الذي نحمله لنا يجعلنا مخطئين في معاناة المنفى، فإبنا نضع حكمنا على عاتق العقل وليس على عاتق الشعور".

ولقد كان دانتي شاهد عصره على صعود المدينة الدولة في إيطاليا، الأمر الذي كان له تأثيره العميق على مصائر أوروبا كلها. وكانت المدينة الحرة هي التي شكلت خلفية تأملات دانتي في الشأن السياسى المدينة ذات السيادة.

ثمة مؤلف آخر عنى بدانتي السياسى كتب مساهمة في كتاب بعنوان عقل دانتي⁽³⁾ نشر بإشرافه وكانت مساهمته بعنوان "فكر دانتي السياسى"، وفيها يقول: "لقد قيل باستمرار أن كل قرن من الزمان وجد فى فكر دانتي السياسى ما ود أن يجد فيه، ومن الصدق - أكثر من هذا - أن نقول (أو هكذا يبدو لقارئ متحيز مثلى) إن معظم الكتاب بحثوا فى أعمال دانتي عن تأكيد لأفكارهم التى تصورها مسبقا عن أرائه السياسية".

مؤرخو العصر الوسيط، النقاد الأدبيون، علماء اليهود، طلاب الفلسفة الوسيطة، وطلاب تاريخ القانون والفكر السياسى، جميعهم بحثوا فى أعماله من وجهة نظرهم وخرجوا باستنتاجات متعارضة تماما، بعضهم اعتبر أن فرضيات دانتي كانت أصيلة بصورة قوية بل حتى ثورية، وآخرون اعتبروا أنه قرر نظريات أكل الدهر عليها وشرب. وبعضهم ألمح إلى أنه كان متطرفاً، وآخرون اعتبروا أنه كان كاتباً معتدلاً. بعضهم اعتقد أن معرفته العميقة بالقانون أثرت فى فكره السياسى، وغيرهم أن أدواته فى هذا الميدان كانت سطحية.

يؤكد ليمنتانى أن "الإنشغال بالشأن السياسى كان حاضرا على الدوام فى عقل دانتي". فهو الذى حدد مسار حياته، ووصولا إلى وقت كتابته الفردوس (القسم الثالث

من الكوميديا) لم يكد يكون هناك عمل واحد من أعماله كتب بعد أن نفى وكان الشأن السياسي غائبا فيه طويلاً. فقد جذب إلى المشاركة النشطة في الشؤون السياسية وحول فلورنسا وهو بعد شاباً يافعاً ... وطبقا للتقليد السائد في موطنه فلورنسا كان مستعداً لتأييد البابا، لكنه كان جاهزاً بسلحه للوقوف ضده إذا ما حاول أن يتحرش بمصالح فلورنسا.

قامت نظرية دانتي السياسية على أهمية وجود إمبراطور متحرر من الجشع، لا حدود لصلحياته وبالتالي لا يرغب في شيء ويمكن بالكلية أن يكون عادلاً في حكمه، باعتباره ضرورة لسعادة البشرية. وتقوم هذه النظرية ذاتها بالضرورة على أن البشرية ليست مجرد مجمل كلي لعدد ضخم من البشر، إنما هي كيان يمكن اعتباره كذلك. وهذه الفكرة، التي تتسم ببعد النظر وبعد المال، هي فكرة مجتمع إنساني عالمي (كلى Universal) توفر إطاراً للاستدلال العقلي الوسيط وتسلم بمطلب ملكية عالمية لهداية البشرية.

وفي هذا الصدد كان دانتي يفكر في إيطاليا كوحدة سياسية. مع ذلك فإن اسم إيطاليا لا يرد في كتابه الملكية برمته إلا في إشارتين عابرتين. وحتى في هاتين الإشارتين فإن من الواضح أن أماله السياسية فيما يتعلق بإيطاليا لا تتجاوز الحفاظ على الاستقلال الذاتي المحلي والإقليمي تحت إشراف ممثلي الإمبراطور وتعاون متمر بين الحكومة الإمبراطورية والجمهوريات والحكام في إيطاليا. وعبارة أخرى - حسب ليمنتاني - لا تتجاوز ما اقترح الملك هنري السابع أن يحققه.

ولا شك أن الإمبراطور الذي يتحدث عنه دانتي في هذا السياق هو بالتأكيد الإمبراطور الروماني.

كان دانتي يتصور التاريخ تجلياً لإرادة الرب، وأخذ من التاريخ ذلك الجزء الذي بدا له الأكثر أهمية من كل الأجزاء الأخرى، وهو تاريخ الشعب الروماني في تقدمه نحو اكتساب السيادة على كل البشر في زمن الإمبراطورية ... فالشعب الروماني هنا

منظور إليه باعتباره أداة التصميم الإلهي، وأما الماضي الوثني المجيد الذي كان مرسومًا ومقدرًا فإنه معروض من خلال حالة الدولة المعاصرة المفجعة وصولاً إلى مستقبل يبرهن - من خلال قراءة صحيحة للتاريخ على أنه مطابق لإرادة الرب.

ولعل دانتي كان أول من دعا إلى الفصل الكامل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية. إنه في رأيه الحل الحقيقي لمشكلة العلاقة بين السلطتين.

بل أن دانتريف ينسب إلى دانتي أنه سبق الماركسية إلى القول بزوال الدولة عند بلوغ ما اسمها دانتي "وحدة السلام". بل أنه توقع زوال الشأن السياسي برمته، على الأقل بأي معنى حديث للكلمة. وعند دانتي تتمثل الفكرة الوسيطة المهيمنة عن السلام وكلمة السلام عنده كلمة مفتاح لفهم موقفه إزاء الشأن السياسي، ومعنى السلام عنده استعادة العدالة بين البشر.

وعلى الرغم من تأكيد دانتي بأن القوة (السلطة) في الحالتين الزمنية والدينية، هي من الرب فإنه يعتقد بأن سلطة بطرس وسلطة قيصر هما كالكنيسة والإمبراطورية (شبههما شعرياً بالشمس والقمر، كل منهما هي العليا في مجالها ..). وقد وقع الخلاف عندما أعلن البابا في زمن دانتي نفسه أن السلطة الزمنية تستمد فعلاً من الرب إنما عبر قناة السلطة الروحية. إنما المهم أن نعي أن دانتي لم يتصور إمكان الفصل التام بين السلطتين إلا بعد أن تتحقق السلطة (الحكومة) العالمية .

عندما يقال الشرق بأي معنى يكون مفهوماً أن المعنى يشمل حقيقة أن الإسلام يغطي جانبا هائلا من تكوين الشرق من كافة النواحي الجغرافية والتاريخية والسياسية .. وأهم من هذا النواحي الثقافية.

بالتالى لابد أن نتوقع فى بحث يتناول دانتي والشرق أن يكون جانب كبير منه متعلقاً بالإسلام - فهم دانتي للإسلام - مدى إطلاع دانتي على الثقافة الإسلامية فى عصره، ومدى تأثيره بها وأيضاً نقله عنها خاصة فيما كتبه فى الكوميديا الإلهية.

والحقيقة أن الباحثين المختصين بدراسة دانتي لا يزالون معنيين لأقصى درجة بما يعتبرونه مسألة "رشديته" .. أى تأثيره بأبن رشد أو حتى انتمائه لفلسفة ابن رشد. وهذا موضوع للنقاش بينهم لا يكاد ينقطع.

يلاحظ دانترريف أن معظم هذا النقاش لا يزال يتركز على النقاط نفسها التى كان قد أثارها جيو فرنانى Guido Vernani فى كتابه الذى ألفه عن كتاب دانتي فى الملكية وقد صدر فى زمن دانتي، وعاد لتظهر منه طبعة حديثة فى ١٩٠٦ . ولابد أن نوضح هنا أن معظم الباحثين الذين يشير إليهم دانترريف هم باحثون إيطاليون، باستثناء أستاذ الفلسفة الفرنسى إتيان جيلسون مؤلف كتاب دانتي الفيلسوف^(١) والألمانيان كيرن وجردامان . وأهم النقاط المثارة: هى المتعلقة بنظرية ابن رشد فى العقل الممكن وقوله بأنه لا يمكن أن يكون للجنس البشرى عقل كلى واحد ممكن. جوهر كلى مستقل تماماً عن الجسم ... وأن المعرفة بالنسبة للإنسان الفرد لا تعنى شيئاً أكثر من المشاركة فى جزء ما أو آخر من المعرفة التى يملكها هذا العقل الكلى الواحد فإذا ما كان هدف الإنسان هو أن يعرف ما يمكن أن يقال أن هذا الجنس البشرى يستطيع بهذا العقل الممكن المستقل أن يبلغ هذه المعرفة وأنها فى متناوله طول الوقت.

ويذهب دانتي إلى أن كل أفراد الجنس البشرى الموجودين فى زمان ما على الأرض يمكن إعتبارهم جماعياً معادلين للعقل الممكن الواحد الذى يقول به ابن رشد. ويؤسس جيلسون على هذا قوله بأن دانتي ربما يكون قد اتخذ من نظرية ابن رشد فى العقل الواحد الممكن نقطة بداية، لكن هذا لا يعنى أنه تبنى نظرية ابن رشد بأكملها. وإذا كان دانتي قد قبل الرشدية فى هذه الجزئية فإن مذهبه لا يكون مبرراً لأن هدف

الإنسانية - بوجود مجتمع عالمى كلى أو عدم وجوده - يكون هدفا ممكن البلوغ فى ديمومة العقل الممكن المستقل.

ويضيف جيلسون أن ابن رشد يتحدث هنا حديث ميتافيزيقى، أما دانتى فإنه يتحدث عن وحدة واقعية تقوم على بنية فعلية للعالم. يتحدث كمصلح سياسى واجتماعى.

وبطبيعة الحال فإن الرشدية عند دانتى - حتى لا نقول رشدية دانتى - ترتبط أو تعبر عن جانب من المبحث الأعم المتعلق بمدى تأثر دانتى بالإسلام والمفكرين الإسلاميين. وإذا استخدمنا تعبيراً يفضل الباحثون الأوروبيون والأمريكيون نقول تأثر دانتى بالثقافة العربية.

ولا يمكن أن يذكر موضوع تأثر دانتى بالثقافة العربية دون أن يأتى ذكر القس الكاثوليكي المستشرق الإسباني أسين (اسمه بالكامل ميجال أسين بلاثيوس) الذى يمكن أن نعدّه بمثابة ماسينيون الإسباني. فقد كرّس من حياته عشرات السنين لدراسة فلاسفة الإسلام المتصوفين واهتم - أكثر ما أهتم - بالبحث فى مدى تأثر دانتى فى الكوميديا الإلهية بسيرة رحلة الإسراء والمعراج التى أسرى الله فيها برسوله محمد (ﷺ) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج خلال ذلك ليلاً إلى السماء حيث التقى برسول الله وأنبيائه الذين سبقوه، وقد صدرت فى عام ١٩٢٦ ترجمة إنجليزية لكتاب أسين وهى التى عنها ننقل ونعلق، والكتاب هو بعنوان الإسلام والكوميديا الإلهية.

يقدم أسين أدلة بحثية بالغة الوضوح والقوة على أن دانتى استعان بترجمة لقصة الإسراء والمعراج فى تقديمه لتصوره الخاص بالآخرة من خلال الجحيم والمطهر والفردوس فى الكوميديا الإلهية. وقد درس أسين هذا التوافق دراسة تفصيلية فى ضوء عديد من الأدبيات الإسلامية، وقارن بينها وبين الكوميديا فى أجزائها الثلاثة. بل أن هذه الدراسة ألزمته بأن يدرس ويمحص النفوذ الإسلامى على الأدبيات المسيحية

السابقة على الكوميديا الإلهية، وأهتم بطبيعة الحال بالتحقيق فى احتمال توفر ترجمة للأدبيات الإسلامية القريبة من الموضوع وإطلاع دانتى عليها.

ويتألف كتاب أسين الإسلام والكوميديا الإلهية (٢٩٥ صفحة) من أربعة أقسام، القسم الأول منها بعنوان "أسطورة الإسراء والمعراج اللذين أداهما محمد (ﷺ) مقارنة بالكوميديا الإلهية"، ويقول إن التفصيلات الكاملة لتطور الأسطورة فى كل تجلياتها من شأنها أن تملأ مجلدات. ويعرف أسين أن الإسراء والمعراج لا تشغل فى القرآن إلا حيزاً ضئيلاً ولكنها تتسع وتكتمل تفاصيلها فى الأحاديث النبوية. وهو يشرحها تفصيلاً فى هذا القسم من كتابه باعتبارها رؤى فى العالم الآخر. ومن هنا اعتقاده بوجود شبه بينها وبين الكوميديا الإلهية فى كون الأخيرة أيضاً رؤى فى العالم الآخر. ومن هنا مقارنة أسين بينهما مفصلاً أوجه الشبه بين الاثنين وهو فى هذا لا يقف عند حدود هذه المقارنة الثنائية؛ لأنه يعنى أيضاً بتفصيل الأصول التى يمكن أن ترجع إليها أسطورة الإسراء والمعراج، ويصل إلى أن لها أصولاً عبرية وفارسية ومسيحية، مؤكداً - مع ذلك - أن أيّاً من تلك المصادر لم يحتو على التفصيلات المستفيضة التى تنطوى عليها رحلة الإسراء والمعراج الإسلامية، ويعزو ذلك إلى أن الرواية الإسلامية بعد هذه الرؤى كلها استفادت منها وأضافت إليها الخيال العربى العفوى.

وهكذا نتبين أن ميجيل أسين لا يتوقف عند حدود القول الشائع بأن الكوميديا الإلهية إنما نقلت عن أو استلهمت أو اقتبست من رسالة الغفران للشاعر العربى الفذ أبو العلاء المعرى، وهو ما توقف عنده معظم الباحثين العرب منذ وقت طويل.

وفى القسم الثانى من الكتاب يعالج أسين موضوع المصادر الإسلامية للجزء الذى خصصه دانتى فى الكوميديا الإلهية لـ "المطهر" خاصة فى ضوء حقيقة عدم وجود أصول مسيحية سواء كانت إنجيلية أو لاهوتية لهذا الجزء. ويصل فى هذا إلى حد وصف التماثل بين مطهر دانتى والمطهر فى المصادر الإسلامية بأنه "تطابق". ويقول

أسين: "إن المعنى الأخلاقي الذي أراد دانتى أن يوصله فى كوميدياه الإلهية سبق أن أضفاه الصوفيون المسلمون، خاصة منهم "ابن عربى". ويخصص أسين فصلاً كاملاً من القسم الرابع لكتابة موضوع التشابه بين "دانتى وابن عربى" الأمر الذى يوفر مزيداً من البراهين على أطروحة التقليد".

فى القسم الثانى من كتابه يعالج أسين أيضاً تفصيلات الجحيم كما وصفته المصادر الإسلامية وكما ينعكس فى جحيم دانتى. ويخص وصف دانتى لإبليس بعناية خاصة فى مقارنة هذه الأوصاف بما أوردته المصادر الإسلامية أيضاً: القرآن والحديث وأشعار كبار الشعراء المسلمين والصوفيين المسلمين. وتبلغ التفصيلات عند أسين حد الحديث عن تأثر دانتى فى وصف لقاء دانتى بحبيبة صباه بياتريتشى فى المطهر بمصادر إسلامية تتحدث عن اللقاء بين عروس السماء قرّة العين وعريسها لدى دخول الجنة حيث يصطحبه رضوان إلى حيث تنتظره (...).

وإذا عدنا إلى حسن عثمان المترجم القدير والباحث للكوميديا الإلهية - فى مقدمته لمجلد "الفردوس" - تجده يجد هذا الموضوع فى سياق أوسع؛ حيث يقول: إن التراث الإسلامى عن العالم الآخر كان معروفاً فى أوروبا حينما كانت الحضارة العربية والإسلامية صاحبة القدر المعلى. وقد تم انتقاله إلى أوروبا عن طريق الأندلس وجنوب إيطاليا، وعن طريق المشرق فى عهد الحروب الصليبية. وعرفت صور من الأسراء والمعراج الإسلامى فى أوروبا منذ القرن السادس عشر. وظلت هذه الأخبار تتواتر فى كتابات العلماء ورجال الدين والأدباء فى أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر.

"هذه صور منجزة عن بعض ما ورد فى تراث البشر عن العالم الآخر و عن الفردوس حتى زمن دانتى. وكانت هذه مادة متعددة الصور وفى متناول دانتى ، الذى كان له أن يستعين بها فيما استعان به من العناصر المختلفة فى بناء الكوميديا بعامة والفردوس بخاصة. وكان دانتى فى هذه الناحية كما فى غيرها كمن يصنع بدائع البلور من حبات الرمل"^(٥).

ويستطرد حسن عثمان مؤكدا المعنى نفسه 'عرف دانتى هذا الطراز الفلكى فنجده يذكر فى مؤلفاته بعض أعلام الفلك من القدماء ومن العرب مثل أرسطو وبطليموس والفرجاني. ونجد هذا أيضا فى اعتماده على هذا التراث حينما تناول الكلام فى الوليمة، أو فى الحياة الجديدة، أو فى الكوميديا عن مسائل فلكية تفصيلية متنوعة، مثل أبعاد الأرض وفينوس أو الزهرة وميركوري (المشتري) الذى كان سائدا فى زمانه^(٦).

مع ذلك فإن أسين لم يسع إلى الخط من شأن دانتى من خلال ذلك فقد ظل عنده شاعراً عظيماً فى مكانته السامقة فى عالم الأدب والفكر.

وقد أثار كتاب أسين - الصادر فى مدريد عام ١٩١٩ بعنوان دانتى والإسلام اهتماماً واسع النطاق من الباحثين الأوروبيين الذين أيدوا رأيه والذين عارضوا فى القول بأن دانتى أطلع على الإسراء والمعراج ونشطوا فى الكتابة فى الموضوع كل من زاوية نظره، مؤيداً أو منتقداً قوله بأن دانتى قرأ الإسراء والمعراج فى نص ترجمة إبراهيم الفقيم الذى كان يعمل مترجماً فى بلاط الملك ألفونسو العاشر، وفيه وصف لرحلة الرسول محمد (ﷺ) الليلية إلى السماء. كما أنه أطلع على مصادر أخرى إسبانية كانت شائعة فى الأندلس عن الإسراء والمعراج (والتي عرفت فى إسبانيا مثل 'سلم محمد' الذى صعد به إلى السماء).

وما نستطيع أن نؤكد فى ضوء هذه المعلومات هو أن الكتاب التى نضع ترجمته بين يدي القارئ يدل على أن مؤلفه برندا دين شيلدجين عضو هيئة التدريس بجامعة كاليفورنيا (فى مدينة ديفيز) وعضو برنامج الأدب المقارن فى هذه الجامعة انضمت إلى هؤلاء الباحثين إنما لتبحث جانباً لم يتطرق إليه هؤلاء قبلها. وهذا الجانب نوجهين جغرافى وتاريخى. الجانب الجغرافى يتمثل فى معرفة دانتى الموسوعية بالشرق وبصورة أكثر تفصيلاً بالأراضى المقدسة، أما الجانب التاريخى فهو الحقبة الصليبية

الطويلة كما مورست في الشرق فيما وراء حدود أوروبا. إنها تقدم في هذا الكتاب نظرة عميقة عن خيال دانتي الطوباوي وواقعه السياسية وإبداعاته الأدبية.

ولم يكن يمكن لهذه الباحثة أن تفعل ما فعله معظم الباحثين السابقين عليها في الدراسات الدانتية .. وهو الاقتصار على الكوميديا الإلهية. لقد قدمت دراسة شبكية Cross - Sectional عبر كتب دانتي كلها التي تحتل فيها الكوميديا مكانة خاصة بحكم موسوعيتها وحجمها وأيضاً بحكم شهرتها العالمية. وقد تمكنت من خلال ذلك وبدقة بحثية منهجية ملحوظة - من أن تكشف كيف أن معالجة دانتي للشرق مكنته من أن يستخدم المجازية المستخدمة في الرويات الصليبية وأداب الرحلات الأخرى للوقوف ضد الأهداف العسكرية وغيرها من الأهداف المثيرة للجدل التي كانت تحرك الحملات الصليبية في الشرق.

اكتشفت المؤلفة - هكذا نستطيع أن نقول بلا تردد - اكتشاف دانتي أن الرواة الصليبيين إنما كانوا يدعون للإصلاح لكلا المؤسستين العتيدتين: الدولة والكنيسة، ولعل هذا أهم جانب سياسي في قراءتها لدانتي وللقرنين اللذين عاش فيهما الثالث عشر والرابع عشر. ولابد هنا أن نقول إن الباحثة شيلدجين لم تضع جانباً (على الرف) فكرها وخبرتها الفكرية والأدبية المعاصرة في بحثها المتأنى هذا، إنما استخدمتهما ببراعة واقتدار لا يمكن إنكارهما أو إغفاهما، كما لابد أن نشير إلى اهتمامها بأن تتجاوز في دراستها حدود البلدان الأوروبية إلى ما هو أبعد من أن تحول مقاصد دانتي في كتاباته إلى عملية "مُشرِّقه" لمصادره، وهو يطرح تساؤلاته عن مفاهيم الخلاص خارج البلاد المسيحية، ويطلق مواهبه النقدية النابعة من إيمانه الكاثولوكي العميق والمتلبسة لباس الصور الشعرية المتلاحقة على العالم اللاتيني (الغرب كله) الذي مزقته أزماته وأوصلته إلى الانحدار حتى لم يعد يستطيع أن يرتقى إلى مستوى مثله العليا.

هنا يصبح الشرق عند دانتي كما قرأته المؤلفة "مبجلاً بعمق، وتصبح عجائبه الكثيرة والمتنوعة رموزاً على عظمة الرب وجمال العالم الإلهي".

إننى اعتقد أن تجاوز هذا الحد فى المقدمة يدخلنا فى تكرار ما سبق أن كتبته المؤلفة فى هذا البحث القيم .. وليس من حق المترجم فى رأى أن يسبق المؤلف إلى شرح أفكاره. إن عليه أن يقدمها فى اللغة التى ترجمها إليه كما هى تعبر عن نفسها بذهن القارئ بالمنطق والأسلوب اللذين أرتضاهما المؤلف. ولقد شرحت الباحثة مرامى دانتي الفكرية (والدينية والسياسية)، وليس من حقى كمترجم أن أشرح أبعد من هذا شرحها لدانتي، فهى أجدر به يقينا.

سمير كرم

هوامش مقدمة المترجم

(١) الكوميديا الإلهية (في ٣ أجزاء : الجحيم - المطهر - الفردوس) . ترجمة حسن عثمان - دار المعارف (الطبعة الثالثة بدون تاريخ) .

(٢) A.p.d'Entreve : Dante as a political thinker . Oxford ,1952

(٣) L.L . Limentani : Dante's political thought, in the mind of Dante , Campridge Uni- versity Press, 1965.

(٤) Etienne, Gilson : Dante the Philosopher (Translated by david Moore, Sheed & Ward, London 1932.

(٥) حسن عثمان في مقدمة المترجم بالكوميديا الإلهية : الفردوس ، دانتي أليجييري. دار المعارف القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٨ ص ص ٢٨ - ٢٩ .

(٦) المرجع نفسه ص ٣٠ .

تمهيد وتنويهات

إنى أذهب فى هذه الدراسة إلى أن البؤرة الجغرافية لمؤلف دانتي الكوميديا الإلهية هى أوروبا، لكن ليس بسبب "المركزية الأوروبية". على النقيض من ذلك، فلأن دانتي مشغول بالآزمات السياسية والكنسية لأزمته، يتبنى الشرق، ويغير هينتها عما كانت مستخدمة فى الروايات الصليبية وغيرها من أدب الرحلات، ليحول قصيدته إلى حملة صليبية لإنقاذ فلورنسا وإيطاليا وأوروبا والكنيسة المسيحية.

إن "الشرق" كفكرة أساسية فى قصيدة دانتي يغير موضع اهتمامه - أوروبا - من شرق البحر الأبيض المتوسط وما وراءه. فنتيجة للحملات الصليبية، وزيادة فى النشاط التجارى وتقارير الرحالة كانت هذه المناطق قد برزت كأماكن إثارة ودهشة وتوسع بدءاً من القرن الحادى عشر. ولا يركز دانتي على الحواف الشرقية للعالم المعروف (الهند والحبشة) لكنها مع ذلك تؤدى وظيفة تحديات لليقينيّات السياسية والدينية التى تحكم هذا المشروع الشعرى. والمقدمة تتناول هذه المسائل بصفة مباشرة أكثر.

يناقش الفصل الأول - كخلفية لفهم استخدام دانتي "مادة الشرق" - معرفة دانتي بالجغرافيا التجريبية وبالكيفية التى تعكس بها نظريات المعرفة المختلفة السائدة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وفى الفصل الثانى تناول الإسلام والحملات الصليبية والشرق الأوسط، فاحصة على وجه التحديد التعارض بين الحجج الصليبية عن دانتي وتلك التى نجدها فى روايات الحملات الصليبية للمحمته الصليبية من أجل الإصلاح فى الغرب اللاتينى. وطوال هذه الفصول أنظر إلى الكيفية التى يحول بها

دانتي الجيوسياسية الصليبية اللاتينية لتخدم حملته الصليبية الشعرية المتمحورة على إصلاح أوروبا. إذ يخلق دانتي حدوداً داخلية وحدوداً خارجية لجغرافيته؛ حيث يشكل حوض البحر الأبيض المتوسط والأراضي المتاخمة له الحدود الداخلية، على النحو الذي كان متكوّناً في ظل الإمبراطورية الرومانية، بينما تشكل الهند وقادش الحدود الخارجية. إن دانتي يصفى الجيوسياسية العالمية لكتابه الملكية Monarchia ويحدد موقع تركيزه في أوروبا.

وفي الفصل الرابع ألقى نظرة على الكيفية التي يقدم بها دانتي الأندوس - العالم الواقع وراء عامل أوراسيا الجيوسياسي كما طوره في كتابه الملكية وفي الكوميديا - ليعرض مشكلات في الجيوسياسية الطوبوية التي تستمد إلهامها من الرومان، لأناس وأماكن مستبعدة من رؤيته العالمية الملعنة. فالهند - كموضوع أولى- كانت تضم البراهمانيين المحبين للسلام (الصوفيّين العراة)، الذين ذكرهم أوغسطين وأورسيوس ودعمهم دينديموس في قصصه، والمعجزات التي احتفى بها في مغامرات الإسكندر^(١) وغير ذلك من مواد العجائب التي بنيت على تاريخ بيريليس^(ب) Historia de Preliis وأعمال سترابو^(ت) وبليني^(ث) وموسوعي العصور الوسيطة. غير أنه لا بد من أن يضاف

(١) Li Romans d' Alexandre رواية غرامية كتبت في القرن الثاني عشر، واستمدت منها تسمية الأسلوب الإسكندري في الشعر البطولي الفرنسي (والإنكليزي بعد ذلك). وهي تحكي أفعال الإسكندر الأكبر المقدوني. (المترجم)

(ب) النسخة اللاتينية التي صاغها الكاهن ليو (من ثانولي) في القرن العاشر من قصيدة طويلة تحكي مغامرات الإسكندر الأكبر، والتي ترجع في أصولها الأولى إلى القرن الثالث. (المترجم).

(ت) Strabo (٥٨ ق.م - ٢٤ م) جغرافي يوناني قام برحلات واسعة في أنحاء العالم الروماني وكتب يوصف ما شاهد في ١٧ رحلة ضمها كتابه Geographia. (المترجم)

(ث) Pliny (٢٣-٧٩ م). مؤرخ لاتيني كان كتابه التاريخ الطبيعي Historia Naturalis يعد في العصور الوسطى أحد أهم المراجع العلمية، توجه إلى مدينة يومية لدراسة ظاهرة البراكين، وهناك توفي عندما دمر البركان المدينة. (المترجم)

دانتي طابعاً أسطورياً على الأندوس فإنه يدخل هذا العالم البعيد في قصيدته ليتفحص السؤال المركزي عن "عدالة" إله استطاع أن يخلق جغرافيا استبعدت بعض المناطق من خطته اللاهوتية الخلاصية.

في الفصل الختامي أتفحص الطريقة التي يجعل بها دانتي الجغرافيا الثقافية والفيزيائية مجازية، والكيفية التي تقوض بها الرؤيا الإعجازية كل الرحلات والعجائب التي وصفها رحالة العصور الوسطى. هنا أستكشف استخدام دانتي المحدود لـ "مادة الشرق"، أي كيف ولأي غرض يقوم أناس الشرق وسلعه وأرضه في الكوميديا. لكي يقدم دانتي شرق العجائب بأسلوبه الشعري المعتاد، يحول حكايات الروائع المادية إلى "رؤى" و"إعجاز". إن موضوعات الطبيعة والعجائب والمعجزات كانت تناقش مطولاً بشكل خاص كمشكلات فكرية في زمن دانتي، ذلك أن إحياء الاهتمام بالنزعة الموسوعية كان قد فرض انتباهاً جديداً بالكتابات التي تتناول العجائب - كتابات بليني وسولينوس^(ج)، على سبيل المثال - والمادة التي كان يتم تجميعها بصورة لا تتغير في مقالات عن الطبيعة. ولقد ظهرت أسئلة عن أصول العجائب - هل كانت طبيعية أو كانت تفوق الطبيعة؟ هل كانت الطبيعة تتصرف مستقلة عن الرب؟ هل كان خالق العجائب هو الطبيعة أم الرب؟ يميز دانتي - مستمداً أفكاره من تلقينات الكتاب المقدس وأوغسطين والدومينكان والفرنسيسكان - بين العجائب المرئية وما هو إعجازي حقاً؛ وبالنسبة إليه كانت الأولى أشياء أو ظواهر يمكن ملاحظتها، في حين أن الأخيرة - أي الخلق ذاته - هي علامة حضور الرب في العالم.

(ج) Solinus مؤرخ ونحوي لاتيني عاش في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، ألف كتاباً احتوى على وصف للعالم القديم وملاحظات عن التاريخ الطبيعي، أسسه على كتابات بليني وغيره من المؤرخين الذين سبقوه. (المترجم)

سأسف كثيراً إذا لم أذكر كل الأشخاص الذين بدونهم ما كان لهذا العمل أن يخرج إلى حيز الوجود. الأول بين هؤلاء هو أمي الروسية - اليهودية التي تزوجت في لندن في منتصف الحرب العالمية الثانية أبي الهندي المسلم. لقد ألهمت هذه الرابطة بين الشرق والغرب، إلهاماً طبيعياً، اهتمامي بهذا الموضوع. كذلك فإن أشخاصاً كثيرين آخرين جعلوا هذا العمل ممكناً، حتى أنني قد أنسى بعضهم هنا عن غير قصد. ولقد بدأ هذا العمل بسبب معهد ستانفورد في عام ١٩٨٨ وتبنى الوقفية القومية للإنسانيات National Endowment of Humanities. لقد شجعني هيو دوسون - في جامعة سان فرانسيسكو- على التقدم بطلبى إلى المعهد ، لهذا أتوجه بعرفانى له بغير حدود. وبقيادة راشيل ياكوف وبيتر هوكنز وكيفين براونلى وبيلى ستيفانى وجيفرى شتاب أجمع المعهد اهتمامى بدانتى، الذى لم أكن قد درسته لمدة عشرين عاماً. وأثار جون فريكيرو- وهو محاضر فى المعهد - ببلاغة قوة شعر دانتى. ونتيجة لأحاديثه جلست فى حلقة الدراسية عن دانتى فى ستانفورد، ودفعنى هذا أكثر نحو قوة خيال دانتى. كما أن قراءة كتاب جيوزيبى مازوتا دانتى، شاعر الصحراء - Giuseppe Mazzotta، Dante the Poet of the Desert وهو واحد من الكتب العظيمة عن دانتى فى القرن العشرين - جعلتني أسعى إلى مازوتا فى جامعة ييل، مرة أخرى تحت رعاية الوقفية القومية للإنسانيات. وقد شجعنى مازوتا على نشر المقال الأول الذى كتبته عن دانتى، والذى أدى إلى مزيد من المقالات وإلى تركيز على موضوع هذه الدراسة. وأتاحت لى منحة دراسية من "الزمالة البحثية للوقفية القومية للإنسانيات" - بناءً على توصيات قوية من مازوتا وفريكيرو وبراونلى - أن أمضى سنة فى الكتابة والدراسة فى روما. ويوضح فإن رؤيا دانتى، وإلهام كل أولئك الذين فتنهم شعره، قد أشعلت المشاعر الأوروبية لدى كل من ذكرتهم، ونقلوا حماسهم إالى. وأحتاج إلى ذكر آخرين أيضاً، ليس أقلهم أولئك الذين ساعدونى فى إيطاليا: أمناء المكتبات فى المكتبة الإيطالية فى لاسابيينزا، والأمناء فى مكتبة الفاتيكان، وفيوريل سيمونى فى لاسابيينزا، وغرازا

سوتيس فى مركز ليولا بجامعة روما . فى مركز ليولا بجامعة روما ساعدنى الاب جورج كوينى مدير مرصد الفاتيكان فى فهم فلك دانتي. وتحدى بول مورفى - وهو باحث فى حركة النهضة بجامعة سان فرانسيسكو - فرضياتى عن العصور الوسطى، وأعطانى الاب ريتشارد كوستيفان دروساً فى البابوية الوسيطة صباح كل يوم على مائدة الإفطار. بدون هؤلاء الأشخاص لكانت حياتى أفقر، ليس هذا فحسب، بل لكان أفقر أيضاً فهمى لدانتي. قرأ جيفرى بيرتون راسل مخطوطتى فى مراحلها الأولى وزودنى بالنصيحة الضرورية بشأن تنقيحاتها، كما فعل مازوتا، الذى يعرف كيف يحدث الناس بطريقة خفية، أين يتعين إدخال التغييرات، والذى يعرف أيضاً - مع ذلك - كيف يشجع الناس على أن يؤمنوا بأفكارهم. قرأ جورج دين أبيل، مدير معهد الإنسانيات فى جامعة كاليفورنيا فى مدينة ديفيز، المخطوطة وقدم لى ما احتجت إليه من تلميحات. وقوم سكوت ويستريم بسخاء فهمى للجغرافيا الوسيطة ورسم الخرائط الوسيطى. وأى أخطاء تبقى أخطائى وحدى. وزودتنى جانيت لوفارى سمارت وفكتوريا كيركهام وقارئ مجهول بنصائح جوهريّة بشأن إعادة تشكيل وتدقيق حججى. ساندر وليمز - محررة الكتاب - برهنت مرة أخرى على مواهبها البارزة. وأخيراً فإن هاييت موراف، زميلتى والمديرة فى جامعة كاليفورنيا بمدينة ديفيز، وزوجى بوب شيلدغين، قدموا تشجيعاً ونصحاً مستمرين. وفوق هذا كله فإن "الوقفية القومية للإنسانيات" جعلت هذا العمل ممكناً.

ملاحظة عن نصوص دانتي

الاقتباسات من نصوص دانتي وترجمتها مأخوذة من الطبقات التالية:

- Il Convivio. Ed. G. Busnelli and G.Vandelli. 2 vols. Florence: Felice le Monier, 1954.
- Dante's Il Convivio (The Banquet). Trans. Richard L. Lansing. New York. Garland, 1990.
- The Divine Comedy. Trans. And commentary Charles S. Singleton. Bollingen Series 80. Princeton: Princeton University Press, 1970-76.
- Monarchia. Ed. And Trans. Prue Shaw. Cambridge: Cambridge University Press, 1995.
- Quaestio de Aqua et Terra. Ed. Francesco Mazzoni. In Opere minori. Vol. 2. Milan: Ricciardi, 1979.
- Quaestio de Aqua et Terra. Ed. Giorgio Padoan. Florence : Felice Le Monnier, 1968.
- La Vita Nuova. Ed. Domenico de Robertis. Milan : Ricciardi, 1980.
- De Vulgari Eloquentia. Ed. and trans. Steven Botterill. Cambridge : Cambridge University Press, 1996.

مقدمة

جغرافيا مقدسة

خلال بحر الوجود العظيم

الفردوس الأنشودة الأولى - البيت ١١٣

ليست مملكتي من هذا العالم

إنجيل يوحنا ٣٦:١٨

"مملكتي"، أجب، "ليست من هذا العالم"

- دانتي - الملكية

وصفت بالنبوءة والرؤيا والحملة الصليبية والموسوعة واللاهوت، ومن الواضح أن الكوميديا الإلهية هي هذا كله مجتمعا، وإنما بصورة تنطوي على التحدى. إن الرؤيا الطوباوية - لكونها تراتبية على نحو قهرى - تفرض نظاماً أخلاقياً على العالم، ولكن العالم يقرب الترتيبات الدنيوية التي غرستها الكنيسة والدولة، رأساً على عقب. فدانتى يضع بابوات وملوكا فى الجحيم ويضع أولئك الذين اعتبرهم ملتزمين حقاً بالحب والعدالة والمعرفة والفقر فى الفردوس. وتتعهد الكوميديا - باعتبارها "تخييل" (فانتازيا)

الشاعر - بتفحص الفضاء الإنساني برمته. وعلى الرغم من أن فضاء القصيدة يعلن عالم الفعل الإنساني عالمًا بلا فكر، فوضوئى، شهوانى، ومخادع، فإنها أيضاً تصور البشر النموذجيين، وتشير إلى النظام العالمى والتناسق والجمال الذى يلقى بظله على عناصر العالم المتعدية.

لقد سار دانتى وراء حدسه الشعري الخاص بشأن الكيفية التى كان يمكن للجغرافيا فى زمانه أن تُجعل، بحيث تتناسب داخل هذه الرؤيا العالمية. لقد لعن أولئك الذين كان البحث عن معرفة أشياء هذا العالم بالنسبة إليهم عملاً عقلانياً وتجريبياً بالمعنى المحدد (برونيتو لاتيني^(ج) ومايكل سكوت^(د))، على سبيل المثال) وعفا عن أولئك الذين - كما كتب بوناڤنتورا^(هـ) - كانت المعرفة الحققة عندهم هى فى الرب^(١). وتبرهن دراسة لجغرافيا دانتى ودور الشرق داخلها، بوضوح، على أن أوروبا هى فضاء قلقه وكرهه السياسى، بينما يقوم "الشرق" بوظيفة مجاز لـ "العجائب" التى تكشف عن عظمة الخالق وجلاله عن القياس. ويبدو التزام الشاعر المفعم بالعاطفة والتنبؤى برفاه هذا العالم، وبخاصة الجغرافيا التى يعرفها معرفة جيدة - فلورنسا وإيطاليا وأوروبا - فى كافة أنحاء القصيدة. ويتعزز هذا الالتزام فى الفردوس بطرق كثيرة فى أقسى أنشوداته، بزمه المتكرر ضد الفساد الأوروبي ينطق به أكثر الشخصيات تبجيلاً -

(ج) Brunetto Latini سياسى ومعلم من فلورنسا (المترجم).

(خ) Michael Scot (١١٧٥-١٢٢٤) أحد المدرسين الويسيطيين، أسكتلندى المولد تعلم فى جامعات أوكسفورد وباريس وتوليدو. ترجم أعمال أرسطو وابن رشد إلى اللاتينية، واشتهر بالبراعة فى أعمال السحر. (المترجم).

(د) St. Bonaventuri (١٢٢١-١٢٧٤) لاهوتى ومتصوف وفيلسوف إيطالى، كان أكثر تركيزاً على الإيمان منه على العقل، على العكس من توما الاكوينى، أهم مؤلفاته هو طريق الذهن إلى الرب (Itenerarium mentis ad deum). (المترجم)

جوستينيان والقديس توما^(د) والقديس بونافنتورا والنسر والقديس بطرس داميان^(د) وكاشياغويدا^(نا) وبياتريس^(س) والقديس بطرس.

إن الكوميديا- التي تبدأ فى "الغابة المظلمة" [الجيم ١:٢] وتنتهى حيث "أخفقت قوة التخيل السابق" [الفردوس ١٤٢:٢٣] هى الفضاء الرؤيوى الذى سكنه دانتي حينما انقطع الاتصال بينه وبين فلورنسا ، "الحظيرة الجميلة" [الفردوس ٥:٢٥]. ومثله مثل حزقيال ويوحنا الإلهى، يحول دانتي - كمنفى ومنبوذ - أبعاده الجغرافى إلى فضاء من النبوة، ذلك أنه يحول المنفى السياسى إلى الفرصة الموازية لإماطة اللثام عن رؤياه وفى "فضاء النص" أى الحظيرة الشعرية، بين الغابة المظلمة والرؤيا الصامتة، وكما فى كل الأعمال الرؤيوية، يجعل دانتي من العالم الذى يخبره البؤرة التنبؤية للقصيدة، حقاً - كما هو الحال مع أنبياء الإنجيل - وهم الكتاب الذين يصطف دانتي معهم - لا يغيب الفضاء التجريبي أبداً. إنه الشغل الشاغل الرئيس لغضب الشاعر المغمم بالعاطفة ولاتزامه. إنه يضفى طابعاً عقلانياً وطوبائياً على الفضاء المحاكى للسلطة الرومانية، وهى تتحول إلى صورة لاهوت الأمل السياسى العائد إلى الحياة

(د) توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) القديس واللاهوتى والفيلسوف الكاثولى الأشهر، ولد فى إيطاليا وتعلم فيها ثم فى باريس حيث تعلم وعلم ودرس. أعظم مؤلفاته هو Summa Theologica وفيه يلخص كل ما هو معروف عن الرب وعن الإنسان من مصدرى العقل والإيمان. لا تزال "التوموية" نسبة إليه تعد حجر الأساس لمذاهب الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم).

(ر) Peter Damian من أباء الكنيسة ، انخرط فى دير للبندكتانيين فى منطقة جبلية (ماونت كاتريا)، وأصبح رئيساً لكننة هذا الدير فى عام ١٠٤١ . (المترجم).

(ز) Caciaguida الجد الأكبر لدانتي (المترجم).

(س) Beatrice حبيبة دانتي التى ألهمته الكوميديا الإلهية وعدداً آخر من قصائده الخالدة وبالأخص "الحياة الجديدة" Vita Nuova. عرفها وهى فى التاسعة من عمرها وخطفها منه الزواج بخيره، ثم خطفها الموت وهى فى ريعان شبابها. (المترجم).

لديه، ذلك المؤسس على كتاب أوروسىوس (ش) (المجلد السابع ص ١٨٨) (٢) Historiarum Adversus paganos Libri والمقصود على القارة الأوروبية. هذا الفضاء ذاته، الذى تتحداه المناطق الحدودية للهند و الحبشة، يصبح الوسيلة للتساؤل عن المزايم العالمية لرؤياه السياسية الطوباوية كما طورها فى كتابه الملكية Monarchia ، ذلك لأن الأيدى التى تتجاوز الفضاء الإمبراطورى الرومانى السابق لا تستطيع أن تسورها رؤياه العالمية المفردة، وهى رؤيا يحيط بها من جميع الجهات " ذلك الحجر الذى يتحرك الكل صوبه، سواء ما يخلقه وما تصنعه الطبيعة" [الفردوس، ٨٦:٣-٨٧]. إنه يتذكر فلورنسا كفضاء ألفه، فضاء حنين إلى استقرار سابق، خلقه بخياله (٣). هنا هو يستحضر ماضى فلورنسا كأماكن وفضاءات يتذكرها، كتاريخ يترك محله للشعر، وكزمان للمخيل باعتباره المادة الأساسية للذاكرة الإنسانية (٤).

لقد حرم دانتى من موطنه سوى كذكريات وكخطوط، لهذا فإنه كشاعر منفى يصمم منظراً طبيعياً متخيلاً حيث فضاء رغبته، وخططه الطوباوية ومكانيته الرؤيوية تجد تعبيرها. إن دانتى يحول خسارته لفضاء ألفه إلى مجاز للخسارة الأولى، لطرد الزوجين الأولين من الجنة. إنه يعبر عن رحلة حجّ بعبارات استعادة الفردوس. إنه يحول رحلة مجازية من بابل أو من منفى مصرى، أى المنفى التاريخى للعبرانيين، إلى الرحلة الاستعارية التى يتوجب على كل الكائنات البشرية أن يقوموا بها إلى قدس رمزية: "هنا يعيشون ويفرحون فى الثروة التى كسبوها بالدموع فى المنفى فى بابل، حيث كان الذهب محتقراً" [الفردوس، ١٣٣:٢٣-١٣٥]. أو "من مصر إلى القدس حتى

(ش) Paulus Orosius قسيس ومؤرخ إسباني من القرن الخامس عشر، وكتابه المذكور هو تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عام ٤١٧ ميلادى، وكتب بهدف أن يكون مرافقاً لكتاب القديس أوغسطين مدينة الرب، وقد استمد دانتى منه الكثير من معلوماته فى الكوميديا بشأن الشخصيات والأحداث. ويجدر بالذكر أن الترجمة العربية القديمة لهذا الكتاب صدرت حديثاً بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى. (المترجم)

يمكنه أن يرى" [الفردوس، ٥٥:٢٥-٥٦]، أو من المنفى المؤقت إلى المواطنة "هنا ستكون لفترة قصيرة من قاطنى الغابة، وستكون معى إلى الأبد من مواطنى روما، حيث المسيح رومانى" [الفردوس، ١٠٠:٣٢-١٠٢]،^(٥) وعلى الرغم من أن هذه الاستعارات تشكل معاً تخیلات توراتية وسياسات رومانية، فإن الإشارات إليها تقوم أيضاً بوظيفة تقويض مزاعم دانتي عن المواطنة الرومانية باعتبارها المكانة السياسية المثلى. وهو فى الحقيقة يحول مدينة الرب^(٦) لأوغسطين والإمبراطورية التى يصبح كل من يأتى إليها مواطناً رومانياً مجازياً.

على الرغم من هذه الجغرافيا والجيوستاسية المجازيتين فإن انتباه دانتي إلى "حظيرته الجمالية" يبين أنه لم يتخل أبدأً عن التاريخ والجغرافيا التجريبتين فى قصيدته. فهو قد يشير بازدراء - على نحو أفلاطونى جديد وماكروبيوسى^(٧) (ص) - إلى العالم الأدنى باعتباره "أرضية البيدر الصغير الذى يجعلنا قساة إلى هذا الحد" [الفردوس ١٥١:٢٢] - وهى استعارة توراتية لوصف العنف المستديم للعالم - ولكنه لا يتخلّى أبدأً عن أمله بأن بالإمكان إصلاحه.

كان على دانتي - إذ يصف "الاختلاف" بأنه استعارة^(٨) - أن يجد طريقاً (اللغة) لـ "يصور" الفردوس فى صورة شعرية. لهذا فإنه فى رحلة مجازية أوغسطينية^(٩) يستبدل دعايات الصليبيين وحريهم بفضاء الشعر الذى يصبح حجه الباطنى، رحلته الحقيقية إلى الفضاء السماوى، "هناك حيث كل خير ينتهى ويبدأ ذاته" [الفردوس، ٨٧:٨] بالفعل المنعكس الذى يؤكد ديمومة السماء. وحيث "الاستعارة هى الأداة الأدبية السائدة لربط الشعر باللاهوت، يحول دانتي مادة أعاجيب الشرق ويضفى طابع

(ص) نسبة إلى ماكروبيوس Macrobius (ولد فى فلورنسا نحو عام ٤٢٠م)، كاتب وفيلسوف لاتينى، أهم مؤلفاته Saturnalia عنى بشكل خاص فيه بتقويم أشعار فيرجيل. وكانت له شعبية كبيرة فى العصور الوسطى، وأثر كثيراً فى الشاعر الإنكليزى تشوسر. عرف عنه ازدرائه الشديد للعالم. (المترجم).

الاستعارة على الجغرافية - محتذياً حذو بونافتورا أشياء العالم - الأنهار، البحار، النجوم، الحجار، الأشجار، الورد، وما إلى ذلك - تصبح علامات عمل الرب الخلقى. وهو لكي يطهر الفردوس يدفع الشعر إلى حدوده المطلقة، لتصف الفردوس يتوجب على القصيدة المقدسة أن تحقق قفزة، حتى كمن يجد طريقة قطع [الفردوس، ٦١:٢٣-٦٢].

إن الفضاء المادى لعالم دانتي الآخر، وهو ليس موضوع هذه المناقشة، هو موقع مناظرات زمانه السياسية والجمالية والفلسفية والأيدولوجية. وعلى الرغم من أنه كان بإمكانه أن يتجه إلى فيرجيل طلباً لصيغة للجحيم، في نصوص توراثية مثل حزقيال وفي رؤيا يوحنا يجد تلميحات "المطهر والفردوس". ويفرض جحيم دانتي نظاماً أرسطياً صارم التنظيم على العواقب الفوضوية للإدارة البشرية المتعدية، مبيناً أعمال العدالة الإلهية التي لا يمكن تجنبها. إن غابات الجحيم المظلمة وبركه الطينية ورياحه العاتية وصحاري الحارقة ونيرانه المتقدة، ونفاياته الثلجية- التي تحاكي وحشية الطبيعة - إنما هي تذكيرات بأن قسوة الطبيعة هي "الأداتية الإلهية لمعاقبة اللاعقلانية البشرية، أما الجحيم كفضاء مجازي فإنه يكون حيث النعمة والضوء والحب ليست في أى مكان". إن هذا الترتيل يحتذى نمطاً درامياً متماسكاً في فضاء جغرافيا قاسية، تشبيه كناية عن الخطيئة والعدالة المطلقة وغياب النور الإلهي.

ويأخذنا المطهر إلى بيئة نسكية للتأمل والاسترخاء المغري والصلاة، بينما تقود موسيقاه الكاتدرائية وفنه وشعره المسافرين عبر صعوده الوعر بعيداً عن الخطيئة، مع الهاءات ممكنة كثيرة توقفهم على طريقهم، وإن كانوا يمضون صاعدين أبداً نحو السماء. وإذ يرفض دانتي المعتقد الشائع بأن جنة عدن هي في الهند، فإنه يسوى المسألة التي دارت حولها مداولات حامية عن القارة الرابعة، أو المنطقة المعتدلة الموازية، بأن يضع المطهر هناك وراء قادش على الجانب المقابل للقدس، بينما روما، كمرکز للعالم، في منتصف الطريق بالضبط بين القدس وقادش. وتكشف ذروة المطهر

حديقة يتحدى جمالها أى Locus amoenus وصفها الشعراء القدامى. وعلى الرغم من أن عالم المطهر منظم، وعلى غرار الجحيم تحكمه قوانين وعدالة، مع ذلك فإن الأنشودة تعرقل فجأة أى فكرة عن مكان التنبؤ. فيها هو كاتو(ض) - منتحر وثنى - يحيى الشعراء ويقدم أول تحد لإرشاد فيرجيل: يقول ستاتيوس(ط) - الذى لابد أن يكون قد عاد إلى اليمبوس(ظ) - إن قصيدته قادتة إلى المسيحية؛ وفى وضع عكسى لمأساة آدم وحواء الأصلية فى جنة عدن، تحاصر بياتريس - وهى امرأة - دانتى - وهو رجل - عن انعدام إيمانه (كما حاضرت ديدو أينا(ع)؛ وفى اللحظة التى نطن فيها أننا نترك "الخطيئة" وراءنا، حينما يبدو دانتى قريباً من التغلب على أزمته الشخصية، فإن الكنيسة والدولة المعاصرتين المتعدّيتين وراء حدودهما تعيدان عرض خطيئة حواء الأصلية؛ حيث البغى تطفر مرحاً مع العملاق (الفريوس، ٣٢) وتقطع فضاء البهجة العدنية. تكرر الدراما التى تؤدى فى جنة دانتى العدنية الجديدة الخيانة الأصلية، غير أن الممثلين الآن هم القادة الكنسيون والسياسيون فى زمانه، والأحداث الممثلة تتم فى أوروبا، وليس فى عدن "شرقية" متخيلة.

لكن إذا كان المطهر يلوح إلى الصدمة التى تنتظر المسافرين إلى العالم الآخر، فإنه يتعين على دانتى - فى الفريوس - أن يمضى وراء كل المشاهد الفنية الإنسانية؛ لأن

(ض) Cato رجل دولة روماني (٩٥-٤٦ ق.م.) جمهورى متزمت من المدرسة القديمة برز فى الفلسفة الرواقية. عندما انتصر يوليوس قيصر على بومبي - الذى تحالف معه كاتو ضد قيصر - أثر كاتو الانتحار، فأصبح بالنسبة للرومان رمزاً للفضيلة الرواقية. (المترجم).

(ط) Statius (٤٥-٩٦م) شاعر لاتيني وإد فى نابولى تضمنت أعماله التى بقيت ملحمة على غرار فيرجيل، تتمتع باحترام عميق فى عصره وطوال حقبة العصور الوسطى. (المترجم).

(ظ) Limbo مواطن الأرواح التى تحرم من دخول الجنة لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير المعمدين. (المترجم).

(ع) Dido ملك قرطاج، Aeneas أمير طراودى ابن ألهة الحب والجمال Venus. (المترجم).

"المضى إلى ما وراء الإنسانية قد لا يدع فى كلمات؛ لهذا يوضع هذا المثل يكفى لأى من كانت النعمة بالنسبة إليه هى التى تحفظ تلك التجربة" (الفريوس، ١: ٧٠-٧٢). حين يفكر دانتي فى الكيفية التى تتشكل بها الذاكرة من مجموعات مكانية ووجودية (ontological) أكثر مما تتشكل من مجموعات زمنية، لا يمكنه إلا أن يخبرنا بالكيفية التى شعر بها أو كيف بدا أن الفضاء يظهر له، لكن فضاء هذه الرحلة يفلت من الوصف الدقيق. إن القصيدة باعتبارها تيوديا (Teodea)، كلاهوت وشعر، تمثل أو ترى بالعين الثالثة - هيو من سان فكتور (غ)(١٠)، أو بعين بوناغنتورا التى "ترى" الرب والأشياء التى توجد فيه من خلال التأمل^(١١).

وبصفتها حجاً فإن قصيدته هى "العلاج المكانى"^(١٢) للشاعر، هى حملة دانتي الصليبية، رؤياه، نبوته، وتحوله الشخصى. ولا تكف مخاطباته المستمرة للقارئ أبداً عن تذكيرنا بأننا نقرأ عملاً أدبياً، وأن أى رحلة جرت كانت بالتأكيد فى الماضى، وأن فضاء القصيدة قد حل محل أى تجربة يمكن أن يكون قد ألهمها. إن دانتي - على تقاليد أوغسطينية بوناغنتورا، تقاليد فضاء الرحلة - الحج - يحول الجغرافيا والشرق والرحلات والحجاء والحمالات الصليبية إلى مجاز.

يذهب أنتونيو غرامشى إلى أن "الثقافة" هى وسيلة لصنع وتحديد وتعزيز "إمبراطورية" أو "هوية قومية"، سواء كانت اقتصادية أو سياسية^(١٣).

(غ) Ugo di san Vittore (١٠٩٧-١١٤١) متصوف ولاهوتى من القرن الثانى عشر من بلاد الفلمنك، دخل الدير فى باريس، وكان من أشهر تلاميذه بيتر لومبارد Lombard، كان الهدف الرئيسى لكتاباتة إلحاق الهزيمة بالمذهب العقلانى. (المترجم).

وتحت مجهر هذا النوع من النقد الثقافي، عرضت نصوص "الشرائع الغربية" مؤخراً باعتبارها مصدراً واحداً لهيمنة خفية تدعم أنظمة اقتصادية وسياسية، وخاصة تلك المزاعم الثقافية التي تهزأ بشعور حضارة ما بذاتها^(١٤). في محاولة من جانب باحثين معاصرين لفهم الوعي "الكولونيالي" والدور الذي لعبته الثقافة في بناء البلاد الشرقية التي تم غزوها وسكنها، درسوا "الشرق" الذي أكسب طابعاً غرائبياً في آداب وثقافة الحقب الكولونيالية وبعد الكولونيالية^(١٥). وفي بحثهم العادل عن كشف الإنشاء التخيلي لـ "فكرة" "الحضارة الغربية" التي افترضها مسبقاً كتاب بارزون أمثال جاكوب بوركهاردت Burckhardt وإريك أورباخ Auerbach وليو سبترز Spitzer وأرنست كورتيوس Cortius، حاول منظرون ثقافيون معاصرون - مزودون بمعارف ما بعد عصر الأنوار - أن يرسموا خطوط تطورات ثقافية معينة في العالم الغربي أفضت إلى مغامرات إمبريالية.

إن الخلق الثقافي لـ الآخر^(١٦)، والإيمان بـ "أجناس متوحشة"، والبحث عن الأشياء الثمينة والبلدان الجديدة، والافتتان بالمنظر العجيب على حواف الأرض^(١٧)، قد ساعدت على حمل عبء نزع التوسيع الأوروبية، واحتلت هذه الظواهر شواغل منظري أواخر القرن العشرين. وتظهر مثل هذه المواضيع في مصادر وسيطية كثيرة، تتراوح من الموسوعات (التي كتبها إيزيدور Isidore سمن أشبيلية [نحو ٦٢٢-٦٣٣]^(١٨)) وفينست بوفيه Vincent of Beauvais (ولد نحو ١١٨٤ - مات ١٢٦٤)^(١٩)، على سبيل المثال، ممن قامت أوصافهم للعجائب على تلك التي قدمها بليني^(٢٠) أو سولينوس أو مصادر ذات صلة^(٢١). وأدب الرحلات (الذي كتبه ماركو بولو^(٢٢) على سبيل المثال) والحملات الصليبية والحج والمسردات التاريخية ذات العلاقة، كتلك التي كتبها فوشيه تشارتر Foucher of Chartre^(٢٣). جاك فيتري (Jacques of Vitry)^(٢٤) إن هذه النظرات المتخيلة للجغرافيا فيما وراء تخوم العالم اللاتيني المعروفة نادراً ما توضع في سياق مضاد لتقليد فكري متماسك أنكر وجود الأجناس المتوحشة وتفحص العجائب من

منظور تجريبى أو لاهوتى. وعلى سبيل المثال - كما ستبين هذه الدراسة - فإنه على الرغم من أن هذه المواضيع تظهر فى أعمال أوغسطين وأوروسىوس وألبرت الأكبر^(٢٥) (ف) وبوناغنتورا، أن أيا منها لا يكسب "طابعاً غرائبياً" ولا "طابعاً شرقياً" بالمعنى المعاصر.

فى أعمال هؤلاء الكتاب المتأخرين وكذلك فى أعمال دانتي - على النقيض من أعمال الرومان الأقدمين^(٢٦)، لا نجد مفهوماً عن "الغرب" يتميز أو يتفوق بشكل ما على البلاد الأخرى. ويرجع هذا فى جانب منه إلى أنه حتى القرن السادس عشر، كانت أوروبا - وعلى وجه الخصوص أوروبا الجنوبية - جزءاً من نظام رافد يتمركز فى البحر الأبيض المتوسط مشتملاً على أقاليم مختلفة - المدن - الدول الإيطالية، اليونان، الشرق الأوسط، شمال إفريقيا، وفرنسا، على سبيل المثال - وفيها أنواع مختلفة من الناس، بينهم العرب والنورمنديون والإفرنج، كذلك المسيحيون واليهود والمسلمون^(٢٧). وأثناء الحملات الصليبية، التى كانت بوضوح حدثاً أساسياً فى تاريخ الوعى الأوروبى، بدأ الغرب اللاتينى يبدى وعياً ذاتياً عدوانياً^(٢٨)، وتصور على نحو مفهومي فكرة عن ذاته ككيان سياسى مسيحي موحد. مع ذلك فإن وجهات النظر الوسيطية فى "الشرق"، والإسلام بوجه خاص، لا تعبر عن تفوق أوروبى بالطريقة التى أصبحت شائعة من عصر النهضة إلى الحقب الحديثة. حتى على الرغم من أن المسيحيين كانوا يعتقدون بأنهم يملكون "العقيدة الحقة الوحيدة"^(٢٩). والحقيقة أن مواجهة الإسلام بطريقة مباشرة أظهرت للأوروبيين بالتحديد كيف كانت ثقافتهم قد أفقرت على النقيض من

(ف) Albert Magnus (١١٩٣-١٢٨٠) أحد أهم أساتذة توما الأكوينى، وقد أطلق عليه وصف "الأستاذ العالمى" Universal Doctor تعبيراً عن سعة اطلاعه. من مؤلفاته شروح الكتاب المقدس وشروح أرسطو. كان أول من حاول التوفيق بين فلسفة أرسطو والمسيحية. وهاجم شرح ابن رشد لأرسطو. (المترجم).

عدوهم المختار^(٢٠) . مع ذلك، فإن تلميحات قوية إلى توجه نحو "مركزية أوروبية" كانت تظهر بوضوح بالفعل، خاصة في أدب الرحلات والحملات الصليبية والحج.

يشير "الشرق"، وهو اصطلاح غامض على أحسن الفروض، بصورة عامة إلى كل البلاد إلى الشرق وإلى الجنوب من مركز تخيل ما قائم على أساس ميراث الإمبراطورية الرومانية قبل أن يقسمها كونستانتين إلى شرق وغرب في القرن الرابع. ويميز تصور إدوارد سعيد المفهومى شرق البحر الأبيض المتوسط - بلاد الشعب العربى - باعتباره أنه "شرق" مزدري، مقابل شرق أقصى - الهند والصين - وهذا أفق مبجل^(٢١) ويطلق شيبيرى هينتس (Hentsch) الذى يرفض اصطلاحى "الشرق الأوسط" و"الشرق الأدنى" باعتبارهما "متمركزين عرقياً" وصف شرق البحر المتوسط على الشرق الأوسط. ويذهب - على نحو مقنع - إلى أن هذه المنطقة قد جعلت "جبهة أسطورية" بفعل التفجر الذى خلقه صعود الإسلام اعتباراً من القرن الثامن. وأصبح شرق المتوسط والشعوب التى تعيش هناك موضوع قلق للشعوب فى البلاد الغربية التى كانت تشكل فى السابق الإمبراطورية الرومانية^(٢٢) .

وفى الحقيقة، فإن فحصاً دقيقاً للتمثيل الأدبى للشرق الأوسط فى القرنين التاسع عشر والعشرين يظهر أن "الاستشراق" "متغير التكوين بصورة عميقة"^(٢٣) . وستبين هذه الدراسة لـ كوميديا دانتي بالمثل تغير معالجته لـ "الشرق".

إن الاهتمام المحدد بـ "الاستشراق" ليس برمته جديداً على دراسات حقبة العصور الوسطى. ذلك أنه لفترة تزيد كثيراً عن قرن والباحثون يظهرون اهتماماً بالمساهمة التى قدمتها الثقافة الإسلامية للتطور الأوروبى^(٢٤) . لقد استكشف الباحثون الافتتان الغربى بالعجائب الشرقية والازدراء والانجذاب المزامن لبلاد وشعوب الشرق، وكذلك الدور الذى نقلته هذه المشاريع المتخيلة إلى التراث الأدبى الغربى^(٢٥) . وقد طبقت مقاربات مماثلة على كوميديا دانتي.

عند دانتي "الشرق" (Orient)^(٢٦) هو الشرق (East)، الذي منه مطلع الشمس، وهو يشمل على وجه التحديد الهند وشرق البحر المتوسط وفارس والحبشة، وعلى وجه العموم بقية آسيا. ولقد عالج كثيرون آخرون^(٢٧) تأثير الثقافة الإسلامية على الكوميديا، لكن كيف يطوع دانتي "مادة الشرق" الأدبية ويحولها فهذا أمر يشكل بعداً آخر من غرضه الشعري والسياسي واللاهوتي^(٢٨). يصير إدوارد سعيد - الذي يُفرد دانتي باعتباره يمثل نقطة الذروة في "الجسر بين العالم القديم والحداثة" - على أن "قواه كشاعر" قد كثفت "مقاربات الشرق" الازدرائية^(٢٩). وإن أخذ سعيد المفهوم ذاته عن تقليد "أوروبي" (من أسخيلوس^(٣٠) إلى القرن التاسع عشر) يحاول أن يكشفه، فإنه يضع دانتي في نقطة المركز من ذلك التقليد^(٣١).

في الحقيقة، يمثل دانتي "شروفاً" كثيرة، بينها شرق سياسي وشرق جغرافي، كذلك شرق متخيل. مع ذلك فلا واحد منها يثير قلقه أو خوفه. فإذا كانت "الشرقنة" تفصل الغرب عن الشرق في فعل "جغرافية متخيلة"، كما يؤكد سعيد^(٣٢)، سيصبح من الواضح أن دانتي لا يُضفي طابع الغرابة على شرق يرغب في استحوازه، إنما يريد في الآن ذاته أن يعاون في فعل "شرقنة" ثقافي. الأخرى أنه إذ يجلب موضوع الشرق في قصيدته إنما يقوم برسم الخط الفاصل بين الشرق والغرب ويكشف الغرب باعتباره موضع قلقه. وفي الحقيقة فإن تحليل معالجة دانتي لـ "الشرق" وهو بالتأكيد "جغرافيا متخيلة"، سيرينا أن الشرق ليس موضوع خوف وافتتان، إنما هو موضع

(ق) تأتي ضرورة التمييز بين Orient و East من أن الاصطلاح الأول يستخدم في الغرب بصفة عامة للإشارة إلى الشرق الأقصى، في حين أن الغربيين يستخدمون الاصطلاح الثاني عند الحديث عن الشرق الأوسط أو الأدنى. (المترجم).

(ك) Aeschylus (٥٢٥-٤٥٦ ق.م.) كاتب مسرحي بارز من كتاب المأسى اليونانية، أبرز أعماله أوريستا Oresteia، بروميثيوس مقيداً Prometheus Bound، والفرس The Persians، وفي من بين سبع مسرحيات بقيت من مؤلفاته التي يقدرها المؤرخون بشعنين. (المترجم)

التضاد والجدال، محل منه يستطيع الشاعر أن يختبر فيه مواقف لاتينية غربية منتشرة، ليس هذا فحسب إنما أيضاً قناعاته الشخصية. وفي هذا الصدد يمثل "الشرق" في كوميديا دانتي نوعاً آخر من "الاختلاف" الذي يدخله في قصيدته والذي يتحدى الوحدة التي يقيمها كمبدأ حاكم لها^(٤١).

لقد أفضى أمل دانتي السياسي به إلى إنشاء "جماعة متخيلة"^(٤٢)، أوروبا موحدة قائمة على أساس المثل الأعلى للسلام الروماني Pax Romana. لكنه، إذا كان دانتي - في الملكية - قد حاول أن يبعث من جديد النموذج القديم للإمبراطورية، وهو نظام سياسي "عالمى"، فإنه في الكوميديا يدفن ذلك النموذج الميت ويستبدله بـ "فكرة أوروبا"^(٤٣). وتظهر "أوروبا المتحدة" هذه - التي يتخيلها دانتي - في تعارض مع الحركة التوسعية للحملات الصليبية تحت لواء عالم مسيحي متحد، وبالمثل ضد البعثات التجارية والتبشيرية إلى الشرق.

كان دانتي قد اقترح في الوليمة Convivio (١٣٠٩) حكومة عالمية، ذاهبا إلى أن الأرض برمتها، وكل ما هو معطى للجنس البشرى ليمتلك، ينبغي أن تكون ملكية؛ أى إمارة مفردة لها أمير واحد يملك كل الأشياء ولا يرغب فى أى شىء آخر، لهذا يحتفظ بالملوك راضين داخل حدود ممالكهم ويحفظ بينهم السلام الذى يتعين أن تعيش فيه المدن. وعن طريق السلام يمكن للجماعات أن تصل إلى أن تحب الواحدة منها الأخرى، وبهذا الحب يمكن لكل الأسر أن توفر ما تحتاج إليه، فإذا ما توفرت تجلب للإنسان السعادة، لأن هذه هى الغاية التى من أجلها ولد [ص ١٥٥-١٥٦].

وقد عرض دانتي على نحو أوسع هذه القناعات الجغرافية والدينية المتداخلة فى كتابه الملكية (١٣١٢) الذى ذهب فيه إلى الدفاع عن الأصل والمصير الإلهيين للإمبراطورية الرومانية.

أى حالة البشرية التى لم ينتظرها ابن الرب أو اختار هو نفسه أن تكون، حينما كان عند النقطة التى عندها يصبح إنساناً من أجل خلاص البشر....، وإن تجد أنه كان ثمة سلام أبداً فى أنحاء العالم إلا تحت قيادة أوغسطس^(٤٤) اللاأخلاقى عندما كانت توجد مملكة تامة [١-١٦-١-٢].

العالم فى الملكية هو كما كانت فكرته عن الإمبراطورية الرومانية ، لكن دانتى فى الكوميديا يدخل على وجه التحديد حدوداً شرقية وغربية لهذا التصور المبكر لجغرافية العالم. إن المثل الأعلى للإمبراطورية الرومانية، معبراً عنه كبرنامج سياسى حسى فى الرسائل ٥ و ٦ و ٧- التى رحبت بالإمبراطور المنتخب هنرى السابع إلى إيطاليا ليتوج (١٣١٠-١٣١٢)- ينظم قنوات دانتى السياسية. وكما كتب تشارلز تيل ديفيز Charles Davis، فإن نظرية دانتى فى التاريخ والسياسية تستند بصفة أولية على ذكرى ورغبة، على ذكرى عصر ذهبى مزعوم تحت قيادة أوغسطس، سلام عالمى اعتقد دانتى أنه وجد لمرة واحدة فقط فى التاريخ الإنسانى، ورغبة فى مخلص، من الواضح أنه أوغسطس جديد، يمكنه أن يستعيد هذا النظام الفريد والزائل إلى العالم الجديد^(٤٥).

كان دانتى أول من دعا إلى فكرة "جماعة زمنية عالمية" يمكنها أن تطلب "تضافر جنس بشرى موحد بأكمله"^(٤٥). وفى حججه دفاعاً عن حكومة عالمية ، مع فصل سلطات الكنيسة والإمبراطورية، وعلى أساس حكم القانون^(٤٦)، " هو قاعدة تحكم

(ل) Augustus (٦٣-١٤ ق.م.) أول أباطرة روما، وكان اسمه فى الأصل كايوس أوكتافىوس، تبناه عمه يوليوس قيصر وتولى الحكم بعده، وكان لا يزال فى التاسعة عشرة، وهو الذى ألحق الهزيمة بقوات عدوّه المتحالفين مارك أنطونى وكليوباترا فى معركة "أكتيوم" الشهيرة قرب سواحل اليونان (٣١ ق.م.) ، كسب بعضى السنين سلطات مطلقة وكان هدفه استعادة جمهورية روما وتطهير الحياة الاجتماعية والدينية. (المترجم).

الحياة [الملكية ، ٢-٣ ، ١٤-٦] ؛ حيث روما هي مركزها، كان قد تعين على دانتى أن "يثبت لماذا يمكن لحكومة عالمية فوق كل الحكومات الأخرى في عصرها" [١-٢-٢] أن تضمن السلام، ولماذا يتعين أن تكون روما مركزها، ولماذا من الضروري فصل سلطات الدولة وسلطات الكنيسة. لقد دافع عن إقليمية في إطار حكومة عالمية، يمكن عن طريقها أن تحكم جميعاً بواسطة قانون واحد "في تلك الأمور المشتركة بين كل البشر وذات الصلة بهم جميعاً [١-١٤-٧]. إن من الواضح أن "الحكومة العالمية" التي يدعو إليها دانتى تعنى في الواقع أن تضم العالم بأسره، وهو على وجه التحديد يدرج الغارامانت^(٨) الذين يعيشون في "المنطقة الاستوائية"، الحِيثِين الذين يسكنون "المنطقة القطبية المتجمدة" [١-١٤-٦] - الشعوب التي باستطاعتها أن تواصل عاداتها المحلية بينما تعيش في ظل قانون عالمي. وقد كانت هذه الشعوب المهمة في أعمال بليني وفي أدب "العجائب"، وكذلك في أدب العصر الذهبي والفضي اللاتيني، توصف على الدوام بأنها "غريبة" و"متوحشة"^(٩)، غير أن دانتى يدخلها تحت حكم القانون "الروماني".

وعلى الرغم من أن كتابي الوليمة (٤-٥) والملكية (١-١٦) يستذكران زمن السلام التاريخي حينما كان أوغسطس قيصر يحكم بفعل العناية الإلهية في وقت واحد مع ميلاد المسيح - فإن دانتى يتحول أيضاً إلى الحكاية الأسطورية عن أينياس وفيرجيل لكي يثبت لماذا يتوجب أن تكون روما مركز خططه الطوباوية وليستمد دعماً من تاريخ أسرة أينياس الممتزجة الأجناس ومن ثقافة روما الهجينة . ويعبارة أخرى فإن تفوق روما والرومان الفطري، بالإضافة إلى كونه مدعوماً إلهياً (الوليمة ٤-٤)، كان مكتسباً

(م) Garamantes قبائل من البدو الرحل في المنطقة الوسطى من فزان (ليبيا) يُعتقد أنهم أسلاف "الطوارق"، مشهورون بالبراعة والفروسية، وتاريخياً انخرطوا في جيش هانيبال. (المترجم).

بحق الفضيلة والورثة، حسبما كان يرى^(٤٨) . كانت روما تقع في مركز فريد يمكنها من أن تتولى قيادة العالم، لأن "نبالتها" التي تحتذى كانت ميراثها "الهجين". ويجمع دانتي - محتذياً الخط العام الأساسي للجغرافيا الذي يطرحه أورويسيوس^(٤٩) وأوغسطين^(٥٠) . ويجمع دانتي الجغرافية التاريخية اليهودية - المسيحية إلى الرومانية. يلمس فكرة التاريخ العالمي التي كان من شأن أورويسيوس أن يتخذها نقطة انطلاق له، والتي رتب أوغسطين- في الفصول ١٦-١٨ من مدينة الرب تاريخ العالم ليتناسب معها داخل ثبّت لتواريخ تاريخ بدأ في جنة عدن. وبالمثل فإن جغرافية دانتي تحذو حذو جغرافية أورويسيوس - آسيا وأوروبا وإفريقيا. ويذهب دانتي إلى أنه من خلال أينياس ربطت روما القارات الثلاث جميعاً (آسيا وأوروبا وإفريقيا). ونقلت بهذا مركز العالم إلى إيطاليا عن طريق حق الورثة والتمازج.

هذا مفهوم أصلى للنبالة، لأنه مبني على أساس فضيلة القارات الثلاث ودمها "المتزوج". وكتب دانتي عن أينياس "إلى المدى الذي يهم نبالة الورثة، نجد أن كلاً من الأقاليم الثلاثة التي ينقسم العالم إليها قد جعلته نبيلاً، عن طريق أسلافه وعن طريق زوجاته على السواء [الملكية، ٢-٣-١٠]. وينقل دانتي عن الإنيادة^(٥١) مستذكراً أنه كان بين أسلاف أينياس ملوك آسيويون، وأنه من أوروبا جاء سلفه داردانوس الذي كان أقدم سلف إفريقي ل إكترا، ابنة الملك الشهير أطلس (الملكية، ٢-٣-١١)^(٥١) . وتشهد زوجاته الثلاث على "عالميته"، ذلك أن أجزاء العالم الثلاثة - إفريقيا وآسيا وأوروبا - أمدته بزوجاته الثلاث: كروزا، زوجته الأولى، كانت آسيوية؛ دينو، زوجته الثانية،

(ن) Aeneid قصيدة فيرجيل المحمية التي لا تضاهيها في شهرتها - ربما - سوى إلياذة هوميروس، وإن كان مؤلفها قد مات دون إتمامها في عام ١٩ ق.م.. قوبلت بحماس متقطع النظير من الرومان بسبب طابعها "القومي" القوي، والقصيدة تتبع جنود الرومان ابتداء من أصولهم الطروادية البطولية إلى زمن الإمبراطور أوكتافوس. (الترجم).

إفريقية، ولافينا، الثالثة، أوروبية (الملكية ٢-٣ / ١٤-١٦). يذهب دانتى إلى أن آينياس، من خلال الميلاد ومن خلال الزواج، كان نتاجاً للقارات الثلاث المعروفة للعالم كلها، وقد جعله هذا مستعداً بمفرده لأن يقود الطريق إلى الإمبراطورية الرومانية^(٥٢). وهكذا فإنه فى الوليمة (٤-٤) ناقلاً عن فيرجيل محدثاً الرب فى الكتاب الأول من الإنياداة، فيكتب دانتى لهؤلاء، الرومان، لا أضع حدوداً، سواء فى المكان أو الزمان لهؤلاء أعطيت إمبراطورية بلا نهاية [٤-٤-١١/١١-١٢].

وكتب فى الملكية:

وإذن دع أولئك الذين يقدمون أنفسهم على أنهم أبناء الكنيسة يتوقفون عن مهاجمة الإمبراطورية الرومانية، ويروا أن المسيح العريس أقرها بهذه الطريقة فى بداية وفى نهاية حملته الدنيوية. وأنا الآن أعتبر أنه قد ثبت بالدليل الكافى أن الشعب الرومانى قد أخذ إمبراطورية العالم بالحق [٢-١١-٧].

إن أهمية روما كمركز لأرض دانتى السياسية لهذا العالم تكمن وراء كلماته اللفظة عن قسطنطين، الذى نقل مقر حكم الرومان إلى القسطنطينية. إذ يجد دانتى (متذمراً) مكاناً لقسطنطين فى الجنة لأنه جعل الإمبراطورية مسيحية (الفردوس ٥٥: ٢٠-٦٠)، إلا أنه يشجب النقل إلى الشرق بأنه غير طبيعى (الملكية، ٢-١١-٨؛ الفردوس، ١: ٦-٩) ويتهمه بأنه قوض الاستقرار السياسى للبحر الأبيض المتوسط تحت حكم روما^(٥٣). كما أنه أدى - فى اعتقاده - إلى التخلّى فى الآن نفسه عن روما للبابا وللتدخل الكنسى فى الشؤون الزمنية، والذى يقترح له دانتى فى الكتاب الثالث من الملكية فصل السلطات الزمنية والكنسية. لقد كان كلا الكاتين الرومانيين القديمين^(٥٤) والعهد الجديد (الروم والأفعال) قد رويوا حكايات التحرك غرباً إلى روما. هكذا، حذو مصادر أولية تاريخية ومقدسة، يضع دانتى روما - وليس القدس - فى مركز العالم، معلناً بهذا التقليد التوارى الذى أقامه حزقيال وأكدّه القديس جيروم^(٥٥).

ويؤكد تركيز دانتي على أوروبا أنشوداته المحددة جغرافياً، فلورنسا هي شاحله في الجحيم، الأنشودة السادسة، بينما تتناول الأنشودة السادسة في المطهر إيطاليا. وفي الأنشودة السادسة في الفردوس يعود دانتي إلى الإمبراطورية ليرهن على تدبير الرب في التاريخ وعلى غرض العناية الإلهية من سقوط طروادة الذي أدى إلى التحرك غرباً وتأسيس روما. يُدخل جستينيان (٥٢٧-٥٦٥) إمبراطور الشرق الذي كان قد وضع قوانين الإمبراطورية، موضوع أوروبا والإمبراطورية: "لمنة ومئة من الأعوام وأكثر أمام طائر الرب"^(٤) في حدود أوروبا القصوى (الفردوس، ٤: ٦-٥)، وهكذا يرتبط كونستانتين بهذه الحركة غير الطبيعية شرقاً. ويتكلم كافة المعلقين على هذه الأنشودة عنها باعتبارها عظة مقدسة عن قداسة الإمبراطورية، تحتفل بقوتها وحصانتها. وهنا يضع دانتي أساس جيوسياسته بينما يجعل جستينيان يستذكر في أنشودة حماسية تاريخ الغزو الروماني والقادة الذين زعموا القيام به، سواء كانوا جمهوريين^(٥) أو إمبراطوريين: توركوأتوس وكوينكتيوس، الديتشي والفابيي، سيبيو ويومبي، يوليوس قيصر، أوغسطس، تيبيريوس، تيقوس، جستينيان وشارلمان. ويستخدم دانتي - مفاجراً بالتدخل السماوي باعتباره الدفعة التي حولت الجمهورية إلى إمبراطورية (الفردوس ٦: ٥٢-٩٦)، الأنهار لرسم حدود الفضاء الجغرافي المحدد للإمبراطورية. وبدلاً من أن يصنف انتصار سيبيو أفريكانوس ماجور^(٦) في شمال إفريقيا، يتحول دانتي نحو أوروبا، فيتذكر هزيمة هانيبال على يد سيبيو عند حدود نهر الـ"بو" في المعركة التي أنهت الحرب البونيقية الثانية؛ وبالمثل فإن غزو قيصر لأنهار الفار والزين وإيزير واللوار والسين والرون وروبيكون يضع تفاصيل أوروبا باعتبارها أرض الإمبراطورية

(٤) (المقصود هنا هو النسر، شعار الإمبراطورية الرومانية). (المترجم).

(٥) Scipio Africanos Major (٢٢٥-١٨٣ ق.م.) قائد عسكري روماني حقق انتصارات كبيرة في إسبانيا ودخل بعدها إفريقيا حيث هزم هنيبال (من هنا لقب الأفريقي). اتهم فيما بعد بالرشوة، وقضى بقية حياته في المنفى. (المترجم).

(الفردوس: ٥١:٦-٦٦) أما حملات بومبي وقيصر الإفريقية - وتشمل نيل كليوباترا - فترسم الحدود الجنوبية للإمبراطورية.

يضع دانتي هذا الإطار، الذى له إيقاع قربان مقدس، بصوت جستنيان - تجسيد القانون والعدل الرومانيين والنموذج الأمثل للحكم الإمبراطورى - لأسباب ثلاثة مهمة يشير إليها فى الأنشودة. فبعد أن تحول على يد أغابيتوس الطيب (دا) (الفردوس، ١٦:٦) من الهرطقة القائلة بالمسيح ذى الطبيعة الواحدة تحرك جستنيان غرباً، ثم أخضع نفسه للاستعادة المؤكدة للوظيفة القضائية للسلطة الإمبراطورية؛ وأخيراً ندب سلطته العسكرية لبليزا ريو، الذى استعاد أرض الإمبراطورية (الفردوس، ١٠:٦-٢٧) وأعاد الهدوء - بصفة خاصة - إلى شبه الجزيرة الإيطالية. ولأن جستنيان كان ملتزماً بتنظيم القانون فإنه عند دانتي يرمز إلى الوظيفة الإمبراطورية - التشريع والحكم العادل. ولأنه قد تخلص من الهرطقة فإنه يمثل نموذج الحكم المسيحى، ويتحوله نحو الغرب فإنه يدعم نظرة دانتي التى ترى أن الحركة باتجاه الشرق كانت تشكل انتكاساً تاريخياً، وأخيراً، من خلال استعادته أرض الإمبراطورية يقوم جستنيان بوظيفة وصف محاور اهتمام دانتي الجغرافى^(٥٧).

فى زمن كان الاستكشاف الجغرافى والتوسع التجارى قد شهدا تجاراً مثل ماركو بولو أو مبشرين مثل الأب ريكولو دا مونتيكروتشى - وكلاهما من معاصرى دانتي - كان هؤلاء يعودون من رحلات إلى الشرق ويصفون بلاده وشعوبه، وعندما كان البابوات والفرنسيون لا يزالون يدعون إلى حملات صليبية شرق أوسطية، يركز عمل دانتي الأخير على النقيض من ذلك على أزمات أوروبا الكنسية والسياسية، ويأدخاله "الشرق" فى قصيدته يميز مقاربته المجازية للسفر عن المادة الأخرى أو الأوصاف التى

(و) Agapetus the Blessed بابا روما لعامى ٥٣٥ و ٥٣٦، ينسب إليه جستنيان أنه هو الذى أقنع بفضاعة عقيدته التعددية وأنه لا وجود إلا لطبيعة واحدة فى المسيح. (الترجم).

تحركها دوافع تجريبية (أمبيريقية). وشأن الرحلات التبشيرية، فإن الهدف من أدب الرحلات عنده هدف إنجيلي، غير أن مكان التحول (فى العقيدة) هو أوروبا وليس شرق البحر المتوسط أو ما وراءه. وعلى الرغم من أنه معنىً بالجغرافيا التجريبية فإن العقائد الجيوسياسية واللاموتية تحدد معالجتها.

لا شك أن دانتى واجه الشرق المتخيل أو المخبر عنه باعتباره المصدر الكبير للمادة "العجائبية"^(٥٨) فى كثير من المصادر الأدبية الوسيطية. إن أقدم نص للعثور على "مادة الشرق" هو "رسالة الفاراسمانيين" De Rebus in Oriente Mirabilis^(٥٩) التى تعد يوميات رحلة إلى الشرق Orient. ويرجع تاريخها إلى وقت لا يتعدى القرن السابع أو الثامن. والمخطوطة الأقدم هى من القرن الثامن أو التاسع. والأحدث هى من القرن الخامس عشر. وتتضمن رسالة الفاراسمانيين مادة عجائبية منتقاة من كتاب أوغسطين مدينة الرب، "رسالة من الإسكندر إلى أرسطو"، وشخصيات أسطورية مستقاة من فيرجيل وتعليقات سيرفيوس^(٦٠) وزواحف لوكان^(٦١). وقد أثرت فى كتابات أخرى عن العجائب، كما فى مادة الإسكندر. كذلك فقد تضمنت مصادر دانتى المباشرة كتاب بلينى التاريخ الطبيعى، إما بصفة مباشرة أو بوساطة الأقسام الواردة

(ى) Farasmanes نسبة إلى فراسمان ملك تراقية الذى تزوج نجله راداميس من زنوبيا ملكة تدمر لاحقاً. ونستطيع تقدير الزمن الذى عاش فيه هذا الملك من معرفتنا بأن زنوبيا حكمت فى الفترة من عام ٢٦٧ إلى عام ٢٧٢ م (المترجم).

١ * Honoratus Marius Servius نحوى روماني اشتهر بتعليقاته على فرجيل وازدهر دوره فى نهاية القرن الرابع الميلادى. كان وثنيا وفق ما تشهد رسالة إليه من سيماخوس واعتبر "أعرف" رجال عصره. (المترجم).

ب * Annaeus Lucanus (٢٩-٦٥ ق.م.) شاعر روماني ولد فى قرطبة وتعلم فى روما، انتحر بعد الحكم عليه بالإعدام لإدائته بالتمرد على الإمبراطور نيرون. اعتمد دانتى كثيراً على ملحمة Pharsalia التى تحكى الصراع بين يوليوس قيصر ويومبى. (المترجم).

فى الموسوعات اللاتينية والعامية الوسيطية التى تدين لبلينى أو لمصادر أخرى اشتقاقية، ومادة "عجائب الشرق" الموجودة فى نصوص مثل كتاب برونيتو لاتينى (١٢٢٠-١٢٩٤) Li Livres dou Tresor (الجحيم ، ١٥) وكتاب مايكل سكوت (١١٧٥-نحو ١٢٢٥) De Secretis Mulierum (الجحيم ، ٢٠)^(٥٩)، وكتاب غوسوان صورة العالم^{٦٠} L' Image du Monde (١٢٤٦) ، والكتاب شبه الكاليسطينى Historia , Alexandra Magni^(٦٠) (Historia de Preliis) وكتاب جاك دى فيتري (نحو ١١٦٠-١٢٤٠) تاريخ الشرق Historia Orientalis، ومسردات الحملات الصليبية والحج، وأغنيات الإيماء Chanson de gestes العامية (بما فيها المجموعة الكاملة لمغامرات الإسكندر). بالإضافة إلى هذا فإن أعمالاً جادة فى مجال البحث العلمى مثل كتاب ألبرت الأكبر (نحو ١١٩٢-١٢٨٠) De Mineralium وDe Caelo et Mundo، وكتابه De Natura Locى استمدت إلهامها من بلوغ التعلم من الشرق، لكن لأن معالجة ألبرت كانت متأثرة بدرجة معتبرة بالمذهب الأرسطى فى القرن الثالث عشر وبالموضوعية العلمية، فإن مقاربتة لهذه المادة تختلف عن المعالجات الأكثر شعبية. كذلك يمكن إدراج الكتب عن الحيوانات وعن العجائب المستعارة فى هذا الجسم من المادة الأدبية أعمال مثل De Bestiis et Aliis Rebous، الذى ينسب خطأً إلى هيو سانت فكتور (توفى ١١٤١).

تصف هذه المادة قائمة طويلة من العجائب - بما فيها أنهار ضخمة وأشجار عملاقة وحيوانات متوحشة وأناس غير مألوفى المنظر والتصرف، وأحجار كريمة وأشياء شئنة - يمكن العثور عليها فى البلاد الواقعة على حواف العالم، كما تشكلها الجغرافيا القديمة.

^{٦٠} ت - صدر فى عام ١٢٤٥ . (المترجم).

ولقد كان كثير من هذه الأعاجيب (مثل الحيوانات الغريبة والأحجار الكريمة) يجلب إلى العاصمة في الحقبة الرومانية القديمة باعتبارها مادة حسية للاستمتاع بها ولتفحصها في البيئة الرومانية، لكن كثيراً منها بقي من أثاث المخيلة المكانية، أدخلها بلينى في عمله الموسوعي ضمن مشروعه لتركيبة ثقافى لما لم يكن الرومان قادرين على تحقيقه سياسياً وعسكرياً: نهر الكانج الكبير غير المروض الذى أخفق الإسكندر فى عبوره، وغرائب الحياة البشرية التى تعيش على الحدود، والجواهر الأسبوية الرائعة التى كان يقال أنها تملك صفات خاصة. لقد أصبحت روعة الشرق واحدة من زخارف الشعر الرومانى، تظهر الاتساع الكبير للعالم وكافة السلع التى جلبها غزوه سيطرة التجربة الرومانية. وأظهرت هذه المادة الشرقية - كحليات للشعر - الممارسات المكانية المادية^{٦١} وهى تؤدى عملها فى الميدان الثقافى^(٦١).

وعلى غرار تقاليد هذه الأعمال القديمة والوسيطة، فإن هذه العجائب من أقاليم الحدود تظهر كسمات رئيسة فى كوميديا دانتي. وفى الحقيقة فإن الكوميديا، كنوع من أدب الرحلات، تستخدم كثيراً من الموضوعات والأفكار التى تجد طريقها إلى هذا العمل الكبير^(٦٢). ولكن أنواع التحيز التى يبديها كتاب جغرافيون لاتينيون، أمثال بلينى وسولينوس وسترابو، تلك الأعمال - التى دعمت الفكرة عن أجناس "متوحشة"، قد أعادت إنتاج حكايات عن عجائب "مرئية"، وتنامت شعبيتها أثناء الحملات الصليبية - لا تظهر فى قصيدة دانتي، بدلاً من ذلك يأخذ دانتي موضوعات هذا الأدب إلى ما يسميه هانز أورس فون بالتازارت^{٦٣} البعد اللامكانى لـ الكوميديا^(٦٣). هكذا تسكن المخلوقات المتوحشة القصيدة وتدرج الإشارات إلى الجغرافية الكبرى للعالم

^{٦١} Hans Von Balthasar (١٩٠٥-١٩٨٨) وصفه هنرى دولوباك بأنه "ربما أكثر الناس ثقافة". بلغ عدد كتبه ومقالاته أكثر من ألف. واعتبر أهم لاهوتى فى القرن العشرين وليس فى وطنه سويسرا فحسب. طوب قسيساً فى عام ١٩٣٦ ورفع إلى كاردينال فى عام ١٩٨٨ لكنه توفى قبل الاحتفال. (الترجم).

الخارجي - أى الأنهار والناس والحيوانات والأحجار الكريمة المدهشة التي كان يسعى الصليبيون والمغامرون لاصطيادها فيما وراء الأراضى المعروفة لإفريقيا وأوروبا وآسيا. إن للروائع - حقاً - مكاناً مهماً فى قصيدة دانتي. ولكن الطريقة التي يقدمها بها تقصله عن التقاليد الكلاسيكية المكتسبة بالمعرفة، عن الموسوعيين، وعن كتاب أدب العجائب الشعبي، وذلك على وجه التحديد لأن مفهومه للمعرفة - وكيف يطبقه على جغرافيته - يختلف جذرياً عن مفهومهم، على النحو الذي ستناقشه فى الفصل التالي.

هوامش المقدمة

Bonaventure, Collationes in Hexaëmeron, 329 (١)

Mazzarino, The End of the ^٢ بشأن إلهام دانتي انظر: Orosius, Histoires, وانظر أيضاً ancient World, 58-75 وفيه يقول أن عالم العصور الوسطى شهد التاريخ بعيون أوغسطين وأوروسيسوس.

(٢) هذه المفاهيم في الفضاء يعرفها لوفيفر Lefebvre في :

La production de l'espace

ويفيد هارفي David Harvey في The Condition of Postmodernity

(٤) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٥) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٦) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٧) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٨) استخرج هذه الأفكار على أفضل وجه الإقناع سنغلتون Singleton في:

"In Exitu Israel de Aegypto" and Dante's Commedia: Elements of structure. See also Carol V. kaske, " Mount Sinai and Dante's Mount Purgatory," and Demaray, the Invention of Dante's Commedia.

(٩) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(١٠) بشأن مفهوم أوغسطين انظر كتابه. Cité de Dieu وحول أهمية أوغسطين للعصور الوسطى ولدانتي بوجه خاص، انظر:

Courcelle, Recherches sur les "confessions" de saint Augustin; Marrou, Saint Augustin et la fin de la culture antique; and Courcelle, Les confessions de Saint Augustin.

(١١) يكن ماكروبيوس احتقاراً مائياً شبه تام للعالم، لأنه يدعو - مقتضياً خطى شيشيرون - موت الروح
:(Commentarii, 1.10.7)

(١٢) انظر مناقشة Krieger للمجاز فـي : Reopening of Closure وانظر أيضاً: Ricoeur,
La métaphore vive.

(١٣) على الرغم من أن هذا الدعم الأرسطيني لـ الكوميديا ليس بعبارة تزييلات مكانية، إلا أن فريتشيريو
Freccero قد طوره بقوة في كتابه Dante 1-28، انظر أيضاً: Mazzotta, Dante, Hawkins
و "Divide and Conquer".

(١٤) انظر: Hugh of Saint-Victor, Commnetariorum

(١٥) انظر: Bonaventure, Itinerarium Mentis in Deum، انظر أيضاً: Gilson, he Philoso-
phy of Saint Bonaventure.

(١٦) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(١٧) "العلاج المكاني" Spatial Therapy مفهوم عرفه Dupront in Du Sacré 366-415

(١٨) يطور كتاب غرامشي Gramsci بعنوان Gli intellettuali الذي كتب في عام ١٩٣٠ هذه الفكرة
(انظر ص ٩). وقد طور فكرته أكثر بورديو. Bourdieu, L'amore dell'arte.

(١٩) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٢٠) انظر - على سبيل المثال - سعيد: Culture and imperialism، دراسة للأدب الأوروبي في الحقبة
الكولونيالية؛ و Quint, Epic and Empire وهي دراسة في العلاقة بين الأسلوب الملحمي وبناء
الإمبراطورية؛ و Anderson, Imagined Communities وهي دراسة لدور الثقافة في التشكيل
التخيلي للأمم.

(٢١) انظر سعيد، Said, Orientalism وردة على نقاد نظريته في Orientalism Reconsidered
ويشأن الخلافات مع سعيد انظر:

Ahmad, In Theory, 187-90

Hentsch, L'Orient imaginaire.

Lowe, Critical Terrains.

(٢٢) انظر: Babha, The Location of Culture و Spivak, In other Worlds,

(٢٣) انظر: Mary B.Campbell, The Witness and the Other World, 47-86 Friedman, The
Monstrous races.

(٢٤) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٢٥) انظر: Isidore of Seville, Etimologias

(٢٦) انظر Vincent of Beauvais, Speculum quadruplex sive Speculum Maius وهو يتضمن الكتاب الذي يحمل عنوان : Speculum Morale ليس كتابا لفيتسان - Speculum Doctri-
nale, and Speculum morale, although Speculum morale is not Vincent's.

(٢٧) انظر Pliney, Natural History يتحول بلينى فى الكتاب السابع نحو الرائع والخيالى، متحدثاً عن سلوك شعوب العالم المختلفة : الحثيثيين أكلى لحوم البشر (١٠٩-١٠٠) ، المخلوقات النقيضة (١٠١١) والهتود والأحباش، الذين يدخلون فى صفوف الأعاجيب (٢٠٢١).

(٢٨) لنظرة أفق لهذه المادة من هيرودوت حتى القرن الخامس عشر، انظر: Wittkower, "Mervels of the East"

(٢٩) انظر Marco Polo, Il millione

(٣٠) يعد كتاب Foucher of Chartre, Hierosolimilana مروة صليبية تتضمن مادة العجائب النموذجية. انظر الكتاب الثالث.

(٣١) انظر : Jacques de Vitry , La tradiction de l'istoria Orientalis وهو يصف فى الفصول من ٨٢ إلى ٩٠ الأشجار والحيوانات والناس والأحجار الكريمة فى الشرق.

(٣٢) انظر : Albert The Great, De Caelo et Mundo, De Natura Loci, and De Mineralium

(٣٣) حول الحس الرومانى بالفضاء الجغرافى- الثقافى، انظر : Nicolet, L'inventaire du monde, و Romm, The Edges of The Earth

(٣٤) Amin, Eurocentrism, 10

(٣٥) Daniel, The Arabs and Medieval Europe, 111-39, Leyser, " Concepts of Europe in The Early and High Middle Ages", 47.

(٣٦) طور هذه المفاهيم باشلار Bachelard في : Poetics of space

(٣٧) حينما كان الملك لويس التاسع فى مصر سجيناً ، كان مندهشاً لكتابة السلطان الخاصة، بالأخص لأن جمع النبلاء مثل هذه المجموعة من الكتب كان أمراً غير معروف فى عالمه.

(٣٨) Said, Orientalism, 99, see also Le Goff, " L'Occident medieval et l'Océan Indien".

(٣٩) Hentsch, L'Orient imaginaire, 17-43

Lowe, Critical Terrains, ix, 136-37.

(٤٠)

Monneret de Villard, Lo studio dell'Islam; Lopez, "L'importanza del mondo : انظر: (٤١)
; Archibald R. Lewis, The islamico; Archibald R. Lewis, Nomads and Crusaders
; and southern, Western Views of Islam Islamic World and The West,

Poetics of space : في Bachelard بأشلال هذه المفاهيم (٤٢)

James, , Marvels of The East, , Wittkower, "Marvels of The East". Mellizki, (٤٣)
The Matre of Araby, and Daniel, The Arabs and The Medieval Europe.

ويأخذ دانييل في كتاب Islam and the west بؤرة تركيزه في تطوير المواقف الغربية تجاه الإسلام
من القرن الحادي عشر وما بعده، وفي مواقف يشير دانييل إلى أنها لا تزال تعيش بيننا في الوقت
الحاضر، انظر أيضاً: Said, Orientalism.

(٤٤) أسهب معظم المناقشات التي تناولت دانتى و"الشرق" Orient في الحديث عن ما يدين به لمصادر
إسلامية. ومن الأعمال المبكرة التي تتناول مصادر دانتى "الشرقية" كتاب Blochet, Les sources
orientales. انظر أيضاً "Dante e L'Oriente", Olschki, ويذهب دانتى - وليس في هذا ما
يفاجئ - إلى أن مخطوطاً مميّناً قد قسّم بين "الغرب" Occident و"الشرق" في زمن دانتى. انظر
أيضاً: Palacios, Dante y e Islam; Palacios, La escatologia; Cerulli, Il "Libro della:
Scala"; Guéron, L'esoterismo di Dante; and Gabrieli, "Dante e l'Islam;
بحث Cantarino بعنوان Dante and Islam ثبت مراجع طويل مع الحواشي للأعمال الصادرة حول
الموضوع حتى ذلك التاريخ. انظر أيضاً: Cloughm "Gli Studi intorno alle fonti islamiche in:
Dante" و Cerulli, Nuove ricerche sul libro della Scala

ويواصل Menocol في كتابه The Arabic Role, 115-35 هذه المداولات، مستنولاً الرقابة
الغربية على النفوذ الإسلامى من جانب مؤرخى الثقافة ذوى التمرکز الأوروبي. ويتناول Corti, Perco-
si dell'invenzione. تأثير ابن رشد والرشدية على دانتى.

(٤٥) بشأن دور رحلات الحج إلى الأراضى المقدسة في مخيلة دانتى انظر: Demaray, "Dante and
The Book of the Cosmos"

Said, Orientalism, 69.

(٤٦)

(٤٧) بشأن نظرة نقدية لمقاربة سعيد عن دانتى والإسلام، انظر Ahmad, In Theory, 187-90، وبشأن
نقد لفكرة سعيد عن "الاستشراق" والمعيّار الذى بُنيت عليه انظر: Ahmad, In Theory, 159-
219 و Lowe, Critical Terrains.

Said, "Orientalism Reconsidered", 14.

(٤٨)

(٤٩) بشأن تطبيق لهذه الفكرة على القصيدة برمتها، انظر: Barolini, The Undivine Comedy

(٥٠) بشأن هذا المصطلح، انظر: Anderson, Imagined Communities

(٥١) بشأن فكرة أوروبا في حقبة دانتي انظر على سبيل المثال:

Baritz, «The Idea of The West» ; Burke, «Did Europe Exist Before ١٧٠٠?»; Leyser, "Concepts of Europe in The Early and High Middle Ages"; Guenée, L'Occident; Phillips, "The Outer World of the European Middle Ages".

(٥٢) Davis, Dante and The Empire, ص ٧٣ .

(٥٣) انظر Gilson, Dante, ١٦٥-٦٦، وبشأن مؤلفات عن فكرة دانتي عن روما وسياسته وأنوار البابا والإمبراطور، انظر:

Nardi, Saggi di filosofia dantesca, 215-75; Nardi, Dal «Convivio» alla «Comedia», 151-313. Silverstein, «On the Genesis of De Monarchia»; Entrèves, Dante as a Political Thinker; Renucci, Dante disciple et juge, 311-50; Barbi, Problemi fondamentali, 49-68; Kantorowicz, The King's two bodies; Davis, Dante and the Idea of Rome; Angells, Ilconcetto d'Imperium; Limentani, The Mind of Dante, 113-37; Mazzoni, " Teoresi e prassi in Dante Politico, 9-111; Mazzotta, Dante, 66-106; Dubois, History, 28-51, 52-70; Davis, Dante's Italy, 23-41, Ferrante, The Political Vision; Schnapp, "Sistrunk, " Armour, Dante's Griffin; and, most recently, Scott, Dante's Political Purgatory.

(٥٤) في إشارة إلى الأثوية السادسة في الفردوس والكتاب ٤ في الوليمة في كتابه Dante as Political Thinker، أكد Entrèves الدور الذي لعبه القانون الروماني في اكتشاف دانتي أيديولوجية الإمبراطورية.

(٥٥) انظر Pliny, Natural History, book 7; Romm, The Edges of The Earth, 82-120, and Friedman, The Monstrous Races. إن فصل دانتي بين القوانين المحلية والقانون العالمي يتوازي مع مناقشات القديس بولس لثل هذه الفروق في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثس وإلى أهل رومية على سبيل المثال: الختان: " (ليس الختان بشيء، ولا القلق بشيء، إنما حفظ وصايا الله) [كورنثس الأولى ٧: ١٩ وأهل رومية ٢: ٢٥-٢٩]

(٥٦) بشأن مصادر دانتي عن هذه الفكرة انظر: Silverstein, " On The Genesis of De Monarchia".

Orosius, Histoires, 1.2.1-11 (٥٧)

Orosius, Histoires, 1.2.1-11 (٥٨)

Augustine, Cité de Dieu, 16.9 (٥٩)

(٦١) يثير ديليز هذه النقطة في "Dante and The Empire" 76

(٦٢) كانت ثمة أسطورة واسعة الانتشار والقبول في العصور الوسطى تعتقد أنه حينما انتقل قسطنطين شرقاً أسبغ على البابا سلطة زمنية لحكم الغرب. وقد بين الفكر الإنساني الإيطالي لورينزو فاللا -Lo- renzo Valla أن التفويض المزعوم، المسمى هبة "قسطنطين" كان مزيفاً. انظر: Nardi, Dal "Convivio" alla "Commedia", 151-313

(٦٣) انظر Dubois, History, 28-51 ويعطى Mazzotta في كتابه 28 Dante خليفة هذه الترجمة الإمبراطورية Translatio imperii وقد عرّفها Hugh of Saint- Victor بأنها "تنسيق الزمان والمكان الذي ترتبته العناية الإلهية" De Acra Noe Morali, 677

(٥٥) هكذا قال السيد الرب هذه أورشليم قد جعلتها في وسط الامم ومن حولها الاراضي [نبوة حزقيال، ٥: ٦-٥]. انظر ايضا Jerome, Commentariorum, 2.5-6

(٥٦) بشأن إعجاب دانتي بالجمهورية الرومانية انظر: Holliander, "Dante's Republican Theory"

(٥٧) لتطوير شامل لهذه الأفكار، انظر: Paratore, "Il Canto VI del Paradiso"

(٥٨) لقراءة النص انظر: De Rebus in Oriente Mirabilis ويشار دراسات لهذه المادة، انظر مقدمة Le Couteux للنص في الصفحات vi-xxix. Le Goff, "The Marvelous in the Medieval West", Le Couteux, Les Monstres; Céard, La nature et les prodiges. For the idea of a "Matter of the East", see Metlitzki, The Matter of Araby, and Mary B. Campbell, The Witness and the other World, 46-86.

(٥٩) نسب كتاب Michael Scot, De Secretis Mulierum خطأ إلى ألبرت الأكبر وألبرت الساكسوني.

(٦٠) Pseudo-Callisthenes' Historia Alexandri Magni (Historia de Preliis) يتضمن الطبعة اللاتينية من رسالة الإسكندر إلى أرسطو. Alexander's Letter to Aristotle.

(٦١) "ممارسات مكانية مادية" هو مفهوم طوره لوفافر Lefebvre في كتابه La Production de l'Espace. pace. ويشرح David Harvey في كتاب 218-19 The Condition of Postmodernity. هذا المفهوم باعتباره "التدفق والتحويلات والتفاعلات الفيزيائية والمادية التي تحدث في المكان وعبره على نحو يؤكد الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي".

(٦٢) يثير Westrem هذه النقطة في مقدمة لكتابه New Worlds, ix, xxxiii.

Balthasar, Dante, 79

(٦٣)

الفصل الأول

جغرافيا دانتي

مناطق العالم الثلاث إفريقيا، آسيا، أوروبا

- الملكية، ٢-٣ : ١٠-١١

على الرغم من أن دانتي يتبنى مقاربة رمزية أوغسطينية - بوناغنتورا وفكتورينية للمعرفة الجغرافية ويطبّقها على موضوع الشرق. فإنه، مسaire لهذه التقاليد المكتسبة، لا يفعل هذا على حساب معرفة تجريبية أو معتقدات أصلانية (أرثوذكسية). إن وصفه للجغرافية التجريبية يبين أنه كان واسع المعرفة في المداولات والاكتشافات في زمانه^(١). إنه يركب مناهج البحث والمقاربات الفكرية إلى معرفة توما الأكويني الدومينكاني (١٢٢٥-١٢٧٤) وألبرت الأكبر^(٢). مع تفهيمات روحية أوغسطينية - بوناغنتورا، بينما يواصل الأنظمة الرمزية التي طورت في مدرسة الشارتر^(٣) في القرن السابق^(٤). .
يعكس عرضه للجغرافيا الفيزيائية تركيبه لمقاربات المعرفة هذه. وفي الحقيقة كان

(١) Chartres مدرسة شارتر تعد من أهم وأشهر المدارس التي كانت تعلم فيها الفلسفة في العصور الوسطى. ويقول ويل ديورانت في قصة الحضارة "امتزجت الفلسفة والأدب". وكان أفلاطون أحب الفلاسفة في هذه المدرسة. وفيها سؤى الخلاف الشهير في الفلسفة الوسيطية حول الكليات. (المترجم).

دانتي - كما يتمثل في "سما اللاهوتيين" (مسيحية برابان)^(٦) وتوما الأكويني وألبرت الأكبر وهيو سانت فكتور أو بوناغنتورا ويواكيم فيوري^(٧)، على سبيل المثال) يرقصون معاً - قد حاول أن يخلق انسجاماً ما بين الفروع المتعددة للتيارات الفكرية في عصره^(٨).

ولقد أكد إدوارد مور^(٩) - في بداية القرن العشرين، وتبعه عدد من الباحثين الإيطاليين المعنيين بدراسة دانتي (بينهم أسوننتو موري وجيوسيبي بوفيتو وألبرتو مانياغى وباولو ريفيللي وأوزفالدو بالداتشي) ومؤخراً كورادو غيتزي وباتريك بويد وبيرت أرمور- على استخدام دانتي الدقيق للجغرافية والفلك المعاصرين^(١٠). وعلاوة على هذا فإنهم يرون أن هذه الإشارات العلمية وغيرها في القصيدة لا يمكن أن تكون دخيلة على البراعة الفنية للقصيدة ورسالتها^(١١). لقد عرف دانتي الجغرافيا الأساسية الموجودة في أعمال أوغسطين وأوروسيوس وإيزيدور اشبيلية وأونوريوس أوتون^(١٢)

(ب) Siger of Brabant (١٢١٠-١٢٧٧) لاهوتي فرنسي ترأس حركة "الرشدية اللاتينية" تعرض لهجمات قاسية من توما الأكويني، خاصة بسبب قوله أن الأرواح الفردية ليست خالدة، إنما الظلود للكون، وتبين نظرية ابن رشد أن شيئاً يمكن أن يكون حقيقة في الفلسفة العقلانية زيفاً في العقيدة الدينية. (المترجم)

(ج) Joachim of Fiori (١١٣٢-١٢٠٢) ناسك إيطالي، كتب شروحاً للكتاب المقدس تنبأ فيها بعصر الروح حين لا تكون لتراتبية الكنسية ضرورية وحين يتحد الكفار والمسيحيون. وقد أنزله دانتي في الفردوس. (المترجم).

(د) Edward Moore (١٨٧٣-١٩٥٨) فيلسوف بريطاني كان لكتابه مبادئ الأخلاق Principia Ethica تأثير كبير على المفكرين المعاصرين. وشارك مع الفلاسفة وايتهد راسل وفتتشتاين في أبحاث فلسفية تتعلق بتحليل اللغة والمعرفة، ولقب بأبي الفلسفة التحليلية. (المترجم).

(هـ) Honorius of Autun عاش في النصف الأول من القرن ١٢، وازدهر كلاهوتي وفيلسوف فيما بين ١١٠٦ و١١٣٥، وقد عاش معظم سني حياته في جنوب ألمانيا في عزلة النسك، وترك عدداً كبيراً من المخطوطات. (المترجم).

وكانت موسوعات القرن الثاني عشر، مثل *Libre Floridus* (نحو ١١٢٠) التي وضعها لامبرت سانت - أومير (مات ١١٢٥) أو موسوعة ألكسندر نيكام^(٤) (١١٥٧-١٢١٧) *De Naturis Rerum*، وكذلك كتاب إيليام كونشيز^(٥) (نحو ١١٨٠-١٢٥٤) الفلسفة العالمية *De Philosophia Mundi*، قد توسعت في، وواصلت، هذه التقاليد المكتسبة التي كان من الواضح أن دانتى على معرفة بها. كذلك فقد كان على اطلاع على أعمال القرن الثالث عشر، مثل كتاب فينسان *Speculum Malus*، ومؤلفات ألبرت الأكبر، ومؤلفات برونيتو لاتيني (١٢٢١-١٢٨٧) (ومن ثم على أعمال سترابو وبليني وبطليموس وسولينوس، الذين حفظ الموسوعيون أفكارهم)، وربما أعمال روجر بيكون. كذلك فإن كتابي توما الأكويني، الموجز اللاهوتي *Summa Theologica* والموجز ضد الوثنيين *Summa Contra Gentiles*، قد ساهما في معرفة دانتى التجريبية بالعالم.

ثلاثية شأن الثالث الأقدس، فإن جغرافية دانتى الأوروستية، التي تقول بكتلة أرضية واحدة، هي نموذج لخرائط العالم^(٦) المؤلفة من أرض (T) ومدار (O) وخرائط العالم الموسوعية (انظر الشكل ١) من القرن الثالث عشر. إن خريطة من نوع T-O هي بمثابة دائرة (O) مقسمة بحرف T في بعض الحالات، أو حرف Y في بعض آخر (انظر الشكل ٢). وفي تقاليد تفصيلات أورويسوس للأرض المدارية *Orbis Terranum* الأعلى هو الشرق وليس الشمال، ومن ثم فإن المعتاد أن يكون النصف الأعلى من الخريطة هو آسيا، في حين تكون أوروبا على الجانب السفلي الأيسر وإفريقيا على الجانب السفلي

(ح) Alexandre Neckam (١١٥٧-؟) ولد في اليوم نفسه الذي ولد فيه ريتشارد قلب الأسد. وقد أرضعت أمه الاثنين في وقت واحد. أصبح أستاذاً في أوكسفورد، وكتب كثيراً تحت اسم "البريكوس". أشهر كتبه كتاب صور الآلهة.. (المترجم)

(خ) William of Conches فيلسوف ولاهوتي من القرن الثاني عشر، عني بدراسة فلسفة العرب وعلومهم الطبيعية. كتب شروحاتاً لمحاورة أفلاطون "تيماوس" وتعليقاً على عزاء الفلاسفة ليهوتيوس. وعرف بنزوعه للمذهب الإنساني كتلميذ لبرنار دو شارتر. (المترجم).

الأيمن. ويميز دانتي- مسترشداً بجغرافيته الثلاثية للعالم - أراضي الإمبراطورية الرومانية السابقة، والأراضي الحدودية للإمبراطورية الرومانية، والمنطقة وراء الأراضي الحدودية في الهند والحبشة. إن فكرة الأرض المؤلفة من ثلاث قارات؛ حيث كل قارة - حسب المعتقد المسيحي التقليدي - يسكنها أبناء واحد من أبناء نوح - سام (آسيا) وحام (إفريقيا) ويافت (أوروبا) - تظهر في أعمال أوغسطين وأبروسيوس وإيزيدور أشبيلية وبيرونينو^(٩) وألبرت الأكبر. ويستخدم دانتي نظرية المناطق لماكروبيوس بالنسبة للمناخ (انظر الشكل(٢)) ولكنه يرفض فكرة وجود منطقة على الجانب المقابل من الكرة الأرضية تسكنها مخلوقات أخرى ليست متحيرة من نسل آدم وحواء . مع ذلك فإنه يتبع ماكروبيوس ومارتيانوس كابيللا^(١٠) وبيرونينو وألبرت حول استدارة الأرض: " من البحر الذي يحيط بالعالم" [الفردوس، ٩:٤٨، المطهر: ٥٤:٤-٥٧، ١:٢٧-٤].

تتبع جغرافيا دانتي تقاليد الموسوعات والخرائط العالمية الموسوعية، ولكنها تختلف عنها في نواح معينة ملحوظة. فإن لوحة خريطة إيبستورف Ebstorf التي لم تعد موجودة (نحو ١٢٢٥) - والتي كان قياسها يبلغ ١٠ أمتار مربعة^(١١) - تظهر رأس المسيح في أعلى (الشرق أو الجنة) ويديه في الجانبين، وقدميه في الأسفل (الغرب). ويعلن هذا حضور المسيح في العالم واهتمامه به، وصلبه من أجل العالم، وكذلك حميميته مع العالم وامتلاكه إياه أيضاً، وربما أكثر أهمية من ناحية رسم الخرائط، فإن نزاع الصليب تصبجان الأحداثيتين لكافة المقياس الأرضية^(١٢). والطريقة التي يبرز بها رسام الخرائط في إيبستورف أماكن معينة مثل القدس وروما على هذه الخريطة إنما تؤكد الأيديولوجيا السائدة باعتبارها تاريخ خلاص. وبالمثل فإن خريطة العالم لبسالتر Psalter (نحو ١٢٦٠) (انظر الشكل٤)، والتي لا يتعدى قياسها ثلاث بوصات ونصف البوصة قطرياً^(١٣)، وهي خريطة من طراز T-O حيث الشرق لأعلى، وقد رفعت المسيح عند القمة خارج الكرة الأرضية ذاتها، وجعلت جنة عدن، وفيها آدم وحواء، عند الطرف الشرقي الأقصى للأرض، وراء نهر الكانج، والقدس في مركز كتلة

الأرض. كذلك تظهر خريطة العالم هذه الأجناس المتوحشة، مع كل تصوراتها المتباينة، وتضعها واقفة في المنطقة الجنوبية وراء أفريقيا.

وخريطة العالم لهيرفورد (Hereford) (نحو ١٢٩٠) (الشكل ١) هي الأشهر بين الخرائط الموسوعية الضخمة من القرن الثالث عشر. وهي مرسومة على الجلد ومقياسها ٦٢ في ٤٨ بوصة^(١٤). وتشتبك في سمات كثيرة مع خريطة إبيستورف، وتتبع نمط خرائط ٢٠٥. فهي تقسم العالم إلى آسيا وإفريقيا وأوروبا، القدس في الوسط، والأراضي المقدسة - مع تفصيلات مثل "الجمجمة"^(١٥) وجبل الزيتون والصلب - تحتل قسماً كبيراً من المركز، وخريطة هيرفورد متوجهة بحيث الشرق إلى أعلى وذروته رسم للمسيح في جلاله، بينما المخلصين والمعاونين على الجانبين، يستذكرون مشاهد يوم الحساب، تماماً كما في صور بعض الكاندرائيات القوطية. ويظهر أوغسطس قيصر - وعليه تاج البابوية والإشارة من لوقا على التعداد الأوغسطي (٢:١) - في أسفل الجانب الأيسر، خارج دائرة الخريطة. هكذا يظهر المسيح الصاعد عند القمة في الشرق؛ والمسيح المصلوب في المركز في القدس وفقاً لتقليد حزقيال (١٢: ٣٨)، ويظهر أوغسطس قيصر - كحاكم رمزي للعالم - في الركن إلى اليسار (الشمال الغربي)، ومسافر راكب يصحبه تابع في ركن على الجانب الأيمن، وقد طبعت كلمتا "إمض للأمام" إلى يسارهما. وتحت المسيح الصاعد مباشرة وداخل الدائرة في الشرق الأقصى توجد عدن، حيث تظهر شجرة المعرفة وطرد آدم وحواء من الجنة على السواء.

(د) موقع صلب المسيح حسب العقيدة المسيحية. (المترجم).

(ذ) في زمن ميلاد المسيح - وحسب إنجيل لوقا - أصدر القيصر أوغسطس مرسوماً بإحصاء سكان الإمبراطورية الرومانية. (المترجم).

كذلك تصور الخريطة الشرق وفيه عجائب ومادة بلينية. وتشمل هذه - بين تفاصيل أخرى تشملها - نعمة تأكل الحديد، وحيوان الغرفين^(د) يحرس جواهر الزمرد وحملات الإسكندر والأجناس المتوحشة. وإلى جانب ملحوظة نصية طويلة - مبنية بصورة مؤكدة على كتاب سولينوس *Collectanea Rerum Memonabilium Polyhistor* - تصف الهند، حجمها ومدنها وشعبها وأحجارها الكريمة ومعادنها وأفيالها وطانر الأليريون ، وتمساح، وبيغاء ، وأناس ذوى منظر شاذ مثل *Sciapods* يظللون أنفسهم من الشمس بقدمهم الواحدة الضخمة^(١٥) . كل أنهار العالم ويحاره ممثلة فى هذه الرؤية المفردة التى أزيلت منها كل التميزات بين الأسطورة والخرافة والتاريخ.

كما موسوعة مصورة تصف خريطة "هيرفورد" جغرافيا فيزيائية ، لكنها أيضاً تعلم التاريخ الطبيعى والأساطير واللاهوت والتاريخ التوراتى. بالإضافة إلى هذا كله، وإن لم يكن بالضرورة هدفها الأول ، فإنها تقدم خطة رحلة تحدد بدقة - على الرغم من تحريفات للمسافات - أماكن بعينها وخاصة فى أوروبا^(١٦) . إن من الممكن لمثل هذا النموذج أن يكون مجرد خريطة من طراز T-O، بلا حدود أو مراكز، ويمكن أن تكون من الصغر إلى حد أن يكون قطرها بوصة واحدة، وقد لا يكون لها إله حاكم (الشكل ٢) وتبدو أحياناً شكلاً أكثر وضوحاً، تجعل الرمزية اليهودية - المسيحية واضحة. فى مثل هذا النوع- كما فى خريطة سالوست *Sallust* (الشكل ٥)- غالباً ما تكون الأراضى المقدسة فى وسط القارات الثلاث، والفريوس هو فى الشرق عند قمة الخريطة.

شأن الكوميديا، كمجهود للمّ شمل العالم فى رؤيا موحدة مفردة، كانت خرائط العالم الموسوعية تقوم بالمثل بوظيفة كانت تقوم بها الأعمال الموسوعية الأخرى فى القرن العشرين- أعمال مثل مؤلف فينسان بوفيه *Speculum Mains* أو مؤلف توما

(ر) كائن خرافى نصفه الأعلى نسر ونصفه الأسفل أسد (المرجم).

الأكوينى Summa Theologica، جهود لإدماج المعرفة التجريبية مع العلم النظرى فى إطار مسيحى أصلاى (أورثوذكسى) موطد. ويذهب جاك لوجوف^(١٧) إلى أن هذا الاهتمام بالنزعة الموسوعية نتج مباشرة عن المذهب الإنسانى فى القرن السابق، الذى استعاد ثقة البشر، الذين خلقهم الرب، وأقام طريقة مشروعة لمعرفة "الأشياء" من خلال مفهومه المسيحى المتجدد للطبيعة^(١٨). لقد ساعدت الزيادة فى عدد النصوص العامية فى تأمين أن تأخذ التقاليد المكتسبة طريقها إلى الصيغ الشعبية من الموسوعات^(١٩). ومن بين هذه الأعمال العامية كتاب غوسوان Gossouin صورة العالم L' image du Monde (١٢٤٦) وكتاب برونيتو بالفرنسية Trésor وبالإيطالية Tesoretto (الثروة).

وسناقش مقاربة دانتي الفكرية والشعرية بهذه المادة الجغرافية فى علاقتها بأنظمة المعرفة الرئيسية الثلاثة كما طورها ألبرت وهيو سانت - فكتور وبوناغنتورا وجميعهم يظهرون فى سماء الشمس عند دانتي كنجوم مضيئة لاهوتية. ويذكر دانتي على وجه التحديد كتاب ألبرت De Natura Locum فى الوليمة ويكتب أنه طبقاً لما يقول ألبرت ولوكان (فى الكتاب التاسع من Pharsalia) العالم تقسمه منطقة قيظ، وهى المنطقة التى يصمها ألبرت بالمناخ السابع (الأكثر حرارة) حيث يعيش الغارامنت. وحسب دانتي فإن هذه المنطقة تقسم البلاد المكتشفة من المحيط الجنوبى (٢-٥-١٢). وتذهب نظرية المناطق (وخرائط العالم المقسم إلى مناطق التى تدعم هذه النظرية) إلى أن العالم ينقسم إلى خمس مناطق مناخية مع وجود منطقتين متوازنتين متجمدة ومعتدلة ومنطقة قيظ عند الخط الاستوائى (انظر الشكل ٣). وقد

(ز) Jacques Le Goff (١٩٢٤ -) أبرز مؤرخ فرنسى تخصص بالعصور الوسطى، وبالأخص ثقافتها، وعرف بانتمائه للمدرسة التقليدية التى تربط التاريخ بالجغرافيا. خلف المؤرخ الفرنسى الأشهر بروديل فى منصب الأستاذية فى "معهد الدراسات العليا" للعلوم الإنسانية من عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٧. آخر إصداراته "ميلاد المطهر" (المترجم).

حفظت أعمال ماكروبيوس^(١٩) ومارتينوس كابيللا. فإن النظرية الفيثاغورية أو نظرية كراتيس^(٢٠) أفضت إلى وضع فرضيات بأن العالم المعروف إنما كان واحداً من كتلتين متماثلتين من الأرض على الكرة الأرضية كانت تفصل بينهما المنطقة الاستوائية الحارة ومحيطان يلفان الأرض. وأفضى هذا بدوره إلى الاعتقاد بوجود الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة للكرة الأرضية: مكان آخر، قارة أخرى، أو كتلة أرضية أخرى لم يواجهها أولئك الذين في نصف الكرة الشمالي. وكان وليام كونشيز وآخرون من مدرسة الشارتر في القرن الثاني عشر من بين أولئك الذين تناظروا حول نظرية المناطق ومسألة الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة للكرة الأرضية^(٢٠).

ويمكن فهم نظرية المنطقة المقابلة للكرة الأرضية كصيغة قديمة / وسيطية لنظرية القرن العشرين عن تعدد الأصول التي نشأ عنها الجنس البشري؛ وقد أكد بعض الملتزمين بهذه النظرية أنه بسبب استحالة عبور منطقة القيط، لم يكن الناس الذين يعيشون في تلك المنطقة المقابلة من نسل آدم وحواء. أما نظرية أحادية الأصل التي كان يؤيدها هيزود^(٢١) حسب قول ألبرت، ويؤيدها الكتاب المقدس، كانت تفرض أصلاً واحداً للبشرية كلها، وقد أكدت هذا توليدات سفر التكوين ١ و٢. أما وجود "أجناس متوحشة" و"روائع طبيعية" ومناطق جغرافية خارج الأرض المدارية الثلاثية فقد تحدتها نظرية الخلق اليهودية - المسيحية، التي ذهبت إلى أن الرب صنع العالم الطبيعي وأن الجنس البشري بأسره تحدر من آدم وحواء. ولم يكن هذا بمثابة إضفاء طابع أدبي على قصة التكوين؛ بل على النقيض، إنها تساند الاعتقاد الأساسي بأن رباً عادلاً ومحسناً - الطبيعة هي مساعده - قد خلق العالم للكائنات البشرية كلها المتحدرة من

(س) Crates مثل ومؤلف كوميديات أثيني ازدهر نحو عام ٤٧٠ ق.م. واعتبر المؤسس الحقيقي للكوميديا اليونانية. (المترجم).

(ش) Hesiod (القرن الثامن ق.م). شاعر يوناني لقب بأبي الشعر الوعظي (التعليمي) أشهر مؤلفاته Theogony ويتناول فيه أصل نشوء العالم والآلهة. (المترجم).

الأبوين الأولين. أما نظرية المناطق المقابلة والعجائب التى ظهرت خارج أو وراء هذه النظرية فى الطبيعة فقد بنت منطقة وظواهر وأناساً استبعدوا من هذه الرؤيا^(٢١) .

كذلك فإن هذا التنظير واضح فى الخرائط المؤلفة من أربعة أقسام التى تخيلت مناطق وراء العالم الثلاثى، مثل خريطة بيتوس ليبانا Beatus of Liebana (نحو ٧٧٦-٧٨٦) (انظر الشكل ٦). فالخرائط من نوع خريطة بيتوس تشمل قارة رابعة، تقع بعيداً عن العالم المعروف؛ وهذه القارة غير معروفة بسبب حرارة الشمس وهى موطن سكان المنطقة المقابلة للكرة الأرضية^(٢٢) . ومن بين الأقدمين فإن أرسطو وإيراتوستينيس Eratosthenes وبوليبيوس وسترابو وشيشيرون وميلا وسنيكا وبليني وبطليموس ومارتيانوس كابيلا وماكروبيوس هم الذين كانوا يعتقدون بوجود هذه المنطقة المقابلة للأرض. فى حين أن بلوتارك ولوكان Lucan وفيرجيل، ولهذا دلالة، وأورسيوس (الذى لا يذكر هذه النظرية فى مناقشته الموجزة للجغرافيا) وأوغسطين لم يعتقدوا بها^(٢٣) .

ويبرهن ألبرت الأكبر علمياً فى كتابه De Caelo et Mondo - محتثياً حذو أرسطو وبطليموس- على انقسام الأرض إلى نصفين ويعتمد على بطليموس لإثبات حجمها. ويغضى ألبرت فى كتابه الآخر De Natura Locorum عددًا متنوعاً من الموضوعات، تشمل "طول وارتفاع الأماكن القابلة للسكنى"، وتقسيم الأرض حسب ما يمكن وما لا يمكن أن يسكن^(٢٤) . وفى المنشور الثالث - الذى يعتمد بدرجة كبيرة على أعمال أورسيوس ويوليوس أونوريوس وايتيكوس إيزتريا^(٢٥) Aethicus of Istria - يغطى جغرافية الكون ويضمنه مناقشة تقسيم الأجزاء الثلاثة للعالم: آسيا وأوروبا وإفريقيا^(٢٦) . وفى مناقشته لمجال الحجج بشأن مناطق العالم المناخية الخمس، التى حددها ماكروبيوس ومؤيدوه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، وفى تقديمه لوجهات نظر هوميروس

وأفلاطون وفيثاغوراس، وأوفيد(ص) القائلة بأنه من المستحيل العيش فى المنطقة الاستوائية أو غيرها، يرفض ألبرت هذه الآراء محبذاً وجهة نظر بطليموس وابن سينا. فيكتب: "هناك - مع ذلك - أسباب بطليموس وابن سينا للنقيض، فهما يقولان أننا نرى بأعيننا بشراً كثيرين عاشوا بين مدار السرطان وخط الاستواء؛ وقد وصلت إلينا كتب الفلاسفة من أمم كثيرة بشأن النجوم هناك. ذلك أن الهند والحبشة هما جزئياً فى تلك الأماكن. ويتبين من هذا أنهما بالضرورة مأهولتان(٢٧) .

يميز ألبرت سبع مناطق مناخية منفصلة بناء على الطول والارتفاع(٢٨) . واعتماداً على دليل بطليموس وابن سينا وبيانات شهود عيان آخرين فإن ألبرت - ذاكراً جزراً وجبالاً وشواطئ كأمم باردة - يؤكد أن المنطقة الحارة يرجح أن تكون قابلة للسكنى شأن المناطق المعتدلة؛ حيث إنها لا تكون حارة فى كل منطقة(٢٩) . وعلى الرغم من أن ألبرت لا يذكر نقلاً عن أوغسطين، فإنه يختلف مع أوغسطين - الذى ذهب فى مدينة الرب إلى أنه "لا يوجد سبب" للاعتقاد بنظرية "المنطقة المقابلة للأرض" التى يعيش فيها الناس على الجانب الآخر من الأرض، حيث الشمس تطلع حينما تغرب فى العالم المعروف(٣٠) . ولم يجد أوغسطين دليلاً تاريخياً على هذه النظرية، إنما الحدس العقلانى وحده، وبالإضافة إلى هذا فإن هذه النظرية تتناقض مع الكتاب المقدس، لأنه لا يبدو منطقياً لأوغسطين أن الناس كانوا يعبرون المحيط ويوطدون أنفسهم على الجانب الآخر من العالم.

(ص) Ovid (٤٣ق-م- ١٧ م) شاعر روماني هو أول من نزع من الكتاب العظام فى ظل الإمبراطورية. بين أهم أعماله فى الحب Ars amatoria الذى ثبت مكانته كشاعر العاطفة والرقى فى الشرائع العليا لاجتمع روما بلا منازع. لكن عمله الأهم هو المسوخ Metamorphoses ويعكس فيه سقوط أوام جيله. (المترجم).

ومن العالم القديم إلى العصور الوسطى المتأخرة أدى التكهّن بشأن أناس فى المنطقة المقابلة أو الموازية، لا يشاركون فى السماوات ذاتها أو فى المواسم نفسها (أى المكان والزمان نفسيهما أو ربما حتى الشمس والقمر نفسيهما). إلى أن يذهب بعضهم إلى أن الناس على الجانب الآخر من خط الاستواء كانوا متوحشين أو شواذ كما هو بالفعل الحال فى جغرافية مارتيانوس كابيلا (التي تشمل الأمازون والهيبيبود والحيثيين والأحباش، وأناس آخرين من أفريقيا). يذهب أوغسطين - متناولاً مسألة الأجناس "المتوحشة" أو البلينية^(٣١) - فى مدينة الرب إلى أنه حتى إذا كان هؤلاء موجودين فإنهم يكونون جميعاً متحدرين من آدم وحواء ومن ثم لا يمكن اعتبارهم شواذ. ويقرر أوغسطين أنه ليس من الممكن للرب أن يصنع خطأ، ولهذا فإن أبناء نوح وأدم وحواء، الذين تحدروا منهم، ما كان يمكن أن ينتجوا الأجناس المتوحشة التي تحدث عنها التاريخ الوثنى^(٣٢). وهو إذ يعدد كل الأجناس البلينية، التي يشير إلى أنها مصورة بالفسيفساء (موزايك) فى قرطاج ومبنية على فضوليات التاريخ الطبيعى، يكتب: ماذا ينبغى أن أقول عن Cynocephal، الذين لهم رؤوس كلاب وينبحون بالفعل، ما يجعلهم يعتبرون حيوانات متوحشة وليسوا بشراً؟ لا حاجة للاعتقاد بكل أنواع البشر التي يقال إنها موجودة. مع ذلك فأيا من كان يولد فى أى مكان كائن بشري، كحيوان عقلاني أخلاقي، ومهما كان يبدو غريباً لحواسنا فى شكل جسمه أو لونه أو حركاته أو صوته، أو فى أى ملكة أو جزء أو نوع لطبيعته أيا كان، لا يمكن لأى مؤمن حقيقى أن يشك فى أن مثل هذا الفرد له أصوله فى الإنسان الواحد الذى كان أول من خلق الرب، مع ذلك، فإن ثمة تمييزاً بين ما استدام بفعل الطبيعة فى الأغلبية، وما هو رائع بفعل ندرته ذاتها^(٣٣).

هكذا، عند أوغسطين، ولأن كافة البشر متحدرين من البشرى الأول، فإن أى تنوع فى مظهر الكائنات البشرية يكون جزءاً من نظام الخلق. وعند أولئك الذين يبنون فكرة السواء يمكن أن يكون هذا صعباً على الإدراك. عند أوغسطين مثل هذه المخلوقات هى

روائع بالمعنى المقابل للمعجزات، وهذه هى تجل لإرادة الخلق لدى الذات الإلهية، كل هذه المخلوقات الرائعة، إذا كانت كائنات عاقلة، إن وُجدت - وهو أمر وضعه لتوه موضع التساؤل - هى مخلوقات الرب. أما كونها نادرة فيفسر لماذا تعتبر رائعة. يستجيب أوغسطين - فى الحقيقة - للخيوط الثلاثة القديمة للتفكير فى "الرائع". فهى عند أرسطو جوانب لمعرفة الطبيعة وبالتالي ينبغى أن تصنف؛ أما عند شيشيرون - الذى يجادل فى هذه القضية - فإن الأعاجيب هى وسيلة الآلهة للتواصل مع البشر؛ أما الموقف الثالث، الذى يمثل بلىنى ، فيرى فى الروائع قوة الطبيعة ومن ثم هى رابطة مع مصير البشر. عند أوغسطين- وعلى تقاليد شيشيرون أكثر من هذا - العجائب تكشف النقاب عن قوى الرب الخالق، الذى لا يكف أبداً عن أن يوقظ فى البشر الإحساس بالرائع^(٣٤) .

كذلك فإن إيزيدور فى أصول الكلمات Etymologiae يناقش المتوحش تحت فئة الأعاجيب De portentis ويلاحظ - وفقاً لفارو Varro - أن الأعاجيب - المخلوقات الوحشية التى تعلن وتظهر وتتنبأ بالمستقبل - هى تلك الأشياء التى تظهر مناقضة لقوانين الطبيعة. وتشمل الأعاجيب المظاهر المدهشة فى عالم الطبيعة. "النذر" بشأن المستقبل، والمخلوقات المتوحشة مثل "السينودات" Cynodontes - وهى مخلوقات لها رأسان وثلاث أيد - والخنثويات والعمالقة والمخلوقات التى لها رؤوس كلاب والسيكلوب (العمالق ذو العين الواحدة) Cyclopes وغيرها. ولكن - يشير إيزيدور محتذياً حذو أوغسطين- هذه المخلوقات تبدو مظهرياً فحسب "منافية للطبيعة". وهى لا يمكن أن تكون غير طبيعية لأنها مصنوعة وفقاً للإرادة الإلهية. وهكذا فإن ثمة بعداً لاهوتياً للوحوش، إنها توجد بإذن الرب. وحيث إن الطبيعة هى فيض الرب فإن كل شئ فى العالم الطبيعى له مكانه فى الخلق. وما وحش إلا ذلك الذى نشير إليه بإصبعنا^(٣٥) .

فى القرن الثانى عشر كانت شخصيات مهمة مثل برنار كليرفو^(ش) فى كتابه Liber de Gratia et libero arbitrio. تؤكد الفكرة القائلة بأن لا شىء يوجد إلا ما يأتى من الرب؛ ومن ثم فإن المخلوقات العجيبة لا بد أن تكون متخيلة. وبالمثل أصر آلان دو ليل Alain de Lille على أن كل المخلوقات تملك ملكة العقل^(٣٦). وفى الحقيقة فإن رد فعل الكنيسة على تزايد شعبية هذه المادة "الغريبة" كان إدماجها فى الإطار المسيحى؛ وهكذا فإن ظواهر مثل التنانين والوحوش وغيرها من المخلوقات العجيبة من أزمنة ما قبل المسيحية أو من مستودعات اليونان والرومان الأقدمين كانت تصور مجازياً بأنها "تعمد" الثقافة الشعبية. وهكذا أصبحت الأجناس المتوحشة أيضاً موضوعاً للتصوير المجازى - على سبيل المثال المخلوقات التى لها رؤوس وحوش كتشويه والأقزام كمنغين للمهانة والمخلوقات برؤوس كلاب كوثنيين^(٣٧).

ويعلم كتاب غوسوان صورة العالم L' Image du Monde فى الحقيقة أن التوحش مسألة نسبية. وتتضمن موسوعة فينسان بوفيه وصفاً كاملاً للمتوحش، وكتاب برونيتو الثروة Tresor مستودع غنى بالعجائب من عالم الحيوان، وگراميات الإسكندر تضمنت مغامرات كثيرة فيها أنواع كاملة من الروائع^(٣٨). وبالإضافة إلى هذه الأعمال هناك عاميات سلسلة تتناول الوحوش والزواحف والأحجار الكريمة المنقوشة و Valucraries. بل هناك عظة مشكوك فى نسبتها إلى أوغسطين تصف الأحباش، بعضهم له رؤوس فى صدورهم. وبعضهم قساوسة متزوجون يضاجعون زوجاتهم مرة كل عام وفى جنوب الحبشة نساء بعين واحدة. ولكن فى تقليد استخدام "الآخر" لحاسبة المؤمنين فإن هذه

(ش) (1091-1153) St Bernard of Clairvaux لم ينتم إلى مدرسة فلسفية، لكنه وضع كل ثقله الفكرى فى الاهتمام بالتصوف. وكان من دعاة اللاهوت التصوفى. واعتبر غاية الحياة ونهايتها بلوغ مراتب الإنسانية القصوى فى المحبة التأملية للرب. (المترجم).

الموعظة تنتقد المسيحيين، ذاهبة إلى أنه في حين أن هذه الكائنات الأخرى شواذ، فإنها أكثر تدبيراً وأكثر إيماناً وأقرب إلى المسيح من البشر^(٣٩) .

ويحسم ألبرت المناظرة حول ما إذا كان أناس يعيشون في عامل بديل بأن يعلن أنه بينما يمكن أن توجد مناطق منفصلة، وتفصل صحراء شاسعة بين الشمال والجنوب، مع استعداد لرحلة طويلة وشاقة، فإنه يكون من الممكن عبور المنطقة الإستوائية وبلوغ المنطقة المعتدلة الأخرى^(٤٠) . وهو يذهب إلى أن نصف الكرة الأدنى من الأرجح أن يكون منقسماً مناخياً مثل، النصف الشمالي، وأن أناساً ربما يسكنون هناك، ولكنه يرفض كنوع من الجهل الفكرة القائلة بأن الناس الذين يسكنون المناطق المواجهة للكرة الأرضية يمكن أن يكونوا قد سقطوا من الأرض^(٤١) . ويشير ألبرت إلى أن المنطقة الواقعة بين مدار الجدى والمنطقة الأخيرة في الجنوب هي منطقة تجلو السكنى فيها على مدار السنة^(٤٢) .

وتوحى نقاط التوازي في استخدام دانتي الشعرى لهذا التنظير بأنه قد قرأ أعمال ألبرت العلمية. وفي الحقيقة فإن جغرافيتيهما تتفقان في عدد من الجبهات، بعد كل الحجج السديدة يجعل دانتي الأرض مستديرة ويتبنى أبعاد ألبرت وبطليموس بالنسبة لحجم الأرض كما برهن عليها في كتاب *De Caelo et Mundo*؛ وكما في كتاب أوروسبيوس *De Natura Loc* فإن عالم دانتي المعروف ثلاثي؛ ويحذو دانتي حذو ألبرت بشأن النظرية القائلة بأن الأحباش والهنود يعيشون في منطقة مناخية قاتئة (المطهر، ٢٦: ٢٧، ٤: ٢٧). ومن الأمور ذات الدلالة، وحيث إن هذا الموقف يبتعد عن التقليد الجغرافي الذي كان يتمسك به إيزيدور والموسوعيون المتأخرون وخرائط العالم ذات المقاييس الكبيرة، التي كانت تضع جنة عدن في الشرق، يبدو أن ألبرت قد وضع منطقة مسكونة ذات تماثل في الدفء والبرودة والرطوبة والجفاف في نصف الكرة الجنوبي^(٤٣) . وتتصل هذه النظرية بعض الصلة مع تحديد دانتي موقع المطهر وجنة عدن على مسافة ٩٠ درجة وراء قادش، وليس في الشرق كما أوحى موسوعيون أمثال

إيزيدور ورابانوس ماوروس وفيנסان بوفيه "الفردوس مكان في الشرق" (٤٤) . من الناحية الأخرى فإن توما الاكوينى - محاججاً على أساس الفلسفة، يقرر أن "الفردوس ليس (بعد الآن) مكاناً مادياً"، ولكنه يقرر أيضاً أنه "المكان الأنبل على الأرض" (٤٥) . ويبدو أن دانتي - فى تجاهله للنظرية عن أناس على الجانب الآخر من الأرض - إنما يحذو حذو أوغسطين، غير أنه يذعن لألبرت، بشأن إمكانية أن يكون قد جرى عبور منطقة حارة بالفعل، وهو إذ يحدد مكان عدن على قمة جبل المطهر فى نصف الكرة الجنوبي (المطهر، ١: ٢٢-٢٤) على الجهة المقابلة تماماً للقدس (المطهر، ٤: ٦١-٧٥)، على الرغم من كونها بيئة خرافية، إلا أنه يضعها وفقاً لنظرية ألبرت الجغرافية. وأخيراً، يبين دانتي أنه يعرف كتاب ألبرت De Menirallium الذى يصف خصائص الأحجار الكريمة.

بالإضافة إلى المقاربات التجريبية (الأمبيريقية) للمعرفة، كما مثلها ألبرت والمدرسة الفكتورينية - وخاصة هيو سانت - فكتور (انظر مثلاً الفردوس، ١٢: ١٣٣) - قدم دانتي مقاربة رمزية لمعرفة أشياء العالم. إن هيو يشرح تفصيلات مقاربه لاكتساب المعرفة بالواقع التجربى فى أعمال عديدة. ولكن بصورة أهم فى

Commentariorum in Hierarchiam Coelestem S. Dionysii Areopagitae

وفى عظاته الكنسية ، التى يذهب فيها إلى أن "الإنارة الروحية" من الداخل تجعل من الممكن رؤية الإلهى فى العالم المرئى (٤٦) . ويؤكد هيو، محتذياً حذو بسيديو - ديونيسيوس، أن باستطاعة البشر أن يروا وأن يفهموا عالم الواقع التجريبى، عمل الخالق لأن للروح ثلاث أعين. عين الجسد تتيح للروح أن ترى العالم خارج ذاتها وأن ترى تلك الأشياء التى فى العالم؛ وبعين العقل تستطيع أن ترى ذاتها والأشياء التى فى إبطارها؛ والعين الثالثة عين التأمل - تجعل بالإمكان رؤية الرب داخل الروح ورؤية الأشياء التى فى الرب (٤٧) .

مثل هذه النظرة إلى المعرفة تقبل أن كل رؤيا هي جماعية - تجريبية (أمبريقية) ، رمزية / روحية وعقلانية؛ وهذه تتوازى مع النظريات التأويلية التي توصى بأن تُقرأ النصوص لغوياً (فيلولوجيا) وتاريخياً وروحياً (مجازياً) . فالعقل عند هيو جزء من الإيمان، وحيث إن الصفحة الإلهية ملكة فإن العلوم هم خدامها؛ ولكن العلم - وفق ما يعلنه هيو - غير حقيقى إذا لم يستمد معلوماته من المحبة^(٤٨) . يعرض كتاب *Libre de Tribus Maximus Circumstantiis Gestarum* - الذى يتبع التقاليد الأوغسطينية التأويلية^(٤٩) - مبادئ رسم الخرائط، بمعنى أنه فى مناقشته الفنون العقلية يذهب إلى أنها أقسام من عالم مخلوق مفرد موحد فى سلسلة زمنية وفيزيقية متصلة^(٥٠) . لقد وحدت نظريته فى المعرفة فى أساسها الفكرة القائلة بأنه لأن الرب خلق العالم الذى تقمص فيه، فإن العالم مقدس، وأن الغرض من التعلم هو فهم هذه الهبة وتقديرها والاستمتاع بها.

كذلك تظهر وجهات نظر هيو سانت فكتور - بجذورها الأوغسطينية فى جوهرها - فى أعمال بوناڤنتورا . فهو - كمثل للاهوت الفرانسيكاني - قد تبنى وجهة النظر التى ترى إن عالم الطبيعة يكشف عن صانعه؛ لأن الخلق يمثل الحكمة الإلهية^(٥١) .

وهو لكى يميّط اللثام عن لاهوته الثلاثى *Triplex theologica*، ردأ على شواغله بشأن النزعة المدرسية (السكولائية) فى اهتمامها المفرط بالخطاب العقلانى كوسيلة لفهم العالم، كتب بوناڤنتورا فى مؤلفه *Itenerarium mantis in Deum* يتعلم المرء معرفة ما بالحقيقة عن طريق أسلوب ثلاثى فى اللاهوت - كما لعلك تعرف - رمزى وعقلانى وصوفى^(٥٢) . وهو لم يعن بهذا أن ينكر أغراض البحث العقلانى، إنما أكد أن المسيح هو وسيلة كل معرفة^(٥٣) .

عند بوناڤنتورا للعقل ثلاثة جوانب - التأمل والإيمان والاستدلال - وكل هذه ضرورية للمعرفة الحقة. وفى الفصل الثانى من كتابه *Itenerarium* يناقش كيف يمكن

للإنسان أن يروا الرب فى تجلياته فى عالم التجربة الحسية. فالتجليات - كالأشياء خيرة وجميلة، أو باعتبارها جمال العالم - هى علامات الرب غير المرئية الذى صنعها. وعند بوناغنتورا يتبع الصعود إلى الرب طريقة تأملية فى التفكير والاعتقاد والاستدلال بشأن التجليات، آثار أقدام الرب^(٥٤). ويشرح فى كتابه *Breviloquium* - محتضراً حذو هيو سانت - فكتور - أن العين الجسدية تبين العالم والأشياء التى فيه، وعين الاستدلال تبين الروح والأشياء التى فى الروح. وعين التأمل تبين الرب والأشياء التى فيه^(٥٥). يتطلب سلم الصعود هذا مركباً من التعلم، سواء معرفة العالم التجريبى (الإمبريقي) أو معرفة الحقيقة اللاهوتية. فإن بوناغنتورا يرى العالم كمجموعة من العلامات والرؤى الإلهية والصور الزمنية للحقائق الأبدية. وعلى الرغم من أن أشياء العالم ليست غايات فى ذاتها أو مناسبات للدهشة، فإنها علامات على جمال الخالق، تقود المرء من الانتباه للمرئى إلى حب اللامرئى^(٥٦).

اختلفت وجهات نظر بوناغنتورا عن تلك التى نجدها فى النصوص الأفلاطونية الجديدة لمدرسة شارتر، وعن وجهات نظر أرسطو والأرسطيين الجدد، وعن وجهات نظر الشراح العرب الذين اقترحوا التحقيق فى الطبيعة على نحو مستقل عن مسائل ما فوق الطبيعة، على النحو الذى نراه حقيقة فى كتاب ألبرت *De Natura Locorum* الذى فيه يتجنب كل ذكر للاهوت، عدا الملاحظة الأرسطية الوحيدة بأن الرب هو المحرك الأول^(٥٧). فإذا كانت السعادة السماوية عند توما الأكويني هى معرفة الرب، فإن السعادة السماوية عند بوناغنتورا هى الحب، والاستحواذ والفرح الناجم عن اتحاد كل القوى مع الرب. ويتميز آثار أقدام الرب فى عالم الظواهر الطبيعية كأن لاهوت بوناغنتورا يسعى للتغلب على الفصل بين الرب المتعالى والرب الملائم (الكامن) فى الطبيعة، وهو تحول مهد بإحداث انقسام بين الفروع العلمية واللاهوتية وبين الفهم التجريبى (الإمبريقي) والروحي. وقد أفضى هذا التمييز ببوناغنتورا إلى منهج فى التأمل كان يرى فى الظواهر الطبيعية مصدر الاتحاد بين البحث الفكرى والروحي. وبطبيعة الحال كان لهذه الفرضيات المسبقة أثر عميق على نظرياته التأويلية، وأدت به إلى تأكيد الجوانب الرمزية

للنص الذى تجرى مناقشته؛ وهذا واضح بشكل خاص فى تعليقاته على كتاب Hexa-meron^(٤٨) فحسب الجغرافيا، قدمت هذه المقاربات الفكتورية والفرانسيסקانية للمعرفة نظرية معرفة epistemology استطاع بها أن يجعل الظواهر الحسية مجازية، وأن يحول ما يمكن تعلمه عن طريق البحث العقلانى إلى وسيلة رمزية توحى بصانعها، على نحو ما نَظَر بونا فينتورى.

يصبح واضحاً، طوال الفردوس، اعتماد دانتي على لغة بونا فنتورا، وبالتالى بصفة غير مباشرة على لغة بزيديو- يونيوسىوس، بعد فحص دقيق للتلميحات التى يتركها لنا. ويطبقة الحال فإن بونا فنتورا مصور على نحو بارز فى القصيدة ومقرونا إلى توما الاكوينى. مع ذلك، وعلى نحو أكثر تحديداً، يُدمج دانتي صوراً بونا فنتورا عديدة فى القصيدة، بينها "سكالا" (ميزان سلم يعقوب و صليب المسيح) الذى يمكن الحاج من أن يرتفع دوماً من الجحيم، نزولاً من جسد الشيطان (الجحيم، ٣٤-٨٢-١١٩)^(٤٩) صعوداً إلى السماوات (الفردوس، ١٠، ٨٦، ٢١: ٢٩). إن صورة السلم، كما أوضحت فكتوريا كيركهام، هى "السلم" الذى خلقه الرب والذى يربط الأرض بالسماوات^(٥٠) وتتضمن الإشارات البونا فنتورا الأخرى بصمات الرب وعلاماته وظلاله فى عالم الطبيعة. وعلى سبيل المثال:

مثل القبرة وهى تحلق فى الهواء تغرد لأول وهلة، ثم تصمت، راضية باختتام إنشادها حتى الاكتمال، هكذا بدت لى صورة من كان بصمة لهذه اللذة الخالدة، التى يصير كل شىء بإرادتها ما هو [الفردوس، ٢٠: ٧٢-٧٨].

هنا لوصف النسر السماوى للحكام العادلين يأخذ هذا التشبيه الموسع الحاج أربع درجات من "اللذة الخالدة". يحل مجاز "اللذة الخالدة" محل ما يشير إليه على أنه واحد فحسب من مئة من الصور والإسهابات التى يستخدمها دانتي وفقاً لتقاليد بزيديو- ديونيسيوس فى الإشارة إلى الألوهية. وعند دانتي فإن "صورة" (فرق أول) "البصمة" (فرق ثان) للمجاز عن الرب ("اللذة الخالدة") (فرق ثالث) هى "قبرة" لا تملك

سوى ذكرى "الحلاوة الأخيرة التي تشبعها" (فرق رابع). وفى القلب من هذا التخيل الموسع يكمن مرجع - الألوهية - مخفية ومكتشفة فى بصمات لا تحصى من وجودها. وثمة صور بوناغنتورا أخرى فى الفريوس، مثلاً خير الألوهية الذى يضع بصمته على العالم (١٠٩:٧). يشجب بوناغنتورا بشدة نظامه الخاص (الذى فيه تتطابق تطابقاً صحيحاً القدم مع آثار القدم (١٢:١١٥-١١٦)؛ لأنه أخفق فى أن يقتفى آثار أقدام فرانسيس. وكانت بياتريس قد اختارت "أن تترك فى الجحيم" آثار أقدامك (٨١:٣١). هذه "الآثار" هى علامات مجازية تحل محل صانعها وتعلنه، ولكن مكانتها كأثار تعلن ما لها من حدود. وكلفتها رمزية فإن الوسطة التى تعلن مكانتها المرجعية، أى الآثار هى "نسخ" الرب" الواحد الذى لا يمكنها إلا أن تعلنه.

أعتقد أن من المهم - مع ذلك - أن ندرك أن هذا الاستخدام الأوغسطينى - البوناغنتورا والدانتيني ليس هو نفسه الأفكار الحديثة عن المجاز، كما ناقشه على سبيل المثال كولريدج^(ص) الذى حقق تقدماً للفكرة القائلة بأن لغة التوراة وفرت النموذج للمجاز الشعري، بمعنى أنها جعلت اللغة الشعرية نفسها خبرة ما لا يوصف. هنا تجذب اللغة الرمزية على وجه التحديد الانتباه إلى إخفاق الوسائل اللغوية فى أن توصل الكيان الإلهى الذى تقصد أن توحى به. ففى حين أمكن كولريدج أن يكتب - فى مناقشته لسفر حزقيال - أن الكتاب المقدس يستخدم "نسقاً من الرموز المتناغمة

(ص) Samuel Taylor Coleridge (١٧٢٢-١٨٢٤) شاعر وكاتب وناقد إنكليزي من الشريحة العليا من المثقفين البريطانيين فى عصره. كان فكراً ليبرالى النزعة. أقام علاقة صداقة قوية مع معاصره الشاعر الإنكليزي المرموق وليام وردزورث الذى ألهمه أفضل ما كتب خاصة فى الشعر، مثل The Rime of the Ancient Mariner و Kubla Khan ونشرا معاً القصائد الغنائية "Lyrical Ballads" وسافرا معاً إلى ألمانيا حيث درس كولريدج الفلسفة. بعد عودتهما إلى إنكلترا ترجم كولريدج بعض أعمال شيللر. أدمن على تعامله الأفيون بعد أن اتخذته علاجاً لمرض صدرى. على الرغم من قلة إنتاجه كميّاً فإنه كان بلا منازع الناطق الفكرى باسم الحركة الرومانسية الإنكليزية. (المترجم).

فى ذاتها، والمكونة من المادة ذاتها مثل الحقائق التى هى موصلاتها^(٦١)، فعند دانتى، كما عند أوغسطين، على الرغم من أن الرموز هى موصلات فإنها لا يمكن أن تكون من مادة الحقائق التى تحملها. إنها بالفعل تلمح إلى وتعيد إليه مرجعها، ولكنها لا يمكن أبداً أن تجعل العالم حاضراً^(٦٢). إن مكانتها الرمزية هى على وجه الدقة وسيلة جعلها مرجعها الذى لا يوصف، فيصبح المجاز الآلية التى بواسطتها تصبح الهوة الوجودية (الأنطولوجية) بين ما تشير إليه الكلمة والكلمة نفسها هوة لا يمكن عبورها.

تقوم خرائط العالم المزينة بالرسوم عند دانتى بتركيب الخطوط الرئيسية للبحث الفكرى من أوغسطين وأروسيوس إلى هيو وألبرت وبوناغنتورا. وتنعكس جغرافيته الفرضيات المسبقة النظرية التى يبدو أنها تميز خرائط العالم الوسيطية والموسوعية التى خدمت الأغراض الأيديولوجية بينما كانت تدرس الجغرافية التجريبية. وعلى سبيل المثال فإن دانتى - شأنه شأن صانعى خرائط العالم وشأن ألبرت - معنى بالجغرافية الفيزيائية ويعلم تجربى (إمبريقى) لصنع الخرائط. وهذا ظاهر فى عدد من الجهات. أولاً، يقدم كتاب *De Vulgari Eloquentia* - الذى يصف دانتى فيه أربع عشرة لهجة إقليمية إيطالية - يقدم خريطة لغوية أدبية مفصلة، لا تتعارض مع الدراسات الحديثة للنجريات، للغات المحكية فى إيطاليا^(٦٣). وفى الفصل الأول من كتاب *De Vulgari Eloquentia* يصف دانتى قسماً من لغات العالم على أساس الجغرافيا. وتظهر معرفته بجغرافية إيطاليا ولغاتها دراية بالخرائط البحرية الدقيقة علمياً (الخرائط الملاحية البينانية) التى كانت فى التداول فى القرن الثالث عشر^(٦٤). إضافة إلى هذا فإن الكوميديا مليئة بإشارات جغرافية محددة، سواء إلى إيطاليا نفسها وإلى حوض البحر الأبيض المتوسط، كذلك يحدد دانتى مواقع أنهار العالم بدقة^(٦٥). وهو يضع مناطق الأرض الزمنية بإشارات جغرافية دقيقة، كما - على سبيل المثال - فى المظهر، حيث يلاحظ أن الليل يحط على نهر الكانج، والغروب فى القدس، والشروق فى نصف

الكرة الغربى على جبل المطهر (١:٢-٦). وبالمثل فإن رسالة مسألة المياه واليابسة *Questio de Aqua et Terra* - وهى موضوع نزاع - والتي كتبت فى عام ١٢٢٠، تبرهن على معرفة دانتي واهتمامه بالمسائل النظرية التى تناقش نظرية المناطق واليابسة فيما وراء العالم المعروف. وتذكر رسالة *Questio* اسم دانتي فى بيانين افتتاحى وختامى بوصفه آخر الفلاسفة الحقيقيين، مشيرة إلى أنه هو المؤلف.

ويتمركز نزاع تحديد مؤلف رسالة *Questio de Aqua et Terra*، أو بصورة أدق، *Questio de Sité et Figura sive Forma, Duorum Elementarum, Aqua Videlicet et Terre*.

حول طبيعة كتلة اليابسة التى يقع موضعها فى الجحيم (١٢٢:٢٤-١٢٦) وفى مسألة (٢١) لأن دانتي - فيما يبدو - يقترح وجهات نظر متباينة فى العلاقة بين البحر واليابسة^(٦٦)، وفى الأنشودة (٢٤) من الجحيم - وإشارة إلى الفرق بين نصفى الكرة المتواجهين (١١٢) وإلى "نصف الكرة الخاص بنا"^[١٢٤]، يشرح فيرجيل أنه حينما سقط إبليس على الأرض، وتفادياً للتلوث فإنه وضع فى نقطة معاكسة تماماً للقدس - المركز التوراتى للأرض - الأمر الذى تسبب فى تراجع كتلة اليابسة (١٢٢-١٢٤) إلى "نصف الكرة الخاص بنا". والموقف المتخذ هنا هو أن نصف الكرة الشمالى هو القسم القابل للسكنى من الأرض، فى حين أن البقية هى مياه ولهذا فهى غير مأهولة. ومن المثير للاهتمام أن كتاب ألبرت *De Natura Dolci* يميز موقف الأقدمين فيتاغوراس وهوميروس وأوفيد وأفلاطون وديموقريطس وآخرين لم يذكر أسماعهم من موقف بطليموس وابن سينا، فقد ذهب الأول إلى وجود خمس مناطق مناخية واعتبر المنطقة الحارة منطقة لا يمكن عبورها؛ والآخر - على النقيض من ذلك، وكما أشرت - ذهب إلى إمكان عبورها، تماماً كما يفعل ألبرت^(٦٧). ويبدو فيرجيل - فى نص دانتي - يحتذى حذو تقاليده القديمة. وبالمثل فإن خطبة يولييسيس إلى رجاله، التى ذاعت

أخبارها، فى الأنشودة ٢٦ من الجحيم تشير مباشرة إلى اليابسة فيما وراء مضيق هرقل، الذى يريد رجاله أن يستكشفوه باعتباره "العالم بغير بشر" [١١٧] وتلاقى شخصية يولييسيس الهوميرية (والفيرجيلية) عند دانتي مع ملاحظة ألبرت بأن هوميروس (وهيزيود) كانا يعتقدان بأنه لا توجد يابسة أو بشر وراء العالم المعروف، فإذا لم يكن دانتي يتفق مع هذا الموقف، كما يفهم ضمناً من رسالة المسألة (Quaestio) يكون مثل هذا آخر فى الكوميديا حيث يشير الشاعر إلى حدود فيرجيل.

لقد ذهب الباحثون إلى أن موقف المؤلف فى Quaestio بشأن علاقة اليابسة بالمياه سدمر التوازن اللاهوتى الذى يجعله دانتي مركزياً فى جغرافية الكوميديا^(٦٨). وهو إذ يضع مكان المطهر جبلاً داكنا بعيداً [الجحيم، ١٣٢:٢٦-١٣٣] حيث عدن فى قمته، بالتحديد عند الجهة المقابلة للقدس، وعلى تسعين درجة طولية من قادش ومن نهر الكانج، فإنه يخلق توازياً جغرافياً تاماً^(٦٩). وتظهر هذه المواقف - حسبما يذهب الباحثون - أن دانتي يعرف ولكنه يرفض عامداً نظرية "العالم المقابل للأرض". وهذا النمط الهندسى حاسم بالنسبة للاهوت دانتي والاستعارات التى طورها فى المطهر^(٧٠) للأرواح الهابطة إلى المطهر "حينما خرجت إسرائيل من مصر". وهكذا فإنه يعادل الحياة فى العالم مع الأسر والحياة بعد الموت مع التحرر من المنفى^(٧١).

مع ذلك فقد جادل فرانثيسكو ماتزونى باستمرار فى صف تأليف دانتي المسألة Quaestio، وكان أحدث محاولاته فى "مقاييس دانتي للعالم". فهو هنا إذ يتخذ الموقف القائل بأن دانتي كان نتاج "المذهب الإنسانى المسيحى" للقرنين الثانى عشر والثالث عشر، يصر على توفيقية الشاعر الفكرية. كما تتضح فى أعماله المتنوعة وفى استطلاعها للنظرية العلمية، سواء الأرسطية أو البطلمية أو المدرسية (السكولائية)، كما ظهر فى الوليمة Convivio، والكوميديا والمسألة Quaestio. وهو يشرح أن المسألة تتبع تقاليد أعمال موسوعية أخرى استلهمت النظريات الأرسطية فى العصور الوسطى

المتأخرة. وكما يبين مازوتا (Mazzotta) أيضاً فإن "المنطق" وهو النهج الفكرى لبحث المسألة "مستخدم فى معظم نصوص دانتي "الاستطردية والشعرية"^(٧٢) . وفى الحقيقة فإن المسألة تشارك فى المقاربة النظرية لألبرت فى كتابه De Natura Loci. وفى حين أن غرضها الرئيسى ليس أن تقدم صورة للعالم Imago mundi فإنها تتبع أبعاد سطح الأرض كما بينها ألبرت. وتمتد مناطق اليابسة المأهولة من الكانج إلى قادش، ١٨٠ درجة على خطوط الطول و٦٧ على خطوط العرض، مؤلفة ربع سطح الأرض^(٧٣) . مع ذلك فإن الاهتمام الأول فى المسألة هو باستطلاع مشكلة المبادلة بين نصفى الكرة إذا كانت اليابسة هى فى الشمال وحده؛ لأن هذا من شأنه - نظرياً - أن يجعل المياه تصعد إلى ارتفاع أعلى من اليابسة، وهو ما يؤدي إلى إغراق هذه الأخيرة إلى أرض من المياه بسبب وزنها. وتضع المقالة فرضية على الطريقة الأرسطية عن الكيفية التى بها تحل هذه الصعوبة النظرية منطقياً، وهو تناقض ظاهر مع التوازى التام الذى يفصله دانتي فى الكوميديا . فحين يحدد دانتي مكان المطهر - كجزء من "العالم الآخر" - فى الجهة المقابلة للأرض فى الكوميديا، إنما يترك بغير حل مسألة الأجسام البديلة من اليابسة أو البشر على الجانب الآخر من الأرض.

إن كافة أعمال دانتي وبما فيها المسألة - تبين اهتمام الشاعر ومعرفته بالنظرية الجغرافية التجريبية (الإمبريقية) المعاصرة. فقد كان دانتي - شأنه فى ذلك شأن ألبرت فى كتابه - De Natura Loci - قادراً على إقامة الحجة نظرياً بشأن مناطق الأرض والعلاقة فيما بينها، فى الوقت ذاتها - وكما يفعل ألبرت فى الفصل الثالث من De Natura Loci - على اتباع نظرية الأرض الثلاثية شبه الأصلانية (الأرثوذكسية)^(٧٤) . وبالمثل يستطلع دانتي - فى الكوميديا - الشواغل الموسوعية بالعجائب. فعلى تقاليد أوغسطين وأوروسيسيوس يتجاهل الشائعات عن الوجود الفعلى للأجناس المتوحشة، لكنه فى الوقت نفسه يحول التخيلات إلى استعارات. وقد احتوت المادة التى تظهر فى

الموسوعات، فى مجموعات العجائب ويشأن خرائط العالم التى تتضمن مخلوقات من أنواع مختلطة متباينة - التنطور(خ) والمينوطور(ط) والغرفين(ظ) على سبيل المثال - وكذلك أوصاف وتصويرات الأجناس المتوحشة (أكلة لحوم البشر والناس بغير رؤوس والكانئات من الجهة المقابلة) . وعلى الرغم من أنه كانت هناك أماكن كثيرة للعثور على هذا النوع من المادة فى تلك الحقبة، كانت مصادر دانتي الأولية الكتاب اللاتينيون الأقدمون(٧٥) .

لعل خيال دانتي التوفيقي والتركيبى قد جعل البحث النظرى من النوع الذى نجده فى الرسالة Quaetio متمشياً مع البحث اللاهوتى لأوغسطين، الذى كان يرفض فكرة "المتوحشين" على أسس لاهوتية وتجريبية (أمبريقية). وهكذا فإن دانتي يضيف طابع المجاز على "العجائب" بينما وضع "البرى" و"الوحشى" فى "الجحيم" . إن الوحوش فى القصيدة - مخلوقات خيالية مثل مينوس(ع) وسيريوس(غ) وغيريون(ف)(٧٦) وإبليس، ذا الرأس المذهل (الجحيم، ٣٤: ٣٧) - هى جميعاً فى "الجحيم" . والجحيم هو موقع "المذهل" وحيث الخطاة يتعجبون من أن شخصاً حياً استطاع أن يسافر عبر الجحيم وحيث الشيطان هو "المدهش" المطلق. ولكن الجحيم يضم كسكن كل أولئك الذين سعوا وراء

(ض) Centaur فى الخرافة الكلاسيكية كائن خرافى نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان. (المترجم).

(ط) Minotaur كائن خرافى نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل ثور. (المترجم).

(ظ) Griffin كائن خرافى نصفه الأعلى نسر ونصفه الأسفل أسد (المترجم).

(ع) Minos ملك كريت ابن زيوس وأوروبا. اعتبر مشرعاً موهوباً حتى أنه نصب بعد موته واحداً من قضاة محاسبة الموتى. (المترجم) .

(غ) Cerberus وحش خرافى يحرس مدخل الجحيم ويمنع دخول الأحياء مثوى الأموات. (المترجم).

(ف) Geryon فى الأساطير اليونانية كائن من ثلاثة أجساد وله أجنحة. تمكن هرقل من قتله فى النهاية. (المترجم).

العلامة باعتبارها شيئاً وليس العلامة باعتبارها علامة، أو أنهم كانوا قد أخطأوا العلامة ظناً بأنها شيء؛ وفي الحقيقة فقد نؤمهم هذا الخطأ، ودانتى يجعل عقابهم الأبدى محاكاة لسقوطهم الأخلاقي. إنهم باعتبارهم إسقاطات وحشية فى الجنس البشرى يمثلون بشاعة الخطيئة التى تتم بها - فى الآن ذاته - غشواية البشر وإخافتهم.

بالإضافة إلى هذا فإن سكان الجحيم البشر الخطةا يبدون إلى حد كبير مثل الجار القريب للمرء، حتى وإن لم يبدوا متشابهين. وعلى الرغم من أنه استمد إلهاماً من مصادر كلاسيكية، فإن وحوش دانتى الشيطانية، وبعض العقوبات للملعونين، تعيد صهر عجائب مادة الشرق. إن سيربيروس يماثل الإنسان ذا رأس دب الذى كتب عنه منذ زمن بعيد يرجع إلى ستيسيلاس^(ق) والذى ذكر فى الموسوعات. كما أن الغيريون، "العجائبي" (الجحيم، ١٦: ١٣٢) ورمز الزيف مرسوم بتصميمات مطابقة للثياب التركية والتقارية (الجحيم، ١٦: ١٧-١٧). ويبدو الخونة - والخائن الأكبر هو رمزهم الكامل - مثل أكلة لحوم البشر، وتعطى قصة يوغولينو^(ك) مثلاً على أكل لحوم البشر فى بيزا، وليس من بلاد المتوحشين المتخيلة^(٣٣)؛ والعرافون، الذين يسيرون ورؤوسهم ملتوية إلى الخلف، يذكرون بمخلوقات العالم المقابل للأرض (٢٠) ومظهر اللصوص (٢٥) يوحى بالمخلوقات الشريرة المتداخلة أنسجتها فى كتب العجائب والحملات الصليبية (مثلاً، الكتاب ٣ من مجلد فوشيه شارتر (Foucher of Chartres)

(ق) Ctesias مؤرخ وطبيب إغريقى، عاش سنوات طويلة فى بلاط بلاد فارس، وأرسله الفرس فى عام ٣٩٨م إلى إيفاغوراس ثم كونون. ولم يبق من مؤلفاته إلا مختصر وضعه قوتيبوس لكتابه فارس والهند، وفيه حاول أن يبرهن على أخطاء وقع فيها هيروdot. (المترجم).

(ك) Ugolino حاكم مدينة بيزا (الإيطالية) ويظهر فى الأشودة الثالثة عشرة من الجحيم، التى تعد أنشودة المتحررين. (المترجم).

Historia Hierosolimitana. وهكذا يستخدم دانتي هذه المادة الشرقية العجيبة، التي كانت قد وجدت طريقها إلى أعمال المثقفين، كجزء من نسقه الرمزي عنده مثل هذه الشواذ هي "غرائب" العالم الجهنمي^(٧٨).

إن تخيل "الوحشى" يؤدى عدداً من الوظائف النفسية. أولاً، كمبيد للجهود البشرية، وهو أمر مرعب ومدهش فى أن معاً، يهدد الوحشى النظام الاجتماعى. وبهذه الصفة يصبح موضوعاً للفضول والغفور، حصاد المخاوف والرغبات، رمزاً لقوى الشر، مجازاً أو "كاركاتورا"، وتعبيراً وحشياً عن غموض إنسانى. ويمكن رؤية عادة الكنيسة لتشبيه هذه الوحشيات أثناء هذه الفترة كآلية لتأكيد البعد النفسى للوحشى. ومن السهل إدراك نمط مماثل فى تمثيل دانتي للوحوش الشيطانية فى الجحيم، حيث يجذب الحاج بصرياً ويفزع من الوحوش الكلاسيكية التى تقوم بدور حراس السجون فى جهنم. كذلك فإن الوحوش تلخص هذا الغموض البشرى - القدرة على أن يكون وحشاً لا عقلياً ومخلوقاً عقلياً معاً، أن يكون خطيراً وجذاباً معاً - بهذه الصفة فإن هذه الوحوش تمثل ما هو منفر للغاية وما هو مفر للغاية على السواء فى الشر. وتتيح السمات الجذابة فى هذه المخلوقات المنحرفة أيضاً لها أن تخفى طبيعتها الكامنة. ويسارع البشر إلى اتباعها بفعل فوائد مثل الحب الجنىسى والاستقرار المالى أو الرغبة فى المعرفة والسلطة والنجاح. ويمكن لهذه الفوائد أن تتحول بسهولة إلى مضار خطيرة على النحو الذى تضرب له الأمثلة الصيغ الدانتية لحكايات فاريناتا^(*) وبيرونينو^(ل) وأوليسيس.

ولقد قيل إن مفاهيم مثل "البرية" و"التوحش" و"البربرية" التى يمكن، جزئياً على الأقل، معادلتها مع "الوحشى" كانت قد فقدت تدريجياً طابعها الخرافى مع ازدياد

(*) Farinata Degli Uberti زعيم الفيلبيين فى فلورنسا ويظهر فى الأنشودتين ٦ و ١٠ من الجحيم (المترجم).

المعرفة بالمناطق التي يفترض أنها برية^(٧٩) . ويمكن للمرء أن يفترض أن الأجناس المتوحشة، التي يتخيل وجودها على الحدود، لم تعد موجودة بمجرد أن استكشفت هذه الفضاءات بواسطة الجغرافيين التجريبيين (الإمبريقيين) أو أخضعت بواسطة الغزو العسكرى. وبطبيعة الحال فإننا في عصرنا هذا قد قمنا بإسقاط فنى لوجود هذه البرية فى الفضاء الخارجى، كجزء من ممارسة تتخيل أشكالاً أخرى للحياة فى إقليم لم يتم غزوه بعد، إنما أيضاً كنقد طوباوى لعالمنا نحن. وبالمثل فإن هذه "البرية" تتغلغل فى صيغ الثقافة الشعبية عن النشاط الإجرامى. ويذهب هايدن وايت (Chyden White) إلى أن إزالة الطابع المكانى باطراد "عن الإنسان البرى" كان مصحوباً بإضفاء طابع داخلى على البرية، وهو ما يمكن ربطه بكارل يونغ^(٨٠) والمفكرين الآخرين البعد الفرويديين Post- Freudians مثل ميلانى كلاين^(٨١) ونورمان أو. براون^(٨٢)، وهذه البرية المحولة إلى عامل داخلى تؤدى بالطريقة نفسها الوظيفة التى كانت تؤدىها خرافة "الإنسان البرى" فى الأزمنة القديمة - كمجاز للرغبات وأشكال القلق المكبوتة^(٨٣) .

تتيح الوظيفة، النفسية (السيكولوجية) لـ "البرية" نقطة بداية لمناقشة المفاهيم المسيحية عن "البرية". فكما ناقشت أعلاه، فإنه على الرغم من حكايات قاسية كثيرة سلبت التعاليم المركزية للمسيحية الأصلانية (الأورثوذكسية) فإنه لا مكان فى هذه

(م) Carl J. Jung (١٨٧٥-١٩٦١) زعيم المدرسة التحليلية فى علم النفس. انشق على فرويد بسبب ضيق الأخير بالآفاق التى أراد يونغ أن يفتح علم النفس عليها : الأساطير والتصوف والدين والعالم الروحى للإنسان، وضيق يونغ بالنظرية الجنسية عند فرويد . (المترجم).

(ن) Melanie klein (١٨٨٢-١٩٦٠) عالمة نفس فرويدية، من رائدات التحليل النفسى للأطفال مع أنا فرويد. ولدت فى فيينا وتوفيت فى لندن. (المترجم).

(هـ) Norman Brown أحد أهم مؤسسى التاريخ النفسى (Psychohistory) أهم مؤلفاته: Life against Death, Love s Body, Apocalypse and/or Metamorphosis; (المترجم).

المسيحية "للمتوحش" إلا حيث يناسبه في الخطأ الإلهية. إن الاعتقاد بأن الحرمان البشري ضار وأن المحرمات (التابو) ضد الناس لا مشروعية لها، هي أمور معيارية في العقيدة المسيحية. وعلى سبيل المثال فإن أفكاراً كهذه تظهر في الأناجيل حين يستنكر المسيح المحرمات ضد الناس من الملل والأعراق الأخرى، ويأخذ بها آباء الكنيسة، وخاصة أوغسطين. وهكذا فإن "تحويل البرية إلى عالم داخلي" كان جوهرياً بالنسبة للتفكير المسيحي، وإن يكن غير يقيني بالمعنى اليوناني. إن إضفاء طابع مجازي على المخلوقات ذات المظهر الوحشي هو تطور مفهوم لهذا التحويل للبرية إلى الداخل. وذلك أن ما هو شكلي يتقمص حالة داخلية. وعلى النقيض من "البرية" المتخيلة، التي -إذا وجدت- تكون طبيعية ففي صيغة دانتى تكون هذه "البرية" المحولة إلى الداخل غير طبيعية حقاً لأن اللاعقلانية البشرية تفضي إلى أفطع الخطايا، كما تصور في انحرافات الجسد عند البشر الذين يجدون أنفسهم في الجحيم أو في الوحوش التي تحرس جهنم. ويمكن أن تعرف الخطيئة وأن تقسم وتصنف وترتب وتتراتب وتُخضع لفحص دقيق، لكنها في النهاية هي الوحشية المطلقة، الضلال الحقيقي^(٨١).

تختلف جغرافيا الكوميديا عن الجغرافيا التجريبية الحديثة، وعن النظريات الماكروبيوسية، وعن جغرافيات العصور الوسطى في جوانب عدة: فالمحيط يحيط باليابسة، جاعلاً اليابسة مثل جزيرة؛ العالم المعروف مقصور على الشمال؛ خطوط العرض والطول مقصورة على اليابسة المأهولة؛ والقارات الثلاث أصغر؛ وأبعاد البحر الأبيض المتوسط تختلف عن أبعاده اليوم؛ وروما - وليس القدس - هي مركز العالم.

ونجد - بوضوح - في أعمال دانتى، كما في خرائط العالم - نجد مفاهيم عدة للجغرافيا تعمل في آن معاً. فهو في البلاغة العامية (De Vulgari Eloquentia) يفصل بدقة علمية الفضاء الجغرافي للغة الإيطالية، لغته الأم، على النقيض من لغات عامية أخرى وعلى النقيض من اللاتينية. وفي الملكية (Monarchia) يرسم خريطة "الفضاء

الطوباوى" للدولة المثالية - مؤيداً "العالم بأسره" موحداً تحت حكومة واحدة على نموذج الإمبراطورية الرومانية القديمة. وهو فى الكوميديا يصف أقاليم إيطاليا والدول - المدن كفضاءات اجتماعية ذات حدود وذات تواريخ وعادات فريدة. ولكنه يقدم أيضاً معرفة عامة بجغرافية العالم. وهو، إذ يعيد صنع النماذج الماكروبيوسية فى الكوميديا لتحديد موقع المطهر فى نصف الكرة الجنوبي، فإن جغرافية دانتي ذات القارات الثلاث، كما فى خرائط العالم الموسومية طراز تي - أو ٢٠٠. تتضمن أيضاً كثيراً من المخلوقات "الغرائبية" مثل المينوطور والغرفين، وتعطى مدن مثل القدس وروما مكانة بارزة متوازنة. ولكنه فى الإشارة إلى آثار بونافنتورا، تؤدى دور آثار الأقدام الغامضة للرب وعلامات على الحضور الإلهى فى عالم الطبيعة، يجعل الجغرافيا أيضاً مجازية.

هوامش الفصل الأول

(١) بشأن مناقشات حول دانتي والعلوم انظر المقالات المجمعة في كتاب: Dante e la scienza, Le stelle di Dante; وانظر أيضاً كتاب: Gizzi, L' astronomia nel poema sacro ؛ بشأن مناقشة أسبق تحدد موقع معرفة دانتي بالفلك والجغرافيا وعلم الكون، انظر طبعة: Quaestio وصفحة ١٢ من طبعة Mazzoni.

(٢) See Nardi, Saggi di filosofia dantesca, 81-109, 139-66: Vasoli, "Dante, Alberto Magno e la scienza dei 'peipatetici'": and Armour, "Dante e l' imago mundi", 191-202. For the background to these developments, see Chenu, La Théologie: Haskins, Studies in the History of Medieval Science: Duhem, Le système du monde, particularly vols. 1-3: Thorndike, History of Magic, with vols. 1 and 2 covering medieval science; and Boffito, Gli strumenti della scienza.

(٣) بشأن نظرية أفق للتطورات في نظرية المعرفة من القرن الثاني عشر وبعده، انظر

Stock, Myth and Science, 92-167. Evans, Old Arts and New Technology, 92-167. Langlois, La Connaissance de la Nature, Man and Society : and Science Viarre, La survie d' Ovide. ,sance de la nature

ويتضمن هذا الكتاب شيئاً ممتازاً بالمراجع حتى عام ١٩٦٦ للدراسات الأولية والثانوية ذات الأهمية المركزية للعلم الوسيطى: وانظر أيضاً مقدمة Wetherbee لكتاب Bernardus Silvestris Cosmographia, وكتاب ١٦٢-1 Platonism and Poetry Wetherbee,

(٤) يتخذ Mazzotta من محاولة دانتي تحقيق مثل هذا الانسجام محور أدلة في كتابه Dante's Vision.

(٥) انظر ما يلي بشأن مناقشات لجغرافية دانتي:

Moore, "The Geography of Dante"; Moore, "The Astronomy of Dante", 1-108, in which he argues that Dante knew the Elementa Astronomica of Alfraganus; Boffito and Sanesi, "La geografia"; Revelli, L'Italia nella Divina Commedia; and Mori, "La geografia nell' opera di Dante." Dante also figures in Wright, Geographical Lore, 106-7, and Kimble, Geography in The Middle Ages, 241-44. For Dante's

scientific knowledge, see Boffito, Saggio d'un commento scientifico. For his knowledge of Gerard of Cremona's Liber de Causis and of Alpetragios, see Nardi, Saggi di filosofica dantesca, 81-109, 139-66; Baldacci, "I recenti contributi"; Gizzi, L'astronomia nel poema sacro; Beniamino Andriani, Aspetti della scienza in Dante; Pecoraro, Le stelle di Dante; Hawkins, "Out upon Circumference"; and Armour, "Dante e l'imgo mundi," ١٩١-٢٠٢.

ويمكن للمرء أن يدرج هنا أيضاً كتاب Kleiner, Mismapping the Underworld, الذي يكشف فيه بذكاء - في الفصل الرابع (٨٥-١١٦) كيف يقدم دانتي ويسيء تقديم العلم. ولست أناقش جغرافية العالم الآخر، كما يفعل - مثلاً - مورغان Morgan في كتاب Dante and the Medieval Other World.

(٦) انظر أيضاً Pecoraro, Le stele di Dante ١٩-٢٤. انظر Hart, The Cristo-Rythme and Polyvalence, and Boyde and Russo, Dante e la scienza..

(٧) انظر Honorios of Autun, De Imagine Mundi

(٨) بشأن صناعة الخرائط في العصور الوسطى انظر بيزلي Beazley الذي يكتب رافضاً: "الخرائط غير العلمية لحقبة العصور الوسطى المتأخرة ... هي عبث تام... إلى حد أن إشارة مجردة إلى الكائنات المتوحشة هنا وفما تكفى". وهذا في كتاب The Dawn of Modern Geography- 3: 528. ويشأن جغرافية العصور الوسطى انظر المصادر التالية:

Lewel, Geographie du moyen âge; Deslile, "Notice sur les manuscrits du Liber Floridus de Lambert"; wright, Geographical Lore; Olschki, Storia letteraria.; Kimble, Geography in the Middle Ages; Vaughan, Mathew Paris; Almagia, Planisferi; Destombes, Mappemondes a.d. 1200-1500; Sutto, "L'image du monde"; Bagrow, History of Cartography; Broc, "Visions médiévales de la france"; Lecoq, "La mappemonde du Liber Floridus". Brincken, " Monumental Legends on Medieval Manuscript Maps"; P.D.A. Harvey, " Medieval maps"; wood-ward, " Medieval Mappaemundi,"

وهو يتضمن قائمة تسلسل زمني بخرائط العالم الرئيسية في العصور الوسطى، ٣٠٠-١٤٦٠ (٦٨-٣٥٩) وثبتاً ممتازاً، مراجع صناعة الخرائط في العصور الوسطى (٧٠-٣٦٩):

P.D.A. Harvey, Medieval Maps; Russell, Inventing the Flat Earth; P.D.A. Harvey, Mappa Mundi. وهو وصف ونظرة أفق تاريخية لخريطة العالم الراهن توسع العمل الذي قام به Jancey, Mappa Mundi. في وقت سابق جانسي.

Moir, The World of Hereford Cathedral; Fernandez-Armesto, Before Columbus; and Western, Discoveing New Worlds.

Augustine, Cité de Dieu, 16-18; Orosius, Histoires, 1.1.2; Isidore of Seville, (٩) Etimologias, 14.2; Brunetto, Li Livres dou tresor, 1.21, 121-24; and Albert the Great, see Nardi, saggi di filosofia dantesca, 63_72; and Beniamino Andriani, Aspetti della Scienza in Dante; For Dante's use of Albert, see Cioffari, "Dante's use of Lapidaries"; Vasoli, "Dante, Alberto Mango"; and Armour, "Dante e l'immagine mundi", * 192.

Martianus Capella, De Nuptiis Mercurii. انظر: (١٠)

Ebstorf إيبستورف P.D.A Harvey, Mappa Mundi, 30, وكل ما تبقى من خريطة العالم إيبستورف
قياسات الخريطة من كتاب ١١ في القرن الثالث عشر - وقد استمدت هذا الاسم من أنها اكتشفت
في عام ١٨٢٠ في سكن الراهبات في إيبستورف بألمانيا- هو النسخة المصورة فوتوغرافيا بالحجم
الطبيعي التي تمت في عام ١٨٨٨. والنسخة الأصلية ترجع الى الفترة ما بين ١٢٢٥-١٢٤٠ والفترة
١٢٨٠-١٢٩٠.

Woodward, "Medieval Mappaemundi", 307-14. انظر:

Freccero, Dante, 168 (١٢)

P.D.A. Harvey, Mappa Mundi, 29 (١٣)

Ibid., 3. (١٤)

Solinu's Collectanea Rerum Memrabiliu sive Polyhistori is preserved in works (١٥)
like Isidore of Seville of Seville's Etymologiae and Vincent of Beauvais's pecu-
lum Naturale.

Harvey, Mappa Mundi, 3 (١٦)

Le Goff, "Pourquoi le XIIIeme Siècle a-t-il été un siècle d'encyclopédisme?" (١٧)

Langlois, La connaissance de la nature, 49-113. انظر: (١٨)

Commentarii in Somnium Scipionis, 2.5-9 في كتاب (١٩)
من مقال شيشرو "Scipio's Dream" متناولاً الإمكانيات العلمية والفلسفية على السواء المتضمنة في
نص شيشرو. ويتسم الفصل السادس العالم السفلي إلى مناطق جغرافية مع الشعوب التي ليست فيما
بينها صلات.

William of Conches, Glosae Super Platonem : انظر : (٢٠)

(٢١) انظر: Boffito, L'eresia degli Antipodi.

(٢٢) Woodward, "Medieval Mappaemundi," 304.

(٢٣) كتب أوغسطين: "إما أن ما هو مكتوب عن هذه الأجناس زائف، أو أنها ليست بشراً؛ أو - إذا كانت بشراً - فإنها من نسل آدم (Cité de Dieu, 16-8). ويشأن خرافة المخلوقات المضادة، انظر: Lecoq, La Mappemonde du Liber Floridus.

(٢٤) Albert the Great, De Natura Loci, 1.9,1.6.

(٢٥) See Tilmann, An Appraisal of the Geographical works of Albertus Magnus, 169.

(٢٦) Albert the Great, De Natura Loci, 3.5.

(٢٧) Ibid., 1.6, Albert the Great, The Book concerning the nature of Places, 54.

(٢٨) Albert the Great, De Natura Loci, 1.9-10.

(٢٩) Ibid., 1.6.

(٣٠) Augustine, Cité de Dieu, 16.9 (my translation)

(٣١) انظر: Pliny, Natural History, Book 7

(٣٢) "Quaeritur etiam, utrum ex filiis Noe vel potius ex illo uno homine unde etiam ipsi extiterunt propagata esse credendum sit quaedam monstrosa hominum genera, quae gentium narrat historia, sicut perhibentur" (Cité de Dieu, 16.8).

حيث إن ماري ب. كامبل Mary B. Campbell تتخذ وجهة نظر مختلفة عن تلك التي اقترحها ، فإنها تناقش أيضاً- وإن بصورة متعجلة- أوغسطين والأجناس المتوحشة في كتابها The Witness and the Other World, وهي تؤكد - بناء على مدينة الرب Cité de Dieu أن أوغسطين كان يؤمن فعلاً بوجود وحوش (انظر ص ٧٧). انظر أيضاً Friedman, The Monstrous Races 37-86, وقريباً Mismapping the Underworld, 126 الذي يكتب في Kleiner نظر كلاينر "يحذر أوغسطين قنار مدينة الرب أن لا يسيثوا تفسير هذه المخلوقات. وهو يصر على أنه سيكون متقبيل الجريمة أن نتخيل أن أشكالها المشوهة هي دليل على عدم كفاءة الرب".

(٣٣) Augustine, Cité de Dieu. 16.8 (my translation)

(٣٤) لا تزال المناقشة الأفضل - بفارق كبير- للتقاليد ولكانة أوغسطين فيها - هي كتاب Céard, La na- Generatione et le prodige الخاصة الصفحات ٢-٩٠. يذكر المؤلف سيار كتاب أرسطو Animalium,4 cicero, De Divinatione,De Natura Deorum; Pliny, Natural History الكتاب السابع، لدعم هذه الاستنتاجات.

See Isidore of Seville, *Etimologias*, 11, and Lecouteux, *Les monstres dans la* (٣٥)
pensée médiévale européenne, 10-12. For other discussions of the "monstrous"
and the "wild," see Bernheimer, *wild Men in the Middle Ages*; Baudet, *Paradise*
on Earth; Kappler, *Monstres*; and Meslin, *Le Merveilleux*.

Alain de Lille, In *Cantia Canticorum*, 53. (٣٦)

Les Monstres dans la pensée médiévale européenne, يقدم Lecouteux في كتابه:
مناقشة ذكية للكيفية التي تمت بها عملية استيعاب هذه المادة في المخيلة الوسيطية ورد فعل الكنيسة
إزاءها. انظر أيضاً:

Le Goff, "The Marvelous in the Medieval West," and Wittkower, "Marvels of the
East".

Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale*, 92. Brunetto, *Li Livres dou tresor*, (٣٨)
1.131-99; Roy, "En marge du monde connu"; Gerard, *La nature et les prodiges*.

Ad Frates in Eremo, sermo 37, cols.1301-4. (٣٩)

Albert the Great, *De Natura Loc*i, 1.7. (٤٠)

Ibid., 1.7.1.12 (٤١)

Ibid., 1.7. (٤٢)

Ibid. (٤٣)

Isidore of Seville, *Etimologias*, 14.3; Rabanus Maurus, *De Universo*; Vincent of (٤٤)
Beauvais, *Speculum Historiale*, 63.24.

Aquinas, *Summa Theologica*, in *Opera Omnia* 2, 1.102.1-4. (٤٥)

Hugh of Saint-Victor, In *Ecclesiasten Homiliae* XIX, 156. (٤٦)

(٤٧) طور هذا التفسير كلاينز في كتابه *The theory of knowledge*

See Baron, *Science et sagesse*, 95. (٤٨)

See Hugh, *Eruditiones Didascalicae*, and Augustine, *De Doctrina Christiana*. (٤٩)

(٥٠) وضع ميو Hugh أيضاً كتاباً جغرافياً بالمعنى الحضري بعنوان *Descriptio Mappe Mundi* انظر
أيضاً.

Schulz, "Jacopo de' Barbari's View of Venice," 447.

Bonaventure, *Collationes in Hexaëmeron*, "Collatio XII", 14 (386) (my translation) (٥١)

Bonaventure, *Itinerarium Mentis in Deum*, 4 (my translation). (٥٢)

Bonaventure, *Collationes in Hexaëmeron*, "Collatio I", 11 (331) (my translation). (٥٣)

Bonaventure, , *Itinerarium Mentis in Deum*, Chaps 1,2. see also Gilson, *Philosophy of st Bonaventure*; Vasoli, "S. Bonaventura filosofo francescana"; Jallonghi, *Il misticismo Bonaventuriano*; spargo, *Category of the Aesthetic*; Caballero, *Transcendencia e inmanencia de Dios*; Vona, "Dante filosofo"; Corvino, *Bonaventura da bagnoregio*; and Hagman, "Dante's Vision of God". (٥٤)

Bonaventure, *Breviloquium*, 2.12.270 (٥٥)

see Vasoli, "s. Bonaventura filosofo francescano." (٥٦)

Albert the Great, *De Natura Locorum* (٥٧)

بشأن أدلة حول تأثير هذه التغيرات الفكرية على فكر القرن الرابع عشر.

انظر: Leff, *the Dissolution of the Medieval Outlook*. وبشأن أدلة ضد تحديدات خاصة للرشدية، انظر: Aquinas, "On there Being only one Intellect".

. See Maranesi, *Verbum Inspiratum* (٥٨)

(٥٩) انظر Freccero, Dante, 176-77 وفيه يشرح هذه الفكرة ويضيف أنه في جسد الشيطان. 'نزولاً' هو بالفعل 'صعوداً' بمعايير الأبدية.

(٦٠) يطرح مقال Kirkham عن صورة السلم التقاليد التوراتية واللاموتية لهذه الصورة ويقدم الحجج عن دوره المنظم الجوهري في المطهر. انظر I quindici gradi, 235.

. Coleridge, *The Statesman's Manual*, 29. (٦١)

(٦٢) بشأن مناقشات لفهم أوغسطين للغة الرمزية في الكتاب المقدس، انظر: Jordan, *Words and Word*.

See Giuseppe Andriani, "La carta dialettologica d'Italia secondo Dante", and (٦٣) Mori, "La geografia nell'opera di Dante, 289-92

See Mori, "La geografia nell'opera di Dante, 289-97. For descriptions and photos of these maps, see Gizzi, *L'astronomia nel poema sacro*, 2:109-16. For con-

temporary maps beginning with the 1320 "Planifero circolare annesso al trattato. De Mapa Mundi di Fra Paolino Minorita, " see Almagia, Planisferi; and Tony Campbell, "Portolan Charts", 459,460, in which he attributes seven maps to Pietro Vesconte prior to 1321.

Fallani, "Viaggio dantesco"; Casella, "Questioni di geografia dantesca"; Revelli, (٦٥) L'Italia nella Divina Commedia, 57-73. Kimble, in Geography in the Middle Ages, 244. يفرد معرفة دانتي الفاهمة لمواقع أنهار العالم.

(٦٦) يذهب Boffitto في "L. Opera di Dante", ص ٢٤٤ إلى أن مؤلف Quaestio إيطالي. كذلك يذهب Nardi في La caduta di Lucifero إلى حجج ضد تأليف دانتي هذا الكتاب. لكن انظر Mazzoni, 204 La Questio de Aqua et terra, الذي يستنتج فيه أن دانتي هو مؤلف Quaestio, لكن انظر أيضاً "Il Punto sulla Mazzoni" الذي يؤكد فيه مرة أخرى إلزام دانتي باتحاد مراكز مجالات اليابسة والماء. كذلك يذهب Pasquazi في 121-56 D'egitto in Jerusalem, بتجاه تاييد تأليف دانتي كتاب Quaestio

Albert the Great, De Natura Loci, 1.6 (٦٧)

Pecoraro, Le stelle di Dante, 110 (٦٨)

. Moore, "The Geography of Dante" (٦٩)

يقع جبل المطهر على الجهة المقابلة للجحيم، الذي يقع بدوره تماماً تحت القدس التي هي في مركز خريطة الأرض. انظر خريطة Singleton في الجحيم ص ٦٤٠ وتقدم مقالة Nardi عن أسطورة عدن عند دانتي أكثر الخلفيات أكاديمية لكافة النظريات الوسيطية (الشعبية واللاهوتية على السواء) حول موقع عدن. انظر: Saggi di filosofia dantesca, 311-40, انظر أيضاً: Boyde, Dante Philo- mythes and Philosopher, 109-11

(٧٠) يثير هوكنز Hawkins هذه النقطة في "Out Upon Cicumference"

Singleton, "n Exitu Israel de Aegypto"; Carol V. Kaske, "Mount Sinai and Dante's Mount Purgatory." (٧١)

Mazzoni, "Dante 'misurator di mondi'," 25-53; Mazzotta, Dante's Vision, 102. (٧٢)

Mazzoni, "Dante 'misurator di mondi'," 25-53 (٧٣)

(٧٤) كما أشار Tilmann يتناقض الكتاب الثالث من مؤلف ألبرت De Natura Loci تناقضاً فعلياً مع الكتابين الأول والثاني فيه.

(٧٥) أوضح Renucci هذا في كتابه Dante disciple et juge 217-31, انظر أيضاً I Pizzani, "Monstra e Mirabilia." و "Monstra nella cultura classica" Armour,

(٧٦) يناقش Kleiner في 117-37 Mismatching the Underworld كائن الغريون باعتباره أعجوبة والصلة بين رمز دانتي للزيف وفن الشعر.

(٧٧) على الرغم من أن ستيسيلاس Ctesias يظهر لنا من خلال أعمال فوتيوس Photius فإنه يظهر لنا وقد تحول على يد كتاب آخرين أيضاً. انظر : Ctesias, La Perse, L'Inde : Histoire de l'Orient و

(٧٨) كما يشير Peter Armour في مقاله " 158 , I Monstra e Mirabilia " فإن الجحيم له وحوشه وأعاجيبه ، إلا أنه في المطهر والفردوس - نجد دانتي حقاً فيبذل العجائب. وفي الكوميديا ليست الأعاجيب هي تلك التي تورث من الماضي الوثني. إنما هي غوامض المسيحية-الخلاص والافتداء اللذان يتكشفان للحاج في مسار رحلته.

(٧٩) انظر : White, Tropics of Discourse ,150-82

Ibid, 153-54 (٨٠)

(٨١) كما يكتب White عن خطاة دانتي الذين أخضعوا العقل للشهوة " إذا كان هؤلاء الخطاة رجالاً متوحشين، يفتقرون إلى روح بشرية، كما عوقبوا في جهنم، إنما- كالوحوش الوثنية في قصيدة دانتي - فقد نصبوا حراساً على جهنم أو جلادين للخطاة الذين أرسلوا إلى جهنم " (المصدر نفسه، ١٦٥).

الفصل الثانى

المشرق فى العالم اللاتينى

هكذا ترك لياتى من مصر فائزاً

برؤية القدس ليتأملها

- الفرنسوس، ٢٥:٥٥-٥٦

خلال حياته شهد دانتى نهاية المملكة اللاتينية فى فلسطين. سقطت طرابلس فى عام ١٢٨٩، وعكا، آخر معقل للمملكة اللاتينية، تم اجتياحها فى عام ١٢٩١ (أشار إليها غيدو دا مونتفيليرتو^(١) فى الجحيم، ٢٧:٨٥-٩٠)، والممتلكات الفرنجية الباقية فى صيدا وصور وبيروت وحيفا وطرطوس وقلعة بيليران أخليت فى السنة ذاتها^(٢). وقد أدت "جنة الشهداء"، وغيرها من البيانات المختلفة التى ظهرت فى الكوميديا عن الحملات الصليبية، بالباحثين إلى الإجماع على أن دانتى كان يشارك فى المعتقدات السياسية بشأن الأراضى المقدسة طابوراً طويلاً من البابوات والملوك الفرنسيين الذين كانوا يدعمون الحملات الصليبية لاستعادة هذه الأراضى^(٣). ولكن مقارنة التعارض بين قصيدة الحج لديه مع مسردات الحج - الصليبية تظهر أنه، وإن كان يستخدم لغة

(i) Guido Da Montefeltro (١٢٢٣-١٢٩٨) أعظم وأحكم زعماء الفيلبيين فى فلورنسا، كان يعد الأقدار عسكرياً فى إيطاليا كلها. بعد معارك مريرة مع البابا ومع خصومه طرد من الكنيسة، لكنه توفى فى دير للفرنسيسكان. (المترجم).

خطابية صليبية، فإنه لا يحتضن أهدافها العسكرية أو الجيوسياسية أو الجدالية. فهو إذ يأتي من مصر مجازية إلى القدس يتبين خطاب المسردات الصليبية والحجية ولكنه يستخدمها لينتقد إخفاق الغرب اللاتيني في الصعود إلى مستوى مثله العليا المعلة. إن مسردة الصليبي الحجى يطلق جدالاً ضد الفساد الذى بالفعل يصادر "القدس" المجازية ويهدد الصعود إلى الرؤيا النهائية للسلام.

على خطى قناعاتهم الأدبية والخطابية تعتمد المسردات الحجية والصليبية على معارضة ثنائية. فهم يميزون بين أهل الداخل وأهل الخارج، المسيحيين والآخرين، وكلاهما يشجبان العدو ويندبان الإخفاق المسيحى^(٣). إنهم يتبنون لغة الحج، تون التمييز الحديث بين الرحلة الدينية والحملة الصليبية^(٤). يؤكدون على المشاهد والعجائب التى ترى. ويعتمدون على قراءة أدبية للكتاب المقدس لدعم مزاعمهم النزاعة للقتال للاستيلاء على بلاد وعلى أشياء.

وعلى الرغم من أن الكوميديا تشاطر مسردات الحملات الصليبية والحج، مشيرة إلى الطريقة المختلفة التى يستخدمها دانتي فإن اعتقاداتها تبرز التباين المذهل فى التوجه نحو الشرق فى هذه الأعمال. إن المسردات الصليبية والحجية تصف رحلة هى فى أن واحد رسالة دينية ومطلب يقيم فروقاً صارخة بين أهل الداخل وأهل الخارج. وفى الحالتين فإن فكرة التجديد الروحى هى الدافع إلى الرحلة، والاثنان خبرتان على عتبة الشعور تحركان البيئة الرهبانية للصلاة والتكشف، والغرض الدينى. وفى الأعمال التى كتبت بعد توسع الإسلام، هناك إما مواجهة خطابية ضمنية أو صريحة، أو مواجهة حقيقية مع ذلك الدين والناس الذين يمارسونه. وفى الغالب فإن المسردات الصليبية والحجية تثير، فى نقد ذاتى ضمنى أو صريح، مسألة ما الذى يشكل ارتداداً وماذا يكون مسيحياً، مشيرة إلى الإخفاقات الأخلاقية فى العالم المسيحى وإلى مشروعية حالات الاهتداء إلى المسيحية. وهذا النمط موجود أيضاً فى قصيدة دانتي، التى يدان فيها المسيحيون بصورة أكثر تحديداً^(٥).

تضم المسردات الصليبية التي يرجح أن يكون دانتى قد عرفها التسلسل الزمني للأحداث (Chronicon) الذي كتبه وليام صور (William of Tyre) (المولود ١١٢٠)، في القدس، الذي كان كبير مطارنة صور من عام ١١٧٥ إلى ١١٨٤-١١٨٥: ومستشارا لملك القدس من ١١٧٤) أو صيغتها التي كتبها جاك دي فيتري Jacques de Vitry (المولود نحو ١١٦٠-المتوفى ١٢٤٠)، وهو راهب فرنسي أصبح مطراناً لصور في عام ١٢١٧ وبعد ذلك مطراناً للقدس. وإلى جانب أوصاف الأراضي المقدسة التي ظهرت في الأعمال الموسوعية مثل التاريخ الكنائسي Ecclesiastical History للمبجل بيدي Bede (ب) (نحو ٦٧٢-٧٣٥) الذي تضمن وصفاً مختصراً موضوعياً للأماكن المركزية في حياة المسيح (١٥:٥-١٧)^(٦) أو كتاب فينسان بوفيه التاريخ التأملی، Speculum Historiale الذي يروى تواريخ الحملات الصليبية حتى نحو عام ١٢٤٠، ومن المرجح بدرجة عالية أن دانتى عرف أعمال ريكولو دا مونتيكروشه Rinaldo Da Montecroce والفرانسيسكانى فيدينزيو بادوا Fidenzio of Padua. ولعله قد عرف أيضاً مؤلف ثاديو نابلس Thaddeo of Naples، وكان شاهداً على سقوط صور، وقد كتب Hystoria de Civitatis Aconenensis et Tocius Terre Sancte Desolacione et Conculcacione ،

في صورة رسالة في عام ١٢٩١. وفي هذا العمل يحض ثاديو المسيحيين على أن يهبوا لمساعدة الأراضي المقدسة، حيث شهد مذابح لا توصف، مثل انتحار النساء والعنف ضد الرهابات، حينما سقطت المدينة^(٧). وكان فيدينزيو بادوا عضواً نشطاً في مجلس ليون في عام ١٢٧٤، الذي اختتم بدعوة إلى حملة صليبية أخرى، وهي دعوة أيدها - كارهاً - بونافنتورا نفسه. كذلك فقد شهد فيدينزيو انهيار السلطة المسيحية في الأراضي المقدسة: رأى مدناً مسيحية تسقط ومسيحيين يؤخذون أسرى. ويروى

(ب) Venerable Bede لقب بالمبجل. كان راهباً إنكليزياً، وكان مؤرخاً وباحثاً، كتب أكثر من ثلاثين مؤلفاً في التاريخ وقواعد اللغة ولا يزال يعد مرجعاً للمعلومات التاريخية والأسطورية. (المترجم).

كتابه Liber Recuperationis terre sancte - الذى يصف البلاد بأنها موطن " أمم متباينة" - تاريخ كل الناس الذين يعيشون فى الأراضى المقدسة، من اليهود إلى الآشوريين والرومان والمسيحيين والعرب ثم المسيحيين مرة أخرى. ويتضمن هذا العمل بياناً عن حياة محمد، ويعزو معتقداته إلى نفوذ المذهب النسطورى^(٥)، وينتهى إلى تبرير ونداء إلى المسيحيين بأن يعيدوا الاستيلاء على القدس. وعلى غرار مؤلفى المسردات الصليبية يلوم فيدينزيو الشقاق المسيحى على فقدان الأراضى المقدسة. وهو يدين بشكل خاص المشأجرات بين أهل جنوا والبندقية وبيزا، والزهو والتفرق بين الفرسان الهيكليين^(٥) والهوسبتالييريين^(٥) والتيتونيين^(٥) وبالأخص إهمال البلاط الرومانى^(٨).

ولكن أهم مصدر مظنون لدانتى هو الأب ريكولو دا مونتيكرونتشه^(٩)، وهو مواطن فلورنسى ولد حوالى عام ١٢٤٣ باسم ريكولو بنينو Pennino ودخل النظام الكنسى الدومينيكانى فى عام ١٢٦٧ فى سانتا ماريا نوفيللا، وهى كنيسة وساحة كان دانتى يرتادها كثيراً. وقد حاضر ريكولو مرات متقطعة هناك إلى أن سافر إلى أسيا فى عام ١٢٨٨. وكان فى بغداد حينما سقطت عكا، وعاد من أسيا فى عام ١٣٠١، ووقتها أنتج مؤلفه الرئيسى عن الإسلام. وهو بحث ينم عن فهم متطور للمعتقدات والممارسات الدينية للمسلمين^(١٠). وهو أيضاً مؤلف كتاب Itinerarium

(ت) نسبة إلى نسطور (نسطورس) (٢٨٠-٤٥١) بطريرك القسطنطينية الذى دافع عن العقيدة القائلة بطبيعتين إلهية وإنسانية للمسيح. طرد من المجمع المقدس ورحل إلى فارس ثم إلى الصين وانتهى به المطاف فى مصر. وانتشرت النسطورية فى أنحاء شتى من الشرق، ولا تزال بعض معتقداتها قائمة فى الكنيسة المسيحية الشرقية. (المترجم).

(ث) يطلق عليهم أيضاً الداوية، وهم أيضاً المحامون وطلاب الحقوق (خاصة فى إنكلترا) (المترجم).

(ج) Hospitalirs أعضاء منظمة دينية - عسكرية قامت فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر (المترجم).

(ح) Teuton الجرمان أو الألمان القدامى (المترجم).

وهو بمثابة دليل للصليبيين والحجاج يصف الأماكن المقدسة، وكتاب تنفيذ القرآن (Confutatio Al Corani) وكتاب دعوى ضد الأمم الشرقية (Libellus contra Nationes Orientales) وكتاب دعوى ضد أخطاء اليهود (Libellus contra Errores Judaeorum). وقد درس ريكولفو اللغة العربية وعاش لعدة سنوات في بغداد، حيث بشر (بالمسيحية) ونازع العقائد الدينية مع الباحثين العرب. ولكنه لم يشر بحملة صليبية كحل للخلافات الدينية، إنما بالأحرى فضل الحوار السلمى،^(١١) على النحو الذى يظهر دانتى القديس فرانسيس يمارسه (الفردوس، ١٠٠: ١١-١٠٥). ومن المحتمل بدرجة عالية أن دانتى عرف ريكولفو أو سمع به أو قرأ عن خبراته فى حضور السلطان المزهو [الفردوس، ١٠١: ١١].

فى المسردات الصليبية والحجية، التأكيد هو على الإبصار المادى. وفى الحقيقة فإن الغرض المركزى للأراضى المقدسة والحملات الصليبية هو استعادة الأرض وتأثرها المقدسة حتى يستطيع الحجاج أن يبصروا بأنفسهم أين وقعت الأحداث "المقدسة". إن خرائط الأراضى المقدسة سمة مركزية لهذا التأكيد على الإبصار المادى (مثلاً، خريطة ببيترو فسكونتى فى أوائل القرن الرابع عشر فى Liber Secretorum Fidelium Crucis لمارينو سانوبو^(١٢) أو فيدينزو بافودا Fedenzio of Pavoda فى كتابه Liber Recuperationis Terrae sanctae (الصادر فى عام ١٢٩١)^(١٣). أن من عواقب هذا التأكيد المفرط على الإبصار المادى أن أوصاف الآثار المقدسة والأماكن والعجائب أصبحت سمة مركزية فى المسردات الصليبية. لقد أولى كثير انتباه للأشياء الثمينة (التحف الفنية الذهبية، مثلاً، وكذلك الأجزاء المكسورة من صليب حقيقى أو من رمع حقيقى)، التى يمكن رؤيتها أو حيازتها من مواجهة عسكرية ناجحة مع الثقافة

(خ) Marino Sanudo ولد نحو عام ١٢٦٠. سياسى وجغرافى من البندقية عرف بمحاولاته لإحياء روح الحركة الصليبية وزخمها. وكانت مؤلفاته بضمونها الجغرافى والسياسى بمثابة دليل للصليبيين فى محاولاتهم لاستعادة الأراضى المقدسة. (المترجم).

الإسلامية. وهكذا، شأن الأساطير ذات الوظائف الأتيولوجية (أى المتعلقة بتشخيص أسباب الأمراض)، فإن هذه المسردات تضع قائمة موجودات محددة من أحداث وقعت فى تاريخ مقدس وتدعم ادعاء بامتلاك أماكن معينة. إنها إنما تستخدم المقاربة الأدبية إلى التأويلات التوراتية لدعم دعاياتها.

الحملة الصليبية ورحلات الحج

كانت الصلة بين الحملات الصليبية والحج ضعفية منذ زمن إعلان قسطنطين المطالبة باسترجاع الأراضي المقدسة، لأن الأمن العسكرى للمنطقة كان جوهرياً للحفاظ على ممارسة شعائر تبجيل "الأماكن المقدسة"^(١٣). إن رسائل القديس جيروم حول قيمة مشاهدة الأماكن التى وقعت فيها الأحداث المقدسة قد أرست عادة الحج التى كانت قد بدأتها بالفعل أم قسطنطين فى القرن السابق^(١٤). وقد أكد جيروم قيمة "الإبصار" بمعنى الخبرة المادية كسمة مركزية للـ "رؤية"، كنتيجة لتأمل الأمر الذى من شأن إبصار الأماكن أن يشجع عليه^(١٥). إن "الفضاء المقدس" وخطابيات الأرضى المقدسة التى كان القديس قسطنطين يستخدمها خلال القرن الرابع، حينما أصبحت الإمبراطورية الرومانية "الإمبراطورية الرومانية المسيحية"^(١٦)، قد عادت تطفو على السطح إثر الحملات الصليبية، حينما أصبح العالم المسيحى اللاتينى حجة يجرى التجمع حولها للتغلب على النزعة الانقسامية فى المسيحية الأوروبية.

يهيمن التداخل بين أنسجة وظائف الدين والدولة على الخطابيات الصليبية: فقد استخدمت الكلمات *Expeditio* و *peregrinatio* كمترادفات. وتعنى كلمتا *Iter* و *Expeditio* "رحلة نحو غاية محددة"، ولكن *peregrinus* كلمة ذات تاريخ أكثر تعقيداً. فقد استخدمت بمعنى "غريب" أو "لا مواطن" أو "تائه" ممزوجة مع "الرحالة الدينى"، وهى استعارة يهودية - مسيحية نقدية؛ تستخدم فى النصوص المقدسة العبرية، وفى

العهد الجديد، واستخدمها الكتاب المسيحيون الأوائل. وهي مستخدمة في العهد القديم اللاتيني بمعنى "غريب" أو "أجنبي" أو "مسافر"، أى بمعنى شخص يأتى من مكان آخر، فى تضاد مع معنى "مواطن". وفى العهد الجديد فإنها تعنى أيضاً "غريب" أو "تائه"، ولكن دلالة أعمق تلونها، لأن لها معنى الرحالة الدينى^(١٧) وثمة معنى ثالث، طوره أوغسطين هو "الغريب المسيحي"، موحياً بفكرة المنفى الإنسانى والتغرب بعد "عدن"، حيث أعضاء "مدينة الرب" يؤدون حجهم بين الأتقياء^(١٨). وتتداخل هاتان الدالتان، إذ يصبح المجاز تدريجياً الوسيلة لوصف حالة الاغتراب المسيحى فى رحلة حياته أو حياتها، من المنفى الرمزي إلى القدس الرمزية. وقد أصبح الحج بطريق البر (وبعد ذلك الحملة الصليبية) المجاز المرسل Synecdoche لرحلة الحياة هذه، فيما انصهر تقليد الحج فى النهاية مع تقليد الحملة الصليبية^(١٩). وهكذا - مثلاً - فى تسلسل الأحداث Chronicon فى هذا الجانب الذى يمثل تماماً مسردات حملة صليبية أخرى، يدعو وليم صور الحملة الصليبية الأولى حجاً، ويشير طوال الوقت إلى الصليبيين على أنهم حجاج. إن غاية الحج هى الاستيلاء على القدس. وفى حين أن القدس هى عند القديس جيروم والقديس أوغسطين هى المدينة العلوية، المجازية، والرحلة إليها هى رحلة الحياة، فإنه بحلول القرن الثانى عشر، فى النصوص الصليبية الجدالية، القدس هى غاية الحاج وقد تحول إلى صليبي. بحلول القرن الثانى عشر أصبحت كلمة perigrinus تشير إلى الصليبي والحاج^(٢٠).

فى سماء المريخ يقدم دانتي مفتاحاً إلى قراءته الخاصة للمسردات الصليبية والتاريخ الصليبي. على وجه التحديد، فى الفريوس، الأنشودات من ١٥ إلى ١٨، حينما يذكر الشهداء المصاحبين ككاشياغويدا^(٢١) Cacciaguida يتعرف على جوشوا وجوداس

(د) جد أعظم لجد دانتي . لا تعرف شيئاً عن حياته سوى ما يذكر دانتي أنه سمعه فى سماء المريخ، وكان قد تبع الإمبراطور كونراد الثالث إلى الحملة الصليبية الثانية ونصب هذا فارساً. وقتل فى معركة ضد المسلمين فى نحو عام ١١٤٧ (المترجم).

ماكيبوس، شارلمان ورولان، وليام ورينفوار Renoart، وغودفري بويون وروبير جيسكار. الثنائي الأول توراتي، والثاني مشهور في أغنية رولان⁽³⁾ Chanson de Roland، والثالث في دائرة وليام أورانج، الصيغة الأشهر بينها هي أليسان Aliscan، وهي ملحمة فرنسية، مثلها مثل أغنية رولان تدور في أوروبا. ومن الواضح أن دانتي على معرفة بهذه المسردات حيث أنه يأخذ منها بعض الشخصيات. وهي تشارك في الخطابية الدينية والسياسية والجو القتالي للأدب الصليبي الآخر. إن حياة جيفري بويون Godfrey of Bouillon أول ملك مسيحي للقدس، محكية في كافة تسلسلات أحداث الحرب الصليبية الأولى، بما في ذلك تسلسل الأحداث الذي كتبه وليام الصوري وفي Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum مصدر كل مروى عن الحملة الصليبية الأولى. وحيث إن كاشياغويدا يذكر كونراد الثالث فإن من الممكن أيضاً أن يكون دانتي قد تعرف على كتاب أودو دو بويل Profectione Ludovici VII in Orientem أفضل بيان معاصر عن الحملة الصليبية الثانية الكارثية. ويدخل في كتاب Cronica⁽⁴⁾ لجيوفاني فيلاني Giovanni Villani (المتوفى عام ١٣٤٨) تاريخ روبرت جيسكار، وهو نورماندي من القرن الحادي عشر اشتهر بسبب حملته في جنوب إيطاليا وصقلية حيث تغلب على الانقشامية في المنطقة وأقام منطقة موحدة وإن تكن متنوعة عرقياً (يونانيون، وعرب ولومبارديون ونورمانديون وما إلى ذلك). وحفاظاً على التعريف المعاصر للحملة الصليبية فإن اختيار دانتي المحدد للشهداء الصليبيين في الفردوس لا يقتصر على أولئك الذين كانوا نشطين في الأراضي المقدسة. وفي هذه المجموعة أيضاً فإنه يضم الأشخاص الذين ارتبطوا بإضفاء السلام على البلاد المسيحية في الغرب اللاتيني.

(3) رولان (أو أورلاندو) أشهر أنصار شارلمان في روايات العصور الوسطى. وأغنية رولان أغنية فرنسية يُعتقد أنها كتبت في منتصف القرن الحادي عشر في مقاطعة بريتانى، وكانت تتألف من ٤٠٠٢ بيتاً وهي تتحدث عن المعارك التي خاضها حين غزا رولان إسبانيا ثم انتصار شارلمان في سرفوسة حيث كان رولان قد هُزم على يد المسلمين، (المترجم).

ولأنه كان معروفاً - فى كل قلعة وفى كل مدينة كبيرة فى أوروبا - فإن مصدراً محتملاً لدانتى عن تاريخ الحروب الصليبية كان تسلسل الأحداث^(٢٣) الذى كتبه وليام) لقد كان ماثيو باريس (١٢٠٠ - ١٢٥٩) قد نقله (فى كتابه التاريخ الصغير Historia Minor، ١٢٣١ الأمر الذى يشير فى ملحوظة على الهامش إلى أن المؤلف كان يحوز نسخة من مؤلف وليام، وكذلك نقله جاك دوفيتري، الذى استخدم كتاباً مفقوداً بعنوان Gesta Orientalem Principium بالمثل^(٢٤) . أما مؤلف وليام فقد وجد طريقه إلى العامة وعلى الأقل فإن واحدة وسبعين مخطوطة من ترجمة فرنسية للتاريخ لا تزال باقية^(٢٥) . كذلك فقد أعيدت ترجمة صيغة فرنسية إلى اللاتينية على يد الدومنيكانى فرانسيسكوس بيبينوس Fransiscos Pipinus من بولونيا فى القرن الرابع عشر. ويكون دانتى يقدم صلاح الدين كقائد نموذجى وجيفرى بوييون كرجل يتسم بشجاعة وإخلاص دينيين، تماماً مثلما فى صيغ وليام، لدليل قوى على أنه عرف مؤلف وليام^(٢٥). ومثله مثل وليام لا "يمشرق" الشرق التجربى (الإمبريقي) باعتباره موقع الحيوانات والنباتات الغريبة والأحجار الكريمة. أما جاك دوفيتري على النقيض من ذلك - وهو الذى كتب تاريخاً موجزاً للقدس (Historia Hierosolimitana Abbreviata، حوالى ١٢٢١) أدمجه فى تاريخ فرنسى للشرق (Historia orientalis) وتاريخ للغرب (Historia Occidentalis) - فإنه يزودنا بالخلفية الأبرى عن الحملات الصليبية. يبدأ جاك دوفيتري بمحمد وديانته؛ ويحكى الحملات الصليبية من الأولى إلى الثالثة؛ ويصف البلاد والناس والحيوانات والزهور فى شرق البحر الأبيض المتوسط؛ ويضم مادة غرائبية. بعد وصف للناس يتحول تاريخ الشرق نحو فساد رجال الدين الغربيين وإخفاقهم فى العيش وفقاً لقواعدهم، وهى عادة يعزوها جاك دوفيتري إلى رخاء بلاد الشرق. وفى الختام يصف "عجائب" الأشياء الطبيعية المحيطة فى الأراضى المقدسة وما وراها، حاكياً عن التنانين ووحيدى القرن والحيات والأحجار الكريمة والكائنات الخنثوية. كذلك يستخدم مؤلفات فوشيه شارتر Foucher of Chartres وإيزيدور وبصورة أساسية نسخاً من أوصاف وليام للأراضى المقدسة وتاريخها. وقد استخدم تاريخ الشرق كل

من ماثيو بارس ومارينو سانونو وبيترو دى بيننا، وهكذا أصبحت هذه المادة منتشرة على نطاق واسع فى عدد من المصادر^(٢٦).

تتشرك أوصاف مواقع الأراضي المقدسة فى مسردات الصليبيين والحج فى كثير من السمات. وبسبب الاهتمام بالمواقع الفعلية حيث يقال إن أحداث الكتاب المقدس قد وقعت، فإن المستوى الأدبى للتوراة والصدق التاريخى فى هذه الأعمال يأخذ أسبقية على التفسيرات الرمزية. وكما لاحظنا من قبل فإن بها تأكيداً مفرطاً على الإبصار، وهو ما بدا فى الحقبة البطريركية للكنيسة. وعلى سبيل المثال يكتب القديس جيروم " أن ذلك الذى رأى يهودا Judaea بأى عينيه سيحملك بوضوح أكثر فى الكتاب المقدس"^(٢٧).

كذلك فإن لهذه المسردات وظيفة خطابية لأنها تقوم بدور مسردات دعائية للملكية المسيحية للبلاد، وفى أحسن الأحوال تذكر معلومات دقيقة عن الإسلام، لكنها مع ذلك تفقد مشروعيتها. لكن هذه السمة تدخل فى تضاد متوتر مع وظيفتها المتعلقة بإيضاح التفاوت بين الأهداف الدينية المعترف بها للحملات الصليبية - الحج والسلوك الفعلى للصليبيين. وفى الحقيقة كان كثير من مسردات الحج الوسيطية يحكى سلباً تعارضاً بين المسيحيين الذين يسعون لامتلاك البلاد وما يسمى العدو.

إن تسلسل الأحداث الذى كتبه وليام - وهو أكثر أعمال تلك الفترة تطوراً- يصف سمات معينة للمسردات الصليبية. يبدأ وليام تاريخه بإعلان أن محمداً (الابن البكر للشیطان) قد غوى بلاد العرب^(٢٨). وعند وليام أن الحملة الصليبية الأولى كانت حجاً، بداه البابا أوربان بدعوته الدينية (التي يضمناها فى كتابه). وهو يصف الخصائص المميزة للمشاركين فيها بأنهم قد انخرطوا فى تجربة تأملية مشتركة، انفصل فيها أزواج عن زوجاتهم وأبنائهم وأبنائهم، ولم تكن أى رابطة عاطفية تقوم دليلاً ضد هذا الحماس. ويكتب وليام عن خطبة أوربان " هذا الحماس المشبوب بالعاطفة للحج، لم يؤثر فقط فى أولئك الذين أنصتوا إلى كلماته الفعلية... إنما ألهم حتى أولئك الذين لم

يكونوا حاضرين برغبة حارقة فى القيام بالرحلة ذاتها^(٢٩) . ويحكى الاستيلاء المبين مجدداً على القدس من قبل المسيحيين، ثم فقدانها لقوات صلاح الدين فى أعقاب ذلك فى عام ١١٨٧، فيصف الأماكن التى وقعت فيها الأحداث المقدسة. وهكذا فإنه يطلق زعمًا بشأن هذه الأرض عن طريق تأويل للكتاب المقدس. وعلى الرغم من أنه جرياً على تقليد لأوغسطين يتجاهل قصص الوحوش والعجائب، فإنه يؤكد أن النزوع للذى لدى المسيحيين كان مسؤولاً عن الإخفاق فى الأراضي المقدسة.

كذلك فإن أغنية رولان وأليسان - وهما عملان يستمد دانتى منهما مباشرة بعض الشخصيات - يستخدمان أيضاً الاعتراضات الخطابية والثنائية للمسردات الصليبية. وفى كلتا الملحمتين، القتال ضد السراسنة^(د) هو محور الانتباه وهدف الأبطال هو "استعادة" الأرض. والمسلمون الخيرون الوحيدون هم الذين تحولوا إلى مسيحيين - على سبيل المثال براميموندى Bramimundi فى أغنية رولان ورينووار فى أليسان. مع ذلك فإن أغنية رولان تنتقد الجانب المسيحى أيضاً (مؤامرة غانيلون الناجحة لتدمير النبلاء الاثنى عشر تقضى إلى ضعف الفرنسيين فى مواجهة العدو)، وهى تشير إلى العملية القانونية وليس إلى المواجهة القتالية باعتبارها الحل الأفضل للصراع بين المسيحيين^(٣٠) . مع ذلك، تصف القصيدة العنف باعتباره الآلية الرئيسية لبناء الدولة الفرنسية البازغة^(٣١).

إن أغنية رولان فى جوهرها ملحمة شبه شفهية تحتفى بتدخل الرب لصالح القوات الكارولنغية بعد هزيمة النبلاء الاثنى عشر. وشأنها شأن المسردات الصليبية تستخدم المستوى الأدبى للتوراة لدعم مزاعمها عن التدخل الإلهى. إنها إذ تستدعى

(ر) Saracens أى المسلمون . وقبل ظهور الإسلام كان هذا المصطلح يستخدم من قبل شعوب الشرق الأوسط غير العربية للإشارة إلى العرب، ويعدده أصبح مرادفاً للمسلمين. وأصل المصطلح لا يزال غير معروف للمؤرخين واللغويين. (المترجم).

فعل الرب في انتصار يهوشع^(٣٢) تفترض صوابية قضيتها الخاصة^(٣٣) *Pein unt tort e chrestiens unt dreit*، حتى وهي تبالغ في إخفاقات المسلمين، الذين تصفهم بأنهم عبدة أصنام جبنا ومخادعون. ومثل هذا الربط بين المسلمين وعبادة الأصنام

"Mawnets" (اسم محرف مشتق من اسم محمد، يشير إلى الأصنام بوجه عام) كان واسع الانتشار كما يشير مايكل كاميل Camille، وعلى الرغم من أن المسلمين، تماماً كما اليهود، متشددون بشأن التحريم الإلهي ضد الصورة المحفورة^(٣٤)، وتؤيد الآثار المقدسة قضية شارلمان، في حين أن الأصنام المسلمة المخترعة تظهر عديمة الحيلة^(٣٥).

وفي أليسان ، فإن رينووار، وهو أسير عربي païen اشتراه الملك من التجار، يحول حملته الصليبية ضد العرب في فرنسا إلى حج يفضى إلى تحوله في النهاية، إذ يتبرأ من أخيه وأمه وشعبه والدين الذي ولد عليه. وفي صراع مع أخيه يُطلب من رينووار أن يعود إلى دين آبائه وعبادة "لوسيابيل" ومحمد^(٣٦) - في تأكيد من جديد للرابطة بين الإسلام والوثنية- ولكنه يرفض. ويظهر المسيحيون الذين يسخرون من رينووار باعتبارهم صغاراً انقساميين وقساة. وإذا يردد رينووار ترتيلاً عن تدخل إلهي في الشؤون البشرية، من آدم إلى آسانسيون Ascension، ويتوسل رينووار من أجل مساعدة مماثلة في معركته ضد أئباع "ماهون"^(٣٧). وبحلول نهاية المحمة، وفي قصة استيعاب ثقافي ناجح تعادل قصة وليام، هزم رينووار القوات العربية وارتد إلى المسيحية، ليصبح وكيلاً إقطاعياً لوليام ويتزوج أليس ابنة الملك.

هذه المسردات والملاحم الصليبية الفرنسية - التي استمدت معلوماتها من مقاربة أدبية للتفسير التوراتي المستخدم لدعم طموحات جيوسياسية - تبرهن على بزوغ نزعة قومية فرنسية، ثقافية وسياسية، إلى جانب خواف من الأجنى. وأهم من هذا بالنسبة لدانتى، في أفراد المسلمين المرتدين إلى المسيحية كشخصيات نموذجية على النقيض

من المسيحيين الفاشلين، فإن أغنيات المآثر تركّز الجدل الصليبي على الغرب اللاتيني، حيث يكشف عن المسيحيين الرسميين باعتبارهم انقساميين ومخادعين أما المرتدون عن الإسلام إلى المسيحية فهم أبطال.

الكوميديا والخطابية الصليبية

يفعل دانتي أكثر من هذا لكي يربط قصيدته بالمسردات الصليبية - الحجية. إنه يشاطرهم أيضاً أهدافهم ويتبنى لغتهم^(٣٨). يستخدم كلمة Pellegrino - حاج^(٣٩) - تسع مرات، وهو عدد له دلالاته، ست مرات في المطهر (المطهر، ٦١:٢-٦٣، ٨:٤، ٩:١٧-١٦، ١٣:٩٤-٩٦، ٢٣:١٦، ٢٧:١١٠) وثلاث مرات في الفردوس - بعبارات متنوعة - وهو، مع ذلك، يعزف عن الاهتمام بالأهداف المكانية - العسكرية - الجغرافية للحجاج الصليبيين التقليديين. والتسعة - بطبيعة الحال - هي رقم بياتريس: "كانت تسعة، أي كانت معجزة، جذرها - يعنى - معجزة، هي الثالوث الإعجازى وحده" [الحياة الجديدة: Vita Nuova 9- (٣٠): ٤] ويضعنا دانتي - باستخدام هذا العدد - في حالة تأهب إزاء معنى خاص كامن. ففي الكوميديا يستخدم دانتي غالباً التسعة كمضاعف للثلاثة (الثالوث) ليعنى الإعجازى بوجه عام^(٤٠). والإشارات الست إلى الحج في المطهر مقابل الإشارات الثلاث في الفردوس تقدم توازياً عددياً، كما لو أن الست الأولى هي "حجّات" والثلاث في الفردوس تجعل عددها كاملاً.

ويذكرنا استعمال دانتي الشائع غالباً للفظه حاج- كتشبيه أو كمجاز- بتجارب الحجاج الدينية؛ إذ يمثل هذا الاستعمال محاولة لتكوين تجربة الرحلة الخلاصية للحاج دانتي وفيرجيل والأرواح في المطهر. يجعل دانتي من رحلة العالم الآخر عبر "المطهر" بديلاً عن الحجّات التقليدية، وهي عودة ذات دلالة إلى الفكرة التوراتية عن البشر كغرباء في العالم. ويشير فيرجيل إلى دانتي وإلى نفسه - مثل أولئك الذين يقابلهم في المطهر - على أنهما حاجان، ولكنه أيضاً يعرف الحاج في هذا السياق: شخص يسافر

ولكنه ليس خبيراً بالرحلة. يقول أحد التأبين - مساوياً الحج والعيش ذاته - : أه يا أخي، كل واحد هنا مواطن لمدينة حقيقية: ولكنك تعنى واحداً عاش في إيطاليا مقيماً مؤقتاً حاجاً [المطهر، ١٣:٩٤-٩٦] هذا - ولا يكاد يكون من الضروري أن نشير - لاهوت أوغسطيني تقليدي^(٤١)، ولكن استخدام دانتي يتخذ دلالة إضافية حينما يوضع في سياق الكتابات الصليبية - الحجية لتلك الفترة. إذ يطبق دانتي - إلى جانب استيعابه الفكرة الأوغسطينية عن الخبرة الإنسانية باعتبارها حجاً - لغة الحاج والمسردات الصليبية على رحلته الخاصة إلى العالم الآخر.

ترد كلمة حاج على وجه التحديد ثلاث مرات في الفردوس، ولكل مناسبة وظيفة فريدة. يصف ظهورها للمرة الأولى الأسلوب المجازي في القصيدة الغنائية الثالثة^(٤٢):

”وكما ينعكس حتى شعاع ثان من شعاع أول، ويتصاعد لأعلى
مجدداً، مثل حاج يتوق إلى طريق العودة لموطنه، هكذا انعكس
فعلي من فعلها الذي تغفل خلال عيني إلى مخيلتي، وثبت عيني
على الشمس لأكثر من احتمالهما“.

[الفردوس، ٤٩:١-٥٤]

وعبارة ”لأكثر من احتمالهما“ هي مفتاح هذا التشبيه، لأن الظروف الخاصة تجعل من الممكن لدانتي أن ينظر مباشرة إلى الشمس. وهذا الفعل أشبه بحاج يعود إلى موطنه. وهنا فإن لفظة *pelegrin* تعنى بالتأكيد الحاج الذي يريد العودة إلى الرب. وفي ظهورها الثاني تشير إلى روميرو *Romero* ”الضارب في الأرض والحاج، الذي من أجله فعل ذلك“. [الفردوس، ١٣٤:٦-١٣٥]، والذي كخادم للقوى سعى إلى حل الصراعات الأوروبية بين النبلاء عن طريق عقد زيجات سياسية. إن حياته العملية - التي يشير دانتي إليها بوصفه بأنه حاج - توازى حياة دانتي نفسه: كلاهما كانا خادمين مخلصين لقيام معاملة قاسية في مقابل جهودهما. وفي الإشارة الأخيرة - قرب نهاية الصعود - يشير إلى نفسه بأنه تماماً مثل حاج:

ومثل حاج ينتعش وهو يتأمل هيكل نذره، على أمل أن يبلغ

ذات يوم عن الحال التي كان عليها،

وهكذا كنت أرنو بعيني عبر الضوء الحي

على طول الطبقات، مرة لأعلى ومرة لأسفل

ومرة أدور بينهما.

[الفردوس، ٤٢:٣١-٤٨]

وعلى الرغم من أن دانتى يتطلع إلى رحلته عبر العالم الآخر باعتبارها حجاً، فإنه لا ينكر قوة تأثير رحلة التفكير إلى الأماكن المقدسة. مع ذلك فإنه يستبدل الخبرة المادية للرؤية، المقاربة الأدبية للنصوص التوراتية والأماكن التي ترتبط بها، بخبرة بديلة ورؤيا بديلة، على نحو ما يفعل أوغسطين والفكتوريين وبوناغنتورا. إن رحلة دانتى الرؤيوية تجمع النزعة الأدبية، وفي تقاليد بوناغنتورا في كتابه *Itinerarium Mentis in Deum*، الذي يصف رحلة داخلنا وفوقنا، يستعويض عن رحلة مجازية بالحج الأدبي^(٤٣). إن "العلاج المكاني" الذي يقدمه هو بالفعل علاج مكاني- رحلة خارج الفضاء الجغرافي إلى فضاء المخيلة الرؤيوية، التي لها مزاعمها الخاصة في الواقع. وفي الحقيقة فإن قصيدة دانتى ربما تطرح أقوى حجة على الإطلاق لصالح قيمة الرحلة الأدبية، لأن قصيدته، باعتبارها فضاء النص، تصبح تجربة تويته الشخصية ورحلته إلى رؤيا السلام، بينما تقدم الفرصة ذاتها لقرائه^(٤٤).

وعلى غرار *pelligrino* فإن لفظة *milizia* الجيش تعبير آخر يستعمله دانتى من النصوص الصليبية. إنه يستعملها تسع مرات في الفردوس ومرة في المطهر حينما

يشير إلى موكب ممثلى التاريخ العالمى اليهودى المسيحى، "الجيش الرائع" [الفردوس، ١٧:٣٢] باعتباره "جند المملكة العلوية" [الفردوس، ٢٢:٣٢]

وتمشيًا مع التخيل البطرسي، حيث لفظة militia ("الخدمة العسكرية") لذهب التعميد ولوصف الحياة المسيحية، يستعمل دانتي militia مجازًا للحياة ذاتها باعتبارها حملة صليبية "قبل أن تترك زمنا في الحرب" [الفردوس، ١١٧:٥] إن أولئك الذين يعيشون بنجاح حياة مسيحية ومن ثم يأتون إلى السماء هم أيضًا "الجند الذين اتبعوا خطى بطرس" [الفردوس ٩:١٤١]؛ "حينما يكون الإمبراطور الذى يحكم أبدًا قد تفكر فى جنده [الفردوس، ١٢:٤٠-٤١]؛ "يا جند السماء" [الفردوس، ١٨:١٢٤]؛ "جيش الفردوس" [الفردوس، ٣٠:٤٣-٤٤]؛ و"الجيش المقدس" [الفردوس، ٣١:٢١]. واستخدام دانتي مصطلح الجيش للدلالة على المختارين الذين حاربوا فى حياة من أجل الحقيقة المسيحية لا يشير إلى حرب يدعمها المسيحيون وفقًا للتقليد الصليبي القسطنطيني- الكاروليني. الأخرى أنه يشير إلى أولئك الذين كرسوا حياتهم تمامًا للحياة المسيحية، حتى الوصول إلى الموت - "الجند الذين اتبعوا خطى بطرس" - وهو يتضمن الصراع ضد الهرطقة. إن فولكو وسان دومينيك - وهما عضوان فى جيش دانتي، كلاهما حارباً ضد الهرطقة. وهو يشير إلى سان دومينيك وسان فرانسيس باعتبارهما "بطلين" - أختارهما الإمبراطور الأبدى لتجميع الجيش للتشجيع "جيش المسيح" [الفردوس، ٤١:١٢-٣٧] لى يرفعوا الصليب لأعلى ويتبعوا المسيح [الفردوس، ١٠٦:١٤]. يخصص دانتي لغة صليبية، ولكنه يطبقها على رحلة الحياة أو معركتها ضد أعداء المسيح ويحول الطابور السماوى إلى جيش مسيحى.

الإسلام فى الكوميديا

بالفعل ربما لأن الإسلام نما وازدهر داخل الحدود الجغرافية للعالم الرومانى - المسيحى السابق، يعتبره دانتي - تمشيًا مع المسيحية الوسيطية الأصلانية

(الأورثوذكسية) - انشقاقا [الجحيم، ٢٨:٢٥] عن المسيحية. لكن هذا الاعتقاد لا يفضى به إلى تبني حملة صليبية عسكرية. وعلى الرغم من أنه يشاطر وجهات النظر التقليدية في الإسلام مع غيره من الشخصيات المثقفة في تلك الفترة، إلا أنه يرفض الحجج الصليبية المثارة في الدوائر الكنسية والسياسية الوسيطة الفرنسية. وسأذهب من جانبي إلى أن المواقف الوسيطة تجاه الإسلام قد تراوحت كثيراً: من هجمات لازعة ضد مؤسسه وأتباعه نجدها في كتاب جاك دوفيتري تاريخ الشرق Historia Orientalis، إلى الموضوعية غير الحقيقية عند توما الأكويني. وتظهر بصورة جلية المقاربات "الواسعة المعلومات والمثقفة" عن محمد في هذه الملاحظات لتوما الأكويني في الموجز ضد غير اليهود Summa contra Gentiles:

"محمد... ضلل الناس بوعود بمتعة جسدية تدفعنا نحوها شهوة الجسد. كذلك فقد احتوت تعاليمه تصورات كانت مطابقة لوعوده، فأعطى سيطرة كاملة للمتعة الجسدية. في هذا كله - وهو أمر ليس من غير المتوقع - كان يطيع رجال شهوانيون. أما عن أدلته تأييداً لمذهبه، فإنه لم يضع أمامنا إلا ما يمكن أن يفهم فحسب بواسطة القدرة الطبيعية لأي شخص يتمتع بأكثر درجات الحكمة تواضعاً. وفي الحقيقة فإن الحقائق التي علمها قد مزجها مع أساطير كثيرة ومع مذاهب على قدر كبير من الزيف. لم يقدم أية علامات أنتجت بطريقة خارقة للطبيعة، وهي وحدها التي تعطى بصورة مناسبة شهادة على وحي إلهي؛ ذلك أن فعلاً مرئياً يمكن أن يكون إلهياً فحسب يكشف عن معلّم للحقيقة ذي إلهام غير مرئي. وعلى النقيض فإن محمداً قال أنه بعث بقوة أسلحته - وهما

علامتان لا يفتقر إليهما حتى اللصوص والطفاة. أكثر من هذا فإن رجالاً يتسمون بالحكمة، رجالاً مدربين على أمور إلهية وإنسانية لم يؤمنوا به منذ البداية. أولئك الذين آمنوا به كانوا رجالاً قساة ومن التائهين في الصحراء، يجهلون تماماً كل تعاليم إلهية، ويفعل أعدادهم أجبر محمد آخرين على أن يصبحوا أتباعاً له بعنف أسلحته". (٤٥)

وهكذا، وكما تدل ملاحظات توما، مثل محمد ودينه الذي تطور من حياته العملية تحدياً للمثل العليا والمعتقدات الأصلانية المسيحية. أولاً كان الوضع المميز للعزوية في التقليد المسيحي، الذي تخلى عنه محمد. ثانياً، وحسب ما يقول توما، لم ترتبط أية معجزات بحياة محمد العملية على النقيض من حياة يسوع. مع ذلك فإن مفكرين مسيحيين كثيرين نظروا إلى الإسلام على أنه ظل للمسيحية. كلاهما تشكل في الموطن الجغرافي ذاته، مع الجذور الهيلينية - العبرانية. كلاهما ديانتان موحدتان مبنيتان على النصوص؛ احتلا في الأصل المناطق ذاتها أو المتاخمة لها. وكلاهما إنجيليتان تبشيريتان. (٤٦) غير أن الإسلام مثل تحديين حاسمين لصيغة المسيحية اللاتينية التي يسيطر عليها الكنسيون: ألوهية المسيح والعزوية كمثّل أعلى (٤٧). هذه الاختلافات، بالإضافة إلى الزعم بأنه "استخدام في فرض الدخول في العقيدة" وربط الإسلام بما يشير إليه توما بطريقة الذم على أنهم "التائهون في الصحراء" قد أصبحت أساساً بحثياً لتحديد الخطوط الفاصلة بين أهل الداخل المتحضرين (المسيحيين) وأهل الخارج القساة (السراسنة أو المسلمين).

وعلى الرغم من هذه الشواغل اللاهوتية والسياسية بشأن الإسلام ، فإن تأثير الثقافة العربية على التطور الغربى - وإن كان قد تم تجاهله غالباً - كان مذهباً. ففي الحقيقة كانت التعاليم والثقافة الإسلامية واسعة الانتشار بين المثقفين المسيحيين الوسيطيين إلى حد أن باحثين كثيرين أقاموا الحجج المقنعة على نفوذ الفلسفة والأدب الإسلاميين على الكوميديا. وتبقى هناك - فى الواقع - قناعة ملحة بأن دانتي قد عرف كتاب المعراج وتأثر به، وهو الكتاب الذى يحكى رحلة محمد إلى العالم الآخر^(٤٨). وكتاب المعراج مؤلف عربى ترجم إلى اللغة القشتالية فى بلاط ألفونسو العاشر (الحكيم) وأعيدت ترجمته إلى اللاتينية من قبل بوناغنتورا سينا، وهو صديق لبرونيتو لاتيني، ثم إلى الفرنسية فى وقت مبكر يرجع إلى عام ١٢٦٤^(٤٩). وله خطوط متوازية كثيرة مع الكوميديا. كلاهما كتباً بالعامية - ومن هنا شعبيتهما - وكلاهما عملان أدبيان - دينيان حول رؤى الآخرة. وكتاب المعراج مسردة عن رحلة على لسان المتكلم تصف مباحج السماء وعقوبات جهنم. وفيه لمحمد مرشد هو الملك جبريل. وتؤكد الرواية على عجائب الجنة، بما فى ذلك أحجار الزمرد واللؤلؤ والذهب والفضة. بالإضافة إلى هذا فإن أوجه تماثل أخروية كثيرة يمكن ملاحظتها بين المؤلفين، بما فى ذلك المعالجة الرمزية للضوء والنبوءات من العالم الآخر، ومراتب الجنة وجهنم^(٥٠) - وهى سمات يشاطرانها مع الرؤى التوراتية مثل "سفر دانيال"^(٥١) وسفر الرؤيا ليوحنا^(٥٢). لكن ، هنا تنتهى خطوط التوازي، لأن عمل دانتي عمل شعري، مغموس فى شعر روماني قديم وفى لاهوت آباء الكنيسة ولاهوت العصور الوسطى. وعلى النقيض منه فإن كتاب المعراج عمل نثرى يفتقر إلى أداة لاهوتية - أدبية موسعة.

(ز) سفر دانيال، السفر السابع والعشرون من العهد القديم، ويعود بتاريخه إلى القرن السادس ق.م. كما يتضمن أحداثاً كثيرة عاصرها النبي دانيال ومجموعة من النبوءات عن المستقبل، تتعلق بالإمبراطوريات التى "لا بد أن تقوم" فى القرون التالية. وتنبأ أيضاً بمجىء المسيح المخلص. (المترجم).

(س) سفر "الرؤيا" ليوحنا يعود إلى القرن الأول الميلادى. (المترجم).

ولقد أمكن لدانتى - ليحصل على معلومات صحيحة عن الإسلام من مصدر آخر غير توما الأكوينى - أن يتجه إلى وليام صور وريكولدو دا مونتيكروتشه بشأن التاريخ، وإلى فينسان بوفيه وبرونيتو لاتينى كمرجعين جاهزين. واستطاع أن يستشير - كخبير - بيتر المبجل Peter the Venerable الذى درس الإسلام ونصوصه ونبيه وكلف بسلسلة ترجمات لبعض المؤلفات إلى العربية. وقد أفضت به دراساته إلى استنتاج بأن الإسلام كان هرطقة مسيحية نمت بينما كانت الإمبراطورية الرومانية تنحدر، واستطاع، كحركة سياسية - دينية - أن يحتل بالسلح معظم أسيا، وكل أفريقيا وجزءاً من إسبانيا^(٥١). وعلى الرغم من أن بيتر لم يدعم على وجه التحديد حملة مسلحة ضد الإسلام، مفضلاً الحوار والتبشير على المواجهة العسكرية، فإنه ليس ثمة دليل على أنه عارض بنشاط الحملات الصليبية^(٥٢).

وشأن بيتر المبجل، وربما كمصدر أولى له، فإن فينسان بوفيه كان أقل معرفة بتاريخ محمد وتربيته ويتطور الإسلام والوضع السياسى فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما تبين مناقشاته لزعة استقرار "الطائفة" (فى الفصل بعنوان "De Instas bilitate Sectorum Eius" يشير إلى مؤلف بيتر عن الإسلام وترجمته للقرآن - Alchora-nus)^(٥٣)، الذى يستنتج أنه لم يكن نبوءة موحى بها. إنه يتفحص حياة محمد العملية وتربيته ليبرهن على أن القائد المسلم وقع تحت نفوذ التسلطة المسيحيين، ويترج قائمة بتفصيلات قسوة محمد وشراسته، ويصف ما يعرفه بأنه عدم استقرار الإسلام كحركة^(٥٤). وينتهى إلى أن هذا كله يبرهن على أن "محمدًا ليس نبياً"^(٥٥).

أما برونيتو لاتينى - شأنه شأن فينسان بوفيه - فأتجه إلى التاريخ المسيحى المبكر لمنطقة شرق البحر المتوسط، مهد نمو الإسلام. وعن محمد يقول برونيتو أنه كان ناسكاً وقع فى خطأ، الأمر الذى يماثل التفسير المسيحى النسطورى الذى قال به فينسان^(٥٦). غير أن مواقف برونيتو الأقل قسوة تتعارض بصورة ملحوظة مع تلك التى نجدها فى كتاب ألكسندر دى بون Alexandre du Pont الصادر عام ١٢٥٨ رواية

محمد Le Roman de Mohamet ، التي تعرّف محمداً كشخصية شيطانية قام - بمساعدة تدريب تلقاه من راهب متعصب - ليدمر قانون يسوع لصالح قانونه الخاص الشرير. وحسب ألكسندر دي بون كان من شأن محمد - الممتلئ حقناً - أن يهاجم الزواج ويستنكر العذرية والعفة بظلمه، ويقود شعبه إلى الحماقة، ويعيد الختان، ويقوض المعمدانية والقربان المقدس^(٥٧)، (ش)

وعلى الرغم من أن دانتي يتبع هذا التقليد بدرجة ما - على سبيل المثال شاجباً محمداً باعتباره "بازر الشقاق" [الجحيم، ٣٥: ٢٨]^(٥٨) - فإنه لا يدعم حملة صليبية ضد الإسلام. إنه عوضاً عن ذلك يضع الإسلام على المعايير اللاهوتية-الأخلاقية ذاتها التي يطبقها على أولئك الذين هم داخل وسطه الخاص، ومن ثم يستخدم نسقاً أخلاقياً أوسطياً في الحكم على أولئك الذين عاشوا قبل المسيح وبعده، سواء كانوا وثنيين أو مسيحيين، عبريين أو مسلمين. وخلافاً لمعالجته لعالم الاندوس، أولئك الذين تضعهم المخيلة في موقع خارج الحدود المسيحية الرومانية، يتفحص دانتي الإسلام طبقاً للنسق اللاهوتي - الأخلاقي الذي يُبلغ عن الحكم المسيحي في الكوميديا. وبعبارة أخرى يحاسب محمداً وعلياً على نشرهما الانقسام.

عند دانتي - كما عند توما الأكويني - محمد وعلی منشقان، محمد وقد نزع دينه الجديد عن المسيحية، وعلی وقد سبب الصدع بين السنة والشيعة (الجحيم، ٣٠: ٢٨-٤٥). لكن استنكار دانتي لمحمد لا يمثل "استشراقه" كما ذهب سعيد^(٥٩). الأخرى، كما كتب سمير أمين، أن "أحكام المسيحيين في زمن الحملات الصليبية لم تعد أكثر "مركزية أوروبية" مما كانت أحكام العرب أكثر "مركزية إسلامية". لقد أنزل دانتي

(ش) الأفرستيا Eucharist وتعرف أيضاً بالعشاء الرباني (الأخير). والقرآن يكرر أفعال المسيح في العشاء الأخير حين أخذ الخبز وباركه قائلاً: "خذ، هذا جسدي"، وكرر في نهاية العشاء قائلاً: "هذا دمي...." فالملعى هو أن "الموت للفداء لأن الجسد يبذل من أجلكم" (لوقا: ١٠) (المترجم).

محمداً إلى الجحيم، لكن هذا لم يكن علامة على تصور مركزية أوروبية في العالم. إنما هو حالة نزعة رئيسية مبتذلة، هي شيء، مختلف تماماً لأنها متوازنة في أذهان طرفين متعارضين.^(٦٠)

تتضمن تصورات مواقف دانتي تجاه الإسلام وصفه لمدينة ديس Dis كقلعة إسلامية (الجحيم: ٧٠-٧٢) كرمز للشاق الذي يميز المنفى الاختياري لكافة قاطني جهنم. مسيحيون اسميون ارتبطوا بالمذهب الرشدي، مثل مايكل سكوت (١١٧٥-٩١٢٥) وفريدريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) - وليس بابلن رشد نفسه - أرسلوا إلى جهنم. وفي الحقيقة فإن دانتي يضع فريدريك الثاني، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ورجل تبنى الثقافة والعلوم الإسلامية في مملكته الصقلية^(٦١)، في دائرة الأبيقوريين^(ص) (الجحيم، ١٠: ١١٩)، وهي الدرجة الأولى من درجات الفساد الفكري داخل مدينة ديس. لقد أكسبت فريدريك قناعاته الأبيقورية - شأنها شأن اهتمامه بالثقافة والعلوم الإسلامية - مكاناً بين المهرطقين في نظام دانتي. وبالإضافة إلى ذلك، ومن وجهة نظر دانتي، فإن استعداد فريدريك لمواجهة مع الإسلام قد برهن على خطاياه الفكرية. فبينما كان القائد الاسمي للإمبراطورية الرومانية المقدسة، من عام ١٢١٥ إلى عام ١٢٥٠ مضى فريدريك في سعيه إلى اهتماماته البحثية، إلى تقويض مسؤولياته الإمبراطورية، ومن ثم - من منظور دانتي الديني - السياسي - فإن هذه الاهتمامات انتهاكات سياسية، وبالمثل أخلاقية. إن كاتب التسلسل الزمني للأحداث في القرن الثالث عشر، ساليميني دا بارما Salimbini da Parma (ولد ١٢٢١) يعرف

(ص) نسبة إلى أبيقور Epicurus (٣٤٠ ق.م. - ٢٧٠ ق.م.) الفيلسوف اليوناني الذي دافع بشدة عن التعويل على الحواس كمصدر للمعرفة، واعتبر أن من الضروري إزالة أو تخفيف قلق الإنسان - بما في ذلك من الموت - وعرف عنه دفاعه عن بدأ اللذة، بمعنى التحرر من الألم، باعتباره الخير الاسمي. وهكذا فإن القول بأن الأبيقورية تقول بتكريس الإنسان للذة الحسية تنطوي على سوء فهم لفلسفة أبيقور. (المترجم).

حكم فريديريك بالبابلي التوراتي، ويسجل صعوده إلى السلطة وسقوطه، وإدانته بالهرطقة من قبل البابا غريغوري التاسع. ويكتب أنه كانت لفريديريك حماقات كثيرة وكان يملأه فضول عاجز، وكان طاغية، وكان أبيقورياً^(٦٢). ويقدم ساليمةيين نقداً مدعماً لفريديريك، متهماً إياه بأنه كان أبيقورياً يسعى إلى كافة ملذات الجسد، وأنه أقام سلاماً مع السراسنة على حساب المسيحيين وأنه أمر بإنشاء اسم محمد في هيكل الرب^(٦٣).

ويتفق وضع دانتي مايكل سكوت - وهو باحث رشدي كان مقيماً في بلاط فريديريك - بين مستحضري الأرواح (الجحيم، ١١٦:٢٠) - مع المعتقدات المسيحية التقليدية للشاعر بشأن الكهن عن المستقبل دون علم من واسطة إلهية. ولقد ترجم مايكل سكوت - الذي كان متخصصاً في الفلك والتاريخ الطبيعي - اثنين من الشروح العربية لكتاب أرسطو في السماء De Caelo et Mundo، أحدهما كتبه البيتراغوس^(ض) والآخر كتبه ابن رشد، وعلم الفلك في جامعة باريس مستخدماً كتاب ساكروبيوسكو Saerobosco المجال Sphere وترجم ثلاثة من رسائل أرسطو في التاريخ الطبيعي (تاريخ الحيوان Historia Animalum) في أجزاء الحيوان De partibus Animalium، وتوالد الحيوان De Generatione Animalium^(٦٤). وكما أشرت بالفعل، كان دانتي واسع المعرفة بالتطورات العلمية إلى أحدث الأوقات. ومن هنا فإن نفوره من مايكل سكوت ينبغى أن يُعزى إلى عامل آخر غير بغضه للعالم التجريبي (الأمبريقي). إن اعتقاد مايكل سكوت الهرطقي بإمكان التنبؤ بالمستقبل بناءً على دراسة علوية إنما يضعه يقيناً في صف الأفكار الشعبية الشائعة عن الفلك العربي. إن العقوبة التي

(ض) هو البيطروجي نور الدين أبو أسحق (المتوفى عام ١١٨٥ م) وهو فلكي أندلسي تلمذ على ابن طفيل، وتسمية البيتراغوس Alpetragius هي الشائعة في "العالم اللاتيني"، ولا تنفي أنه كان عربياً شأنه شأن ابن رشد. (المترجم).

يوقعها دانتي على العرافين ، الذين يسكن معهم مايكل سكوت، توحى بأن الأجناس المتوحشة التي نجدها موصوفة في كافة أرجاء تقاليد العجائب البلينية. إنهم يظهرون - بوجوههم المشوهة الملوية للوراء ونظراتهم الموجهة لأسفل - إلى حد كبير مثل مخلوقات العالم المقابل المتخيلة، وهم لهذا رموز لنظرية العالم المقابل المهرطقة المرتبطة بتنظير علمي لا يهتدى بالتعاليم المسيحية.

إن لنا في معاملة دانتي لمايكل سكوت مثلاً محدداً على فكرة دانتي عن العمل الفكري- اختبار علمي قهري للمستقبل غير القابل للتنبؤ الذي يربطه الشاعر بالتنظير بشأن مخلوقات العالم المقابل، وهما مسألتان علميتان كانت قد تمت مناقشتهما ترادفياً. كذلك فإن من المثير للاهتمام في هذا الصدد أن الأنشودات المتوازية في الجحيم الأنشودة ٢٠ والأنشودة ٢٠ في المطهر والأنشودة ٢٠ في الفردوس، تستكشف خلاص الوثنيين، لأنه في الأنشودة ٢٠ في المطهر يهتز الجبل حينما يصيح كل واحد "المجد للرب في الأعلى" - وهو ما نعرف فيما بعد أن سببه أن ستاتيوس^(ط) قد حرر لتوه من المطهر. وفي الأنشودة ٢٠ من الفردوس ، إذ يرى وثنيين (ريفيوس Ripheus وترايان Trajan) في السماء يدهش دانتي. هذا التوازي يعزز نظام دانتي الكلي. فإن هذه الأنشودات في الفردوس والمطهر تبين أن العالم بأسره يمكن أن يضمه نظام اللاهوت الخلاصي الذي يفرضه في القصيدة. إن فرضيات مايكل سكوت العلمية عن مخلوقات العوالم المقابلة للأرض، والتي عوقب عليها بأن فُرض عليه أن يتخذ مظهر تلك المخلوقات المتخيلة، هي إشارة محددة إلى وضع الفرضيات عن المنطقة الرابعة. يدحض دانتي هذا الطرح الفرضي الفكري، كما فعل أوغسطين. لأنه كان من شأنه أن يتناقض مع الفكرة المسيحية عن الخلاص الكلي.

(ط) Publius Papinus Statius (٤٥ - ٩٦) شاعر لاتيني، مؤلف ملحمة طيبة وأخيل، ويظهر في المطهر حيث يتحدث إلى فيرجيل ودانتي. (المترجم).

يشجب دانتى فريديريك ومايكل سكوت بسبب انغماسهما - من منظوره - فى ثقافة إسلامية تمثل اهتماماتهما الأبيقورية واعتقادهما بأن التعلم غاية فى ذاته لا حاجة به إلى إرشاد من المبادئ اللاهوتية. مع ذلك فإن دانتى - متجاهلاً المشكلات الزمنية للخلاص - لا يشجب ابن رشد أو ابن سينا أو صلاح الدين، الذين يضعهم بين فضلاء الوثنيين فى اليمبوس^(٦٥) (الجحيم، ١٤٢:٤-١٤٤، ١٢٩) جنباً إلى جنب مع سقراط وأفلاطون وأرسطو. وفى الحقيقة فإن ابن رشد الذى كتب الشرح العظيم (١٤٤)^(٦٥)، يحظى بانتباه خاص لإنجازه الأكاديمى.

إن انعدام التماسك البادى هذا فى الكيفية التى يعالج بها دانتى بلاط فريديريك المؤسلم والمفكرين الإسلاميين المشاهير، الذين عاشوا جميعاً داخل الفضاء الجغرافى للإمبراطورية الرومانية - المسيحية فى السابق، ينبع من رغبة الشاعر فى تمييز النشاط الثقافى - وخاصة ذلك الذى أمدّ بالمعلومات العمل اللاهوتى لألبرت الأكبر وتوما الأكوينى^(٦٦)، من النشاط الفكرى ذى العواقب السياسية. يذهب إعجاز أحمد إلى أن فتوى دانتى تعكس ولائه المقسمة بين مسيحية "وسيطية" والثورة الفكرية الإنسانية البائدة^(٦٧) Aljaz Ahmad. بعيداً عن حقيقة إن هذه الحجة تعتمد على مزاعم صارمة تفرض طابعاً دورياً. فإنها لا تدرك أن هذا النوع من الانقسام شائع فى التقاليد الفكرية المسيحية. لقد كان كلا ألبرت وتوما منخرطين فكرياً مع المذهب الرشدى لأن ترجمات ابن رشد وشروحه على أعمال أرسطو، التى وصل كثير منها إليهما فى صيغها العربية. كذلك فإن دانتى - إذ يسمح بهذه الفتوى - يبدو أيضاً قد تبنى تمييز أوغسطين بين المفيد والممتع ("Uti" و "Fru") فى العقيدة المسيحية De Doc- trina Christiana) حينما يحكم على كافة "الأنوار" فى اليمبوس، لأن أعمالهم برهنّت على أنها مفيدة؛ وكتاباتهم أسهمت فى التحول إلى المسيحية وفى اللاهوت المسيحى،

(٦٥) Limbo عرفناه فى هامش سابق (المترجم).

حتى على الرغم من أنهم لم يكونوا - هم أنفسهم - متلقين لهذه النهاية المضينة والمبهجة.

ومما يوحى أكثر من هذا بافتقار دانتي إلى الاهتمام بالحياة السياسية في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكذلك رفضه لمطامح الصليبيين في المنطقة، إنه يضع صلاح الدين في اليمبوس^(٦٨). وعلى النقيض من هذا يحكم على فريديريك بالذهاب إلى جهنم بسبب انغماسه الثقافي الأبيقوري والإسلامي وإخفاقه في أداء واجبه كإمبراطور لتوحيد العالم اللاتيني. وحفاظاً على المعتقد اللاتيني الوسيطى فإن صلاح الدين هو عند دانتي نموذج للقائد الإسلامى. ومن ثم يتلقى المعاملة التفاضلية ذاتها التى يتلقاها من الشاعر النثرون القدامى الآخرون.

خلافًا لغزو صلاح الدين للقدس، فإن انشقاق محمد - حسب وجهة نظر دانتي - قد شق العالم المسيحى وإقليمه الجيوسياسى. لقد قدر على هذا الانشقاق أن يخلق انشقاقاً آخر، على النحو الذى فعلته كل التمزقات المدنية الأخرى التى يمثلها الشاعر فى الجحيم - الأنشودة - ٢٨، (سواء كانت مواضعها فى اليونان القديمة أو فى روما، سواء كانت دينية، وسواء كانت معاصرة أو إذا كانت قد حدثت فى إيطاليا أو فى مكان آخر فى أوروبا) . فحسب تمثّل ساليمةبىنى، وخلافًا لتمثّل ابن رشد وتوما الاكوينى وألبرت، فإن فريديريك ومايكل سكوت قد غاصا فى تجريب علمى مجانى للاستمتاع بفلسفة أبيقورية. وفى الحقيقة فإن الاحترام الاجتماعى الإسلامى داخل بلاط فريديريك كان جزءاً من هذا التنوع للمساعى الفكرية الأبيقورية.

وكما يمكننا أن نتوقع، حينما يواجه دانتي الإسلام أو الشرق فى العالم اللاتينى، يتبع موقفاً مسيحياً لاتينياً أصلاً (أورثوذكسياً). إنه يشجب محمداً وعلياً كمنشقين سياسيين عسكريين وثقافيين من ناحية، ولكنه يحترم العلم الإسلامى الذى يدعم اللاهوت المسيحى ويزدرى ما يراه مغامرات مدرسية (سكولائية) مجانية فى التجريب الأبيقورى تحت تأثير العلم شبه الإسلامى من الناحية الأخرى. وحتى وهو يضع شهداء

بعض الحملات الصليبية في السماء فإنه يحول التوجه الخطابي والجغرافي للمسرد الصليبي. وتتبنى قصيدته رسالة الحج المزعومة - بمعنى التوبة والتحول الفرديين والجماعيين - وهو يستخدم الصليبية كمجاز للحياة المسيحية. ومثل المسردات الصليبية، تفصل الكوميديا التعارضات التي تضع أهل الداخل ضد أهل الخارج، المخلص ضد الملعون، لكن - وكما في أعمال أوغسطين - تختبر الكوميديا ما يشكل تحولاً. وكما في المسردات الصليبية، تُظهر أن كون المرء مسيحياً بصورة اسمية ليس معادلاً لأخلاق متفوقة. تحجم الكوميديا عن التعبير عن اهتمام بالفضاء التجريبي (الإمبريقي) للأراضي المقدسة واحتلال المسلمين لها. لكنها - شأن كثير من المسردات الصليبية، تصبح الوسيلة لدعوة موطن المؤلف الأصلي ليحاسب على خطاياها. إن دانتي ببناء فكرة "أوروبا" ضد شرق، كما يفعل مبدعو رولان وأليسكان، يشير إلى القانون باعتباره الحل للأزمة التي خلقها تنازع الغرب وخداعه. وهو - كذلك - يشير إلى الغرب باعتباره موقع التحول مستقبلاً، على نحو ما سنناقش في الفصل التالي. فعند دانتي، الاستشهاد - كما بين بوناغنتورا حين حالف بين النبوة أو النطق بالحقيقة والاستشهاد - هو أن نموت من أجل الحقيقة^(٧٩)، وأن الموت يمكن أن يحدث في أي مكان^(٨٠).

هوامش الفصل الثاني

(١) Fideles Crucis, Schein, 73.

(٢) في مناقشتي ضد هذا الرأي أعترض على الرأي العام السائد بين دارسي دانتي الذين افترضوا أن دانتي يؤيد الحج إلى الأراضي المقدسة والحجج المثارة بشأنه. انظر على سبيل المثال: The Demaray, La Crociata, "°, Miccoli, Invention of Dante's, Commedia, 9-17.

(٣) في المسردات الصليبية المكتوبة بعد كارثة الحملة الصليبية الثانية، عزيت الإخفاقات العسكرية في الأراضي المقدسة بصفة مستمرة إلى جور المسيحيين، انظر على سبيل المثال: A, William of Tyre, History of Deeds, 2:506 وفيه يكتب، بينما الأراضي المقدسة على وشك أن يستولي عليها العرب مجدداً في عام ١١٨٧، لهذا، عقاباً على خطايانا أصبح العدو أقوى منا، ونحن الذين اعتدنا على الانتصار على خصومنا وحملنا بصورة معتادة أكاليل النصر المجيدة، أصبحنا الآن محرومين من الأفضلية الإلهية، نتكلى في الميدان في هزيمة مطبقة الجهل بعد كل صدام تقريباً (نصها اللاتيني موجود في كتابه التسلسل الزمني Chronicon, 2:1061).

(٤) انظر Dante and the book of the Cos- " Patterns of Earthly Pilgrimage", Damaray, The Invention of Dante's Commedia, 82, و.

(٥) إلى جانب مسردات وإليام صور فإن المسردات الصليبية التي تقول أن دانتي كان - على الأرجح - يعرف Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum، وفي أول مسردة صليبية ومصدر كل الروايات التالية عن الحملات الصليبية: De Protectione, Odo de Deuil، هي المسردة الوحيدة عن الحملة الصليبية الثانية الكارثية. Raymond, Foucher of Chartres, Historia Hierosolimitana; Vie de, Historia Francorum Qui Ceperunt Iheusalem; Jean de Joinville, d'Aguiers Saint Louis.

(٦) يكر تاريخ بيد Bede الوصف الذي قدمه أركولف Arculf مطران غول Gaul. انظر: Bede's Eccle- The Pilgrimage of Arculfus, Arculfus, siastical History of the English people

(٧) انظر: Fideles Crucis, Schein, 121-24.

(٨) لطبعة من نص فيديزيو Fedenzio, انظر Biblioteca bio-bibliografica, (XIII-XIV SEC), 9-60:

(٩) يذهب غابرييلي إلى أن دانتى كان يعرف ريكولو دا مونتيكروتشي، ولكنه على سبيل التصحيح، فيما اعتقد، يرفض القائلة بأن دانتى كان منغمساً في دراسات عربية. وعلى الرغم من أن ريكولو درس اللغة العربية وعرفها جيداً بدرجة تكفي للتبشير بالمسيحية في شوارع بغداد، ولكنه عندما عاد إلى فلورنسا لم يعد على اتصال بها. وكذلك يعطى Schein في كتابه Fideles Crucis, 124 تاريخ ريكولو.

(١٠) (ص ٦٢) - هامش ١٠

(١١) (ص ٦٢) - هامش ١١

(١٢) Sanudo, "Liber Secretorum Fidelium Crucis" بشأن مناقشات لهذه الخرائط وبشأن سانويو Sanudo انظر, 47-127, The Crusades, Hugh of Saint-Victor, "La Descriptio mappe mundi," 126.

(١٣) (ص ٦٢) - هامش ١٣

(١٤) يذكر جيروم قيمة زيارة الأراضي المقدسة في الرسائل Letters الأرقام ٢٢، ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٥٨، ٦٨، ١٠٨، ١٢٢، ١٤٥

(١٥) (ص ٦٢) - هامش ١٥

(١٦) كتاب مارفال Maraval بعنوان Lieux saints et pèlerinages d'Orient هو المناقشة الأفضل - بفارق كبير- لهذا التطور وعواقبه. انظر أيضاً (ص ٦٢ - هامش ١٦) وتناقش هذه المصادر التغيرات في التوجه المكاني التي جلبها تحول قسطنطين إلى المسيحية كحركة اجتماعية وسياسية.

(١٧) بشأن مناقشة شاملة للاستخدام التوراتي وفي القرن الأول لـ "الغريب" انظر: Eliot, Home for the Homeless

(١٨) Cité De Dieu, Augustine, 1, praef.

(١٩) بشأن مناقشة لهذه العناصر من الحج، انظر: Brundage, Medieval Canon law, 3-12 ويقدم ديون Dupon في كتاب Du sacré, 369-73، إيضاحات عن المعاني الكثيرة لـ الحج.

(٢٠) بشأن العبور بين رحلات الحج الرمزي إلى الأراضي المقدسة والحج الحقيقي كما يتضح في الكوميديا لدانتى، انظر: (ص ٦٣ - هامش ٢٠)

(٢١) Cronica, Villani, 1.4.19، وتحاول دراسة صدرت مؤخراً عن حياة روبرت جيسكار العملية أن تستكشف التوتر بين محاولاته للتوحيد في إيطاليا وللنزعة الإقليمية. انظر: Roberto il Guiscard

(٢٢) (ص ٦٣ هامش ٢٢)

(٢٣) (ص ٦٣ هامش ٢٣)

(٢٤) A History of Deeds, William of Tyre, 1:41 وانظر ص٤٣ بشأن التأثير المرجح على الكوميديا. وبشأن مناقشة لهذا التقليد المخطوطي وصيغة المخطوط ٨٢٨ (ص ٦٣ - هامش ٢٤) وقد وصلت على أيدي آل ميديتشى مخطوطة فلورنسية (نسخت في عكا، حوالي ١٢٩٠).

(٢٥) (ص ٦٣ هامش ٢٥)

(٢٦) (ص ٦٣ هامش ٢٦)

(٢٧) (ص ٦٣ هامش ٢٧)

(٢٨) (ص ٦٣ هامش ٢٨)

(٢٩) (ص ٦٣ هامش ٢٩)

(٣٠) (ص ٦٣ هامش ٣٠)

(٣١) بشأن أكثر المناقشات الأخيرة إثارة لـ"أغنية رولان" Song of Roland، انظر Haidu، The Subject of Violence

(٣٢) (ص ٦٣ هامش ٣٢)

(٣٣) (ص ٦٣ هامش ٣٣)

(٣٤) (ص ٦٣ هامش ٣٤)

(٣٥) (ص ٦٣ هامش ٣٥)

(٣٦) (ص ٦٣ هامش ٣٦)

(٣٧) (ص ٦٣ هامش ٣٧)

(٣٨) انظر Bernabei، "Pellegrino" مسافة أن رحلة دانتي خلال العالم الآخر طورت في عبارات رحلة حج كانت مسافة مركزية في "الأبحاث المتعلقة بدانتي لسنوات عديدة. انظر - مثلاً- (ص ٦٣ هامش ٢٩) Fergusson، Dante's Drama of the Mind; Singleton، Dante's Commedia; Salva، The Ladder of vision; Freccero، I Tore Battaglia، "Linguaggio reale"; Brandeis in the Door of Purga-، Dante the Pilgrim، Armour، 29-54; and Badassaro، Dante tory 169-85 يذهب إلى أن رمزية الحج ويوبيل عام ١٢٠٠ يؤكد على الحج في الأناشيد الثلاثة كلها إنما على المطهر بنوع خاص.

(٣٩) انظر Bernabei, "Pellegrino" مسألة أن رحلة دانتي خلال العالم الآخر طورت في عبارات رحلة حج كانت مسألة مركزية في "الأبحاث المتعلقة بدانتي لسنوات عديدة. انظر - مثلاً- (ص-٦٢ هامش ٢٩) Fergusson, Dante's Drama of the Mind; Singleton, Dante's Commedia; Salva- (٢٩, The Ladder of vision; Freccero, I, tore Battaglia, "Linguaggio reale"; Brandeis in the Door of Purga- , Dante the Pilgrim, Armour, 29-54; and Badassaro, Dante 169-85, tory يذهب إلى أن رمزية الحج ويوبيل عام ١٢٠٠ يؤكد على الحج في الأناشيد الثلاثة كلها إنما على المطهر بنوع خاص.

(٤٠) حول العدد ٩ انظر Gorni, Lettera, numero, nome, 73-85, وهو يذهب أبعد من هذا إلى أن "العدد، حسب دانتي، هو محيط خارجي، نوعي وليس كمياً فحسب، في معرفة الأشياء، [إنه] عادة ذهنية، فرضية أولية في تفسير الواقع. ليس فقط شيئاً مبتدلاً في الواقع الفيزيقي إنما أيضاً- وفوق كل شيء - في [الواقع] الفكري. [87]

(٤١) (ص-٦٤ هامش ٤١)

(٤٢) (ص-٦٤ هامش ٤٢)

(٤٣) بشأن استخدام دانتي لكتاب بونافينيتوري Bonaventure, Itinerarium Mentis in Deum انظر: (ص-٦٣ هامش ٤٣)

(٤٤) طورت هذه الفكرة عن فضاء النص من سيرتو Certeux, "Montaigne's Of Cannibals", 68

(٤٥) (ص-٦٤ هامش ٤٥)

(٤٦) (ص-٦٤ هامش ٤٦)

(٤٧) La Studio dell'Islam, 65 Monneret de Villard, يذكر حسية محمد التي اشتهر بها كسمة ثابتة في حجج مسيحية العصور الوسطى.

(٤٨) الصيغتان اللاتينية والفرنسية من The Book of The Ladder مطبوعتان في Cerulli, II, Libro "della Scala", 24-247 وثمة طبعة صدرت مؤخراً هي Le Livre de l'échelle de Mahomet وترجمة إنكليزية للنصين اللاتيني والفرنسي انظر: The Prophet of Islam in Old French ويتناول Blochet في Les sources orientales de la Divine comédie أوجه التوازي بين The Book of the Ladder والذي يرجع إلى أصول فارسية، والكوميديا. أنظر أيضاً (ص-٦٤ هامش ٤٨).

(٤٩) (ص-٦٤ هامش ٤٩).

(٥٠) (ص -٦٤ هامش ٥٠)

(٥١) (ص -٦٤ هامش ٥١)

(٥٢) انظر Bernabei, "Pellegrino", مسافة أن رحلة دانتي خلال العالم الآخر طورت في عبارات رحلة حج كانت مسافة مركزية في الأبحاث المتعلقة بدانتي لسنوات عديدة. انظر - مثلاً- (ص -٦٣ هامش ٣٩) Fergusson, Dante's Drama of the Mind; Singleton, Dante's Commedia; Salva- (٣٩, The Ladder of vision; Freccero, Iore Battaglia, "Linguaggio reale"; Brandeis in the Door of Purga-, Dante the Pilgrim, Armour, 29-54; and Badassaro, Dante Iory 169-85 يذهب إلى أن رمزية الحج ويوبيل عام ١٢٠٠ يؤكد على الحج في الأناشيد الثلاثة كلها إنما على المطهر بنوع خاص.

(٥٣) (ص -٦٤ هامش ٥٢)

(٥٤) (ص -٦٤ هامش ٥٣)

(٥٥) بشأن نفوذ التسلط المسيحيين انظر: Ibid, 23.51, وبشأن تسوية محمد وشبهته انظر ٤٤, ٢٣, ٤٣, ٢٣, بشأن عدم استقرار الإسلام كحركة, انظر: ٤٨: ٢٣

(٥٦) (ص -٦٤ هامش ٥٥)

(٥٧) (ص -٦٤ هامش ٥٦)

(٥٨) انظر Le Roman de Mahomet, Alexander du Pont, II, 165-84, وبشأن نص لاتيني من القرن الرابع عشر لخرافة عن محمد تحاول أن تبرهن على أن "الهرطقة" كانت لها جذورها في روما, ومن هنا جاء الناسك الساخط الذي علم محمداً انظر: (ص -٦٤ هامش ٥٧)

(٥٩) بشأن مناقشات لمعاملة محمد في الجحيم انظر: (ص -٦٤ هامش ٥٨) وتناقش الصبّاح في الجحيم, الأنشودة ٢٨, الصلة بين الانشقاق والصور المشوهة في تمثيل محمد في نصوص العصور الوسطى مثل (ص -٦٤ هامش ٥٨)

(٦٠) (ص -٦٤ هامش ٥٩)

(٦١) (ص -٦٤ هامش ٦٠)

(٦٢) يمس مينوكال Menocal في The Arab Role, 61-70 موضوع بلاط فريدريك الثاني. انظر أيضاً Frederick the second, Kantorowicz

(٦٣) (ص -٦٥ هامش ٦٢)

(٦٤) (ص ٦٥- هامش ٦٢) يكتب ساليمني عن إدانة الإمبراطور بوصفه مهرطقاً قائلاً " إن فريديك قد استحق تماماً وعدلاً هذا الفعل، فعل العزل من العرش والطرده من الكنيسة بسبب نكرانه الجميل. ذلك أنه تعمد القسوة ورفع صوته ضد الكنيسة، التي كانت قد رعتة ودافعت عنه ضد أعدائه ورفعتة إلى عرش الإمبراطور . مع ذلك فقد أظهر نكرانه التام للجميل باضطهاد الكنيسة والقتال ضدهما بكل قلبه " [182]

(٦٥) يشير ساليمني أيضاً إلى مايكل سكوت بوصفه "فلكى فريديك الثاني" (ص ٦٥- هامش ٦٢) وفي The Arabic Role, 57-58, 62-64 يلخص مينوكال حياة مايكل سكوت العملية بوصفه تابع فريديك ومترجمه، على وجه التحديد للكتاب أرسطو ما وراء الطبيعة Metaphysics وشروحه العربية وكتاب أرسطو عن الحيوان De Animalibus . ويشأن مناقشة لمقالة مايكل سكوت " Tianchi e " The Spare Ribs of Dante's Michael Scot", Kay, انظر

(٦٦) كان ابن رشد معروفاً في العصور الوسطى بـ "الشارح" لأنه كتب شروحاً وملخصات لأعمال أرسطو الرئيسية. انظر: (ص ٦٥- هامش ٦٥)

(٦٧) انظر - مثلاً - ألبرت الأكبر: Albert the Great, De Anima, و De Natura Loci وفيها يشير إلى الفرق بين نظريات بطليموس ونظريات ابن رشد في الجغرافيا الكونية. ويشأن الاختلافات اللاهوتية المسيحية مع أعمال ابن رشد وابن سينا، انظر: Contra gentiles, Aquinas

(٦٨) (ص ٦٥- هامش ٦٧)

(٦٩) انظر "The presence of the Sultan Saladin", Castro

(٧٠) الاستشهاد هو شهادة للحقيقة " انظر أيضاً: (ص ٦٥- هامش ٦٩)

(٧١) كما كتب جيروم " ليس الوجود في القدس هو ما يهم، إنما العيش جيداً هو الذي يستحق الثناء Let- and, psalm 95, Commentarioli in Psalmos, Jerome tres no 58.2 (my translation) 153, Lieux saints, Marval

الفصل الثالث

دانتي والحملة الصليبية في الأراضي المقدسة

من الخير - إذن - أن التسلح بالتبصر حتى إذا ما انتزعت بعيداً عن أعز مكان
عندى لا تُفقدني أغنياتى كل أماكنتى الأخرى.

- الفريوس، ١٧: ١٠٩-١١١

يحول دانتي مسردات الحرب الصليبية العسكرية والحج إلى شعر، فيما يصبح
فضاء قصيدته حجه وحملته الصليبية. وخلال الدراما الشعرية والتأمل واللاهوت يناقش
على نطاق واسع إخفاقات التاريخ الأخلاقية والمعنوية، وبصورة محددة ظهور
القوميات الأوروبية والإمبريالية البابوية والفساد الكنسى. إن الكوميديا، وقد تحولت من
خلال لاهوت شعري^(١)، تكشف بتقاليد المسردات الصليبية أزمت العالم اللاتينى
الذى ينتمى إليه المؤلف نفسه. ويوصى دانتي بإصلاح هيكلى، خاصة فى القانون،
الذى يتوجب أن يحافظ على المستويات الأخلاقية ويدعم ممارسة الحب (Caritas)
باعتبار ذلك الحل للفوضى السياسية والدينية، السائدة فى زمانه. إذ ينبغى
تأسيس القانون على مفهوم للعدالة الكونية يضمن الحرية للجميع. إن عدالة الرب
مؤسسة على المحبة، وبالمثل حقا ينبغى أن تكون العدالة الإنسانية (الملكية، ١١: ٢-٣).
يصبح الشعر وسيلة لتخيل بديل طوباوى للبنى السياسية والاقتصادية
للخطة التاريخية.

ويستطلع هذا الفصل الكيفية التي يُبرز بها توجه دانتي الجغرافي روايته الصليبية - الحجة. وعلى النقيض من المسردات الصليبية - الحجة (أو مكتسبات الأرض الإمبريالية الرومانية، التي وُعدت بها ذرية أنياس في الإنياذة)^(٢)، يتوجه دانتي إلى لاهوت أوغسطين المكانى الشعرى وإلى رحلة ليونافنتورا (Iter). فعنده أن الممارك ينبغي أن تخاض ضد الروح الخاطئة الإنسانية والبنى الداعمة لتلك الإرادة المتمردة. تحل الأخلاق والحب محل المطامح الإقليمية والإمبريالية^(٣). وإذا يتخيل دانتي أوروبا موحدة سياسياً، يتخذ ثلاث مسائل كمحور لرحلته الصليبية - الحجة: إصلاح القانون فى ظل بناء روماني مجدد، إمبريالى، جغرافى محدود بالقارة الأوروبية (الفردوس، الأنشودة ٦)؛ وإصلاح الكنيسة، التى أدى انغماسها فى الشؤون الزمنية إلى فسادها (الجحيم، الأنشودة ١٩؛ المطهر، ١٦؛ الفردوس، ٢٧: ٤٠-٦٦، ٣٠: ١٣٣-١٤٨). وعلى النحو الذى فصله ماركو لومباردو (Marco Lombardo) فى المطهر، الأنشودة ١٦، تحويل الأفراد عن حياة خروج على القانون وخطيئة^(٤).

ويُظهر الجحيم بالصور هذا الخروج على القانون والعواقب التى يجرها انحراف الإرادة الإنسانية. إن الخاتمة التنبؤية والشريرة للموكب فى المطهر، وكذلك الهم الصادر فى الفردوس من أفواه أكثر الشخصيات تبجيلاً^(٥) - جستينيان ضد المتصارعين الغيلف والغيبيلين (الفردوس، الأنشودة)، من القديس توما ضد طبقته الكنسية ذاتها، الدومينكان، بسبب الفساد (الفردوس، ١١: ١٢٤-١٣٩)، القديس بونافنتورا ضد طبقته الكنسية (الفردوس، ١٢: ١١٢-١٢٦)، القديس بطرس داميان ضد رجال الكنيسة الذين أخفقوا فى اتباع مبادئهم (الفردوس، ٢١: ١١٨-١٣٥). كاشياغويدا ضد فلورنسا المعاصرة له (الفردوس، الأنشودة ١٦)، النسر ضد كل الملكيات المسيحية الفاسدة (الفردوس، ١٩: ١١٠-١٤٨)، بياتريس ضد بونيفاتشى الثامن وكليمنت الخامس (الفردوس، ٣٠: ١٣٩-١٤٨) والقديس بطرس فى شجبه

العميق لاغتصاب "مكاني" (الفريوس، ٢٧:٢٢) - هي رؤيا مشبوبة بالعاطفة لحرب دانتي الصليبية الخاصة. وفي الحقيقة فإن ذم القديس بطرس ضد البابوية التي كانت آنذاك حبيسة أفنيون^(١)، معبر عنه كمجاز مكاني:

"ذلك الذي جرؤ على الأرض أن يغتصب ذلك المكان، مكاني، مكاني

الذي يقف الآن أمام وجه ابن الرب خالياً

قد جعل من قبري مصرفاً للدم والوسخ،

ليصبح هناك في الأسفل راحة لذلك المرتد الذي سقط من هنا" (الفريوس، ٢٧:٢٢-٢٧)

يضاعف دانتي قوة إدانته ثلاث مرات بأن يعطى منظوراً كونياً من ثلاثة أضعاف لاغتصاب البابوية، جاذباً الممالك الثلاث - الأعلى، الأرض، والأسفل - إلى أهمية الأحداث. إن مكان القديس [بطرس] الذي وقع فيه المقدمة الشهادة قد أصبح مصرفاً لمجاري البابوية المعاصرة، مع الإيقاع الصادر من الحنجرة للكلمات "Vacca" و"cloa" "ca" و"Placa" والتكرار المشدد لحروف البداية] ملفوظاً من الشفة في الكلمات "Puzza" و"perversa" و"placa"، مؤكداً حدة نبرة القديس بطرس.

إن رد فعل دانتي إزاء السياسات البابوية في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر - التي أدت إلى نقل المقر البابوي إلى أفنيون، ينعكس في تعريف الشاعر الفساد، والانقسام الكنسي بمصرف المجاري في جهنم. لقد كتب الكوميديا حينما كانت القوميات الأوروبية (بخاصة الفرنسية والانكليزية) تظهر في مواجهة كل

(١) Avignon إشارة إلى الفترة من تاريخ الكنيسة المسيحية (١٣٠٩-١٣٧٨) التي نقل خلالها كرسى البابوية من روما إلى أفنيون (فرنسا) وقد أطلق عليها وصف فترة الأسر البابوي. وقد تعاقب على الكرسي الرسولي خلال تلك الفترة سبعة بابوات كان أولهم كليمنت الخامس وآخرهم غريغوري الحادي عشر. (المترجم).

منها الأخرى، وبينما كان البابوات، وبخاصة بونيفاتشى الثامن، إنما أيضاً يقولون الرابع، يحاولون إعادة إرساء وحدة أوروبية تحت العباءة البابوية (على نحو ما كان البابا اينوسنت الثالث قد حاول قبل ذلك فى القرن الثالث عشر. وكتاب الملكية موجه على نحو خاص إلى هذين التطورين: فهنا يقدم دانتي الحجج ضد السلطات الدنيوية البابوية وضد قيادات الأمة - المفردة^(٦) إن هوس الشاعر بحملته الصليبية ضد التورط البابوى فى المجال الزمنى قد شغله تماماً حتى الأنشودة الختامية من الكوميديا، التى تلحن فيها بياتريس فى كلماتها الأخيرة فى الفردوس، الأنشودة ٣٠ (١٣١-١٤٨) التورط السياسى البابوى مرة واحدة أخيرة.

وعلى الرغم من أن دانتي يخص بالذكر شخصيات تاريخية أو توراتية عديدة لها ارتباطها بالحملات الصليبية فى الأراضى المقدسة، فإن غرضه ليس دعم الرحلات إلى الأراضى المقدسة. فعلى السطح تبدو سماء المريخ تستخدم الخطابية الصليبية الحجية وتشجع الحملات الصليبية، ولكن دانتي فى هذا المضمار يترجم فعلاً الحملة الصليبية العسكرية المسيحية والأدب الذى يدعمها إلى شعر "صليبي"^(٧). هنا، فى الأنشودات المركزية من الفردوس، تصبح مهمة دانتي كشاعر "قضاء النص"، وسيط الرحلة الصليبية الشعرية لدانتي، نتيجة استشهاده أو منغاه. إن الصليب فى أفق سماء المريخ، الذى يربط دانتي بينه وبين كلمات يسوع (إنجيل متى، ٢٨: ١٠، ٢٤: ١٢): "لكن من يحمل صليبه ويتبع المسيح" (الفردوس، ١٠٦: ١٤) تثير فى الذهن انتصار قسطنطين عند جسر ميلفيان، وكذلك خطابية صليبية كان الصليب فيها رمزاً لـ "جيش المسيح"، والطقوس الدينية الكثيرة للصليب. والأكثر دلالة من هذا أن دانتي يضع موطنه الجغرافى المباشر، فلورنسا، والإمبراطورية فى الواجهة. إن "علامة الصليب" مرئية بكل وضوح، ولكى يصف دانتي العلامة السماوية فإنه يدخل الإيقاع السجعى - كريستو (المسيح):^(٨)

لقد أرسل على هذا الصليب المسيح

ضياه الذى لا أعرف كيف أجد له نظير

أما ذلك الذى يحمل صليبه ويتبع المسيح

فسيففر لى ما أدعه بلا تعبير

حينما يرى ضياء المسيح

يتوهج فى ذلك الفجر [الفردوس، ١٤: ١٠٤-١٠٨].

فى المناسبات الأربع حينما يستخدم دانتي هذه القافية الواحدة، يلتفت الانتباه إلى المعارضات الثنائية، إلى أهل الداخل وأهل الخارج. وعلى سبيل المثال فإن القديس دومينيك فى الفردوس، ٧١: ١٢-٧٣-٧٥، بوصفه مزارع المسيح، [الفردوس، ٧١: ١٢]، تولى أمر القتال ضد الهرطقة [الفردوس، ١٢: ١٠٠]، وفى الفردوس، الأنشودة ١٩، يثير الإيقاع السجعى Cristo (المسيح) أولئك الذين "يصيحون على نحو زائف المسيح، المسيح" (١٩: ١٠٦) ضد العاديين الذين لم يسمعو قط بالمسيحية، وفى الأنشودة ٣٢ يناقش القديس برنار على وجه التحديد الفرق بين زمن ما قبل وزمن ما بعد "معمدانية المسيح التامة" (٨٣: ١٩) ووجه مريم، الذى يماثل تماماً وجه المسيح (٨٣: ٨٧-٨٩). إن الإيقاع السجعى بكلمة المسيح كما يتردد فى سماء المريخ، وقد رُبط بينه وبين أولئك الذين قاتلوا فى قضية دينية، يذكر بالجدليات التى ترتبط بالسياسات والحروب المسيحية. أن لاهوت "المسيح" الأصلاى (الأورثونوكسى) كإنسان كامل- إله متقمص هو قلب الدين المسيحى. والخلافات التى تدور حول هذا قد سببت أخطر الانقسامات بين المسيحيين وفيما بينهم، وبين اليهود والمسيحيين والمسلمين. ولكن التقاء دانتي بكاشياغويدا، بدلاً من أن يدعم دعوة سياسية صليبية، يقدم بديلاً للسياسات والخطابيات الصليبية. ولا ريب أن أكثر جوانب انشودات كاشياغويدا إثارة للفضول أن

وراء الإشارات القليلة التي يرمي بها إلى استشهاده [الفردوس، ١٢٩: ١٥-١٤٨] يتفق كاشياغويدا معظم وقته متحدثاً عن تاريخ الأسرة وفلورنسا ومستقبل دانتى^(٩).

وفى الفردوس، الأنشودة ١٥، فى حل مؤجل للعقدة، يخص دانتى كاشياغويدا بواحد وأربعين بيتاً ليصف فيها كيف كانت فلورنسا يوماً، ويختتم بأسرته هو واسمه وفى النهاية موته. ويواصل دانتى جمعه بين تاريخ فلورنسا وإدانتها فى الأنشودة التالية، وكما سيحدث فى أنشودات القديس برنار، يبدو هناك قمع لسياسات صليبية لصالح مسائل أخرى. وعلى الرغم من أن وصف كاشياغويدا لماضى فلورنسا هو إلى حد ما وصف مفرط فى الاحتشام، فإنه يربط بين "أفضل" أسرها وأفضل أسر روما ويرسم لها صورة الرعاية تعيش أمانة، رصينة، عفيفة" [الفردوس، ٩٩: ١٥] ويتم إيضاح وصفى "الرصانة" و"العفة" على وجه التحديد: "فلا عقد ولا إكليل ولا ثياب مطرزة ولا زنار يمكن النظر إليها أكثر من النساء "أنفسهن" [الفردوس، ١٠٠: ١٥-١٠٢].

بالنسبة لكاشياغويدا كان الماضى الفلورنسى عصرًا ذهبيًا من البساطة والتواضع (الفردوس، ٣٣: ١٦-١٥٤)، قبل أن يجعل كافة المهاجرين والمتمزجين من فلورنسا مدينة الخطيئة التي يصفها فى حاضرها. وهناك تلميح ممكن واحد إلى الحملات الصليبية، حينما يصفها - وقد حدد عائلات الماضى النموذجية - بأن "كل واحدة منها تعرف يقيناً موقع قبورها، ولا واحدة قد هجرت بعد فى فراشها، بسبب فرنسا [الفردوس، ١١٨: ١٥-١٢٠]. هذه الإشارة إلى الحروب التي صنعها الفرنسيون - والتي أوضحها هيو كابيه^(ب) ملك الفرنجة (٩٨٧-٩٩٦) فى المطهر، الأنشودة ٢٠ - لا تستثنى الحروب الصليبية، سواء داخل أوروبا وفى الشرق الأوسط، كفرع واحد من

(ب) Hugh Capet (الصغير) ملك فرنسا (٩٨٧-٩٩٦)، وكان أبوه بالاسم ذاته - الدوق الأعظم لفرنسا دبورغوندى وأكوييتى وكارنت باريس وأورلينز (وقد توفى عام ٩٦٥) (المترجم).

الحروب التي تبناها الفرنسيون، فمن الحملة الصليبية الأولى كان الفرنسيون هم رعاة حملات الأراضي المقدسة الأوائل، التي قادت الناس إلى القبور بعيداً عن موطنهم^(١٠). وتتكرر إدانة كاشياغويدا فلورنسا على لسان دانتي طوال القصيدة، وإن يكن بعبارة الشاعر نفسه الأكثر معاصرة. وعلى سبيل المثال قوله "أبتهجى يا فلورنسا، فأنت عظيمة إلى حد أنك تضربين فوق البحر واليابسة جناحيك واسمك منتشر في أنحاء جهنم!" [الجحيم، ١:٢٦-٣].

يشاطر دانتي بالتأكيد قلق كاشياغويدا بشأن انحدار فلورنسا. إن فقرة في المطهر، يلتقى فيها دانتي بصديقة فوريي دوناتى توحى بأن الشاعر وافق على أن كثيراً من نساء زمانه كن غير محتشمات. يتحدث فوريي عن زوجته الفاضلة نيلا فيشير إلى "نساء فلورنسا سافرات الوجوه.... [اللاتى] يمضين يعرضن صدورهن مع حلمتهن" [المطهر، ١٠١:٢٣-١٠٢] ويقارنهن بالمراسنة، البرابرة، هل تصلن إلى هذا الحد أبداً، ومن اللاتى لا تطالبهن بأن تتسرن عقيدة روحية أو غيرها؟ [المطهر، ١٠٣-١٠٥] هنا، يُرفع احتشام النساء المراسنة كنموذج لنساء فلورنسا، فى نقد يوازى نقد كاشياغويدا وغيره فى المسردات الصليبية. وتتفق هذه الملاحظة مع المسردة الصليبية التى تقارن محبذة أهل الخارج مع الصليبيين المسيحيين لكى تكشف عن فساد المسيحية اللاتينية. مع ذلك فإن من المثير للسخرية أن كاشياغويدا يُفترض أنه مات فى حملة صليبية كانت موجهة ضد الشعب ذاته الذى يعتبر نساءه متفوقات فى الاحتشام على نساء فلورنسا اللاتى يؤنبهن.

وحيث إن معظم انتباه كاشياغويدا موجه إلى فلورنسا، فإنه فى الأسطر الأخيرة القليلة فقط يتحدث عن الصليبيين والشهداء الذين يملأون سماء المريخ، وهكذا يذكرنا بالحروب الدينية (الفردوس، ٢٨:١٨-٣٦). "الصليب" ("La Croce") حافز قوى لتصوير صليب قسطنطين فى الأفق؛ والكلمة تتكرر ثلاث مرات، وتتكرر كلمة عن الأبصار ست مرات ("منظر" mira) [الفردوس، ٣٤]، "حملق" (vidi ٣٧، ٤١]؛ "جذب نظرى المشتاق

نوران من بينهم/ كما تلاحق العين زوجى الطير" (٤٤-٤٥): "اجتذب ناظرى" (٤٧). والتأكيد على الإبصار المادى يشير إلى اهتمام دانتي كشاعر بجعل قارنه يعتقد أن هذه ليست مشاهدة رمزية، حتى وإن كان ما يشهده رمزياً. الخيارات اللغوية هنا تذكر على وجه التأكيد بالعلامة البصرية فى السماء التى كان من شأنها أن تحول الممارسات المكانية السياسية المسيحية. لكن، على الرغم من أن الصليب فى الأفق يذكر بتحول قسطنطين (إلى المسيحية) فإن له إشارات رمزية أخرى أكثر معاصرة. وعلى سبيل المثال فإن بوناغنتورا يذكر فى مقدمة كتابه *Itenerarium Mentis in Deum* أنه حينما تلقى القديس فرانسيس "خاتم المسيح" رؤيته للملاك الحارس (الساروفيم)^(٥) كان فى صورة المصلوب^(١١). إن التمثيل البصرى لـ "الخاتم" - مثل الصليب فى جناح القديس كليمنت فى روما أو بصورة أخص فى القبة الوسطى لساحة القصر أو سان أبوللينارى *Classe in Ravenna* - كانت صوراً عرفها دانتي^(١٢). ليست هذه رموزاً لمسيحية عسكرية - سياسية، كما هو صليب قسطنطين فى الأفق، طبقاً للاهوت المسيحى الخلاصى، إنها علامات تضحية الرب القصوى من أجل خلاص البشر.

يبدو أن قائمة دانتي بالأبطال الذين حاربوا لاستعادة الأراضى المسيحية من أحدث غزاتها تدعم وحدة مسيحية تحت الراية الإمبريالية من النموذج الذى وضعه الكارولينيين. إن عدم التسامح تجاه الإسلام يوحى بـ أغنية رولان كنص فرعى مهم، بدعمها السياسات الإمبريالية الكارولينية وكشفها القتال الضروس بين النبلاء المسيحيين. مع ذلك، فإننى سأذهب إلى أن تلك الأنشودات التى تمتدح العمل العسكرى الدينى لم تكن عن حروب مع السراسنة، كما هو الاعتقاد السائد^(١٣). إنما هى - بالأحرى - تشير إلى صراعات ألهمتها الرغبة فى وحدة سياسية ودينية. وعلى الرغم من أنه لا شك فى أن هذه الرغبة تترجم غالباً إلى عمل عسكرى ضد الإسلام،

(ت) فى المعتقدات اليهودية - وفقاً للتوراة - هى طبقة أولى من الملائكة حراس عرش الرب (المترجم) .

كما فى أغنية رولان، فليس هذا هو اهتمام دانتي الأولى. إن أولئك المنخرطين فى "حملات صليبية" وأولئك الذين يفردهم بالذكر كهدف للخلاص طوال الفردوس يوحون بأن اهتماماته تتركز بصفة أولية على الجبهة المسيحية اللاتينية: الصليبيون ضد الألبيجينسيين (فوكيه مارسيليا [الفردوس، ٩] والقديس دومنيك [الفردوس، ١٢]، وشارلمان ورولان ورينووار ووليا) وروبير جيسكار، جميعهم شخصيات ترتبط بأعمال عسكرية فى الأقاليم اللاتينية الغربية. ويمكن ربط غودفري بوييون، بطل الحملة الصليبية الأولى بالوحدة المسيحية لأنها كما أطلقها (البابا) أوربان كان لا هدف أولى هو أن تخلص المسيحيون فى الأراضى المقدسة من الاضطهاد^(١٤). والمعارك التى يخصها دانتي بالذكر لتمثل الشهداء - الصليبيين تعطى معانٍ ضمنية استقرازية بشأن سياسات دانتي واهتمامه بـ "فكرة أوروبا" كما طرحها مبدئياً فى كتابه الملكية. وهو يربط رولان وشارلمان ووليام ورينووار باستعادة التراب الفرنسى من الغزاة المسلمين. وعلاوة على هذا فقد عُرف روبر جيسكار النورماندى (الفردوس، ١٨: ٤٧-٤٨) بتوحيد جنوب إيطاليا وثقافات وسكان صقلية المتنوعين. أما غودفري بوييون فكان قائداً للحملة الصليبية الأولى "المجيدة" (أى الناجحة) على القدس - وهى الحملة التى عجلت بها ظاهرياً حروب المسيحيين فى الشرق الأوسط - وأصبح أول حاكم مسيحي للقدس. ومن منظور دانتي، انخرط كل هؤلاء الرجال فى صراعات ضد نزعة الانقسام الداخلية، وخاصة نوعها الذى دمر رولان وكاد أن يقضى على رينووار.

بالإضافة إلى هذا فإن القائمة التى تضمها الأنشودة ١٨ فى الفردوس عن أولئك الذين حاربوا دفاعاً عن الوحدة المسيحية تأتى متعارضة مع الأنشودتين ١٩ و ٢٠ فى الفردوس اللتين تتناولان مسألة خلاص الأشخاص الفضلاء الذين لم يكونوا مسيحيين فى حين تقدمان أيضاً قائمة بالملوك المسيحيين الفاسدين. أحد هؤلاء هو شارل الثانى ملك نابلس، حامل لقب ملك القدس، الذى كان أبوه قد اشترى القدس فى عام ١٢٧٢ والذى كان هو نفسه متحالفاً مع البابا نيغولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢)^(١٥)، وأحد أشد

المؤيدين عناداً للحملات الصليبية على الأراضي المقدسة في حياة دانتى نفسه^(١٦) .
كذلك فيليب العادل، وهو مؤيد آخر للحملات الصليبية، يُدعى (الفردوس، ١١٩:١٩)
ليحاسب عن تزييف العملة في قلب أوروبا اللاتينية تحديداً. هذا التعارض بين قادة
بطوليين وفاسدين يقيم تضاداً بين المسيحيين الذين يخوضون حرباً صليبية باسم
وحدة مسيحية مقابل حملات صليبية تشن ضد أهل الخارج، وهذا التعارض يؤكد على
إخفاق القيادات العسكرية والسياسية في الأراضي المقدسة. إن الأبطال يمثلون هنا
"المسرح المسيحي اللاتيني" - إذا جاز التعبير - يمثلون توجهها إمبريالياً رومانياً
يقتصر على القارة الأوروبية، مع ارتباط غامض للأراضي المقدسة - الفضاء الوحيد
في آسيا الذي هو جزء من هذا التوجه - مع مسائل الوحدة اللاتينية.

أمير الفرنسيين الجدد، وقد أعلن حرباً بالقرب من لاتيرانو

لا على السراسنة ولا على اليهود،

ذلك أن كل عدو له كان مسيحياً

ولم يقدر لأى منهم أن ينفرد بمكان،

ولم يمارس التجارة في بلاد السلطان". [الجحيم، ٨٥:٢٧-٩٠]

ويستخدم غيدو جداليات التحريض البابوية على حملات صليبية على النحو الذى
وجد لدى أوربان الثانى وغريغورى السابع، فى انتقاد البابا لشنه حرباً ضد نويه
أنفسهم بدلاً من أن يذهب الى عكا (التي سقطت بأيدي العرب فى عام ١٢٩١).
ويسمىها "أرض السلطان". وقد أخذت هذه الملاحظة على أنها نواح مشحون بالعاطفة
ضد الدعوة البابوية للحرب بين الممالك المسيحية - والتي تبررها البابوية كحملات
صليبية - لأنها حوكت الاهتمام عن الأراضي المقدسة. والحقيقة أن البابا يونيفاتشى
شاور غيدو بشأن شن حرب فى إيطاليا. وبين عام ١٢٥٤ وعام ١٢٤٣ كانت البابوية
منخرطة بصفة منتظمة فى شن حروب إيطالية - كانت بمثابة حملات تزامنت مع

أزمات في الشرق اللاتيني - ضد الحكام المسيحيين^(١٧) . وعلاوة على هذا كانت الحملات الصليبية الإيطالية تشن ضد الغلبين من توسكانيا ولومبارديا وداخل الدولة البابوية. والواقع أن مانفرد (Manfred)، نجل فريدريك الثاني، وكان غبليانيا اعتبره دانتي مستحقاً الخلاص (المطهر، ١٠٦:٣-١٣٥)، قد حارب بالفعل ضد الدولة البابوية^(١٨) .

مع ذلك كان بابوات القرنين الثالث عشر والرابع عشر مؤيدين وداعمين للحملات الصليبية في الأراضي المقدسة^(١٩) . وتحدد تسمية مثير الحرب - وكانت إثارة الحرب موضوعاً مركزياً في الجحيم- هوية غيدو الذي يقول هو نفسه "كنت رجل سلاح" [الجحيم، ٦٧:٢٧]. ويقول فيلاني أيضاً أنه كان "أكثر ذكاء ودهاء في عبقريته بشأن الحرب مما كان غيره في زمانه"^(٢٠) .

كذلك يسأل غيدو دانتي إذا كانت رومانيا - منطقته الخاصة - في حالة سلام أم في حالة حرب. ويوضح دانتي إلى أي حد حالة رومانيا آه، أيتها الروح المختبئة هناك في أسفل، ليست وطنك رومانيا، ولا هي كانت أبداً دون حرب في قلوب طغاتها [الجحيم، ٣٦:٢٧-٣٨]. إن ملاحظات غيدو تدين بونيفاتشي الرابع مرة أخرى، وإن كانت تشير ثانية في سخرية إلى تبديد قدرته الراسخة على الشجار بين الإيطاليين، الأمر الذي كان الراعي له هو اللاتيني نفسه في أغلب الأحوال. مع ذلك فالأهم من هذا هو أن تعقيبات غيدو هي ذريعة لإخفاقه الشخصي^(٢١). إذ أنه لا يمكن أن يكون ثمة شك في أن دانتي يشجب الإثارة البابوية للحرب في إيطاليا، أما إذا كان يؤيد أيضاً الحجج الصليبية فهذا أمر آخر. إن الإشارة إلى عكا تشعل حربين معاصرتين ضد كل منهما الأخرى: الحروب البابوية - مبررة كحملات صليبية - مقابل الصراعات المستمرة في الأراضي المقدسة.

في سياق الأنشودات العديدة التي تسجل فظائع الحرب تأتي خطبة غيدو بعد الأنشودة ٢٦ في الجحيم، التي فيها لا يستطيع صوت أوليس المنساب برقة أن يغلب

تذكر فيرجيل كمين الحصان [الجحيم، ٥٩:٢٦] الذي يذكر، في مخيلة القارئ، بوصف فيرجيل احتراق طروادة. يستمر دانتي في أن يفض بصرياً كابوس الحرب بالوصف الذي يفتتح به الأنشودة ٢٨، التي تنافس الكتاب الثاني من الإنيادة لفيرجيل كشعر مناهض للحرب بعمق. وترسم الأنشودات من ٢٦ إلى ٣٣ صورة "غيرنيكية" (٥) للخيانة والخداع والتخلي والخلاف، تصف خصائص الحرب وأولئك الذين يأججونها. مع ذلك يستدعي دانتي رؤيا أخرى لفضيحة الحرب، حينما تذكره الأرواح التي أصابها الهزال - في دائرة الشريين في المطهر - بالحصار الروماني للقدس. والرؤيا نفسها تتذكر ماري، المرأة التي أجبرها الجوع على أن تكل طفلها [المطهر، ٢٣:٢٨-٣٠]؛ وتتعارض هذه الفضيحة مع تذكر ستاسيوس للحدث نفسه باعتباره انتقام الرب العادل لجريمة يهوذا [المطهر، ٨٢:٢١-٨٤].

إن سمعة غيدو السابقة كرجل حرب تتفق مع دعمه للحروب الصليبية، لكن هذا أيضاً يستحق النظر في سياق دفاعه المبرر عن أفعاله، والذي يسعى فيه ببراءة إلى إلقاء اللوم على فساد البابا لما ارتكبه من أخطاء أخلاقية. وعلاوة على هذا يقدم دانتي هذه الحكاية مع إشارات إضافية إلى الماضي الروماني مترجماً إلى سياسات صليبية: بخطوة تحد منطقية يعادل غيدو غوايته على يد بونيفاتشي مع سعى قسطنطين بحثاً عن سيلفستر (٤) ، الذي أدى في النهاية إلى تحوله وإعلان مسيحية الإمبراطورية.

(٥) (Guernica نسبة إلى لوحة بهذا الاسم رسمها بابلو بيكاسو عام ١٩٣٧ إبان الحرب الأهلية الإسبانية واعتبرت من أكثر اللوحات المعاصرة تعبيراً عن فظائع الحرب والشعور الوشيك بحلول النهاية. دين تفاؤل مباشر لمظاهر الحرب. وكانت "غيرنيكا" بداية لسلسلة لوحات تعبيرية لبكاسو رسمها طوال عقد الأربعينات من القرن العشرين. (المترجم).

(ج) Sylvester قديس، واحد من أوائل أتباع القديس فرنسيس. (المترجم).

فماذا نحن فاعلون بملاحظة غيدو، التي تمثل بدقة نقداً للسياسات الصليبية البابوية؟ تكمن الإجابة فيما إذا كان يمكن البرهنة على أن دانتي يدعم حملة صليبية في الشرق الأوسط كحل للقتال الضارى الدائر فى إيطاليا، أو إذا كان ثمة ساحة أخرى مقترحة. فى الحقيقة فإن هذا الأنشودة تشير ضمناً إلى حملة دانتي الصليبية، ذلك أن حالة غيدو هى مثال على الكيفية التى كان بها المنصب البابوى زمن دانتي يستخدم فى الصراعات السياسية المحلية، كنتيجة مباشرة لالتباس السلطتين الزمنية والروحية. كذلك فإن الإشارة إلى قسطنطين، على الرغم مما فيها من سخرية، إنما تشير إلى موضوع دانتي المستمر عن خطأ قسطنطين الذائع فى منح سلطة زمنية للحبر الأعظم فى روما - وهو خطأ أدى إلى خلق الدولة البابوية. ولأن وجود الدولة البابوية أقام سلطات زمنية بابوية، طور البابوات سياسات تدعو لحملات صليبية عسكرية ضد الممالك الغربية. وفى تحالف مع الأنجفين خلال الفترة من منتصف القرن الثالث عشر الى منتصف القرن الرابع عشر، جعل طابور من البابوات المتعاقبين إيطاليا موقعاً لحملات صليبية عسكرية^(٢٢). وفى القلب من حملة دانتي الصليبية الخاصة^(٢٣) تكرر موضوع التدخل البابوى فى الشؤون الزمنية. وهو الموضوع المركزى للكتاب الثالث من الملكية. فيه يذهب دانتي إلى أن الطول لمشكلات رومانيا وإيطاليا والإمبراطورية كلها تكمن فى إصلاح مؤسسى وهيكلى ذى بناء قانونى، للكنيسة والدولة. أما أن يقترح دانتي عندئذ مغامرة عسكرية شرق أوسطية كحل للآزمات المؤسسية لأزمته فهو عبث. لأنه لا يلمح مرة واحدة فى الملكية إلى اقتراح كهذا! وإذا كان هناك شىء يقال فهو أن كلمات غيدو تحدد بدقة مدى الافلاس الأخلاقى للسياسة البابوية السياسية وممارساتها.

حينما يدين هيو كابيه كل المتحدرين من سلالته " لقد كنت أنا النبتة الشريرة التى تغطى بظلالها كافة الأراضى المسيحية حتى أن الثمار الطيبة لم تطرح منها إلا نادرًا (المطهر، ٤٣: ٤٥-٤٥) فإنه يقترح موقف دانتي بشأن الحملات الصليبية المعاصرة. إنه

يلوم السلالة الكابيه، الذين حملوا اسم فيليبس أولويس [المطهر، ٢٠: ٥٠-٥١] لإسائتهم حكم فرنسا وشنهم الحروب فى أنحاء البلاد المسيحية.

ويشمل تشهيره بكل الملوك الذين حملوا اسم لويس وفيليب، الملك لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، الذى شنت بدعم منه الحملة الصليبية الثانية، ولويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠) الذى مات فى الأراضى المقدسة فى الحملة الصليبية الخامسة وطوبُ قديساً فى حياة دانتى. على الرغم من أنه لا يذكر أى منهم باسمه على وجه التحديد. وحينما يحكى مجدداً حياة القديس لويس، يعترف جان دو جوانفيل (Jean de Joinville - صديق الملك وأحد المعجبين به - بأنه أيضاً فقد الاهتمام بالحملات الصليبية التى كان لويس التاسع يدعمها بكل عناء^(٢٤)).

يكشف هيو كابيه سلسلة بأكملها من المكائد السياسية والهجمات العسكرية الفرنسية ضد انكلترا وهولندا وإيطاليا، ما أفضى بالنهاية إلى نقل البابا إلى أفنيون، ومن ثم يهاجم كابيه بضرارة الجشع باعتباره سبب هذه "الفوضى السياسية الأوروبية":

"أه أيها الجشع، ماذا يمكنك أن تفعل أكثر مما فعلت بنا

بعد أن أغويت سلالتى حتى لم تعد

تعباً بفلاذات أكبادها" [المطهر، ٢٠: ٨٢-٨٤]

إن هذه الفقرة، كواحدة من أشد الخطب السياسية والأخلاقية اللاذعة قسوة فى الملكية^(٢٥)، لا تستهدف المسلمين أو غيرهم من أهل الخارج. على النقيض، إنها تتوجه

(ح) Louis IX ملك فرنسا الذى وقع فى الأسر فى مدينة المنصورة فى منطقة الدلتا المصرية عام ١٢٥٠ وكان ذلك بقرار منه تفادياً لإبادة رجاله الذين غزا بهم المدينة قبل أسابيع قليلة. وقد توفى بالقرب من مدينة تونس فى عام ١٢٧٠ خلال حملة غزو فاشلة قام بها. (المترجم).

إلى قلب السلطة المسيحية اللاتينية باعتبارها أساس الإخفاق الأخلاقي والسياسي الغربي. وتذهب حتى إلى حد إدانة أولئك الذين ذاع صيت قداستهم ممن تبنا الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة.

وثمة إشارة مهمة أخرى إلى الصراع العسكري من أجل الاستيلاء على الأراضي المقدسة، يحدث في الأنشودة التاسعة من الفردوس . وشأن كل تاسوعات الأنشودات، فإن الأنشودة التاسعة من الفردوس هي بمثابة عتبة، يدخل دانتى هنا سماء الشمس، حيث يواجه - بين آخرين - فولكو أو فولكيه المارسيلى. فيحكى قصة البغي راحاب - التى تظهر إلى جواره فى السماء، والتى ساعدت يشوع فى الاستيلاء على أريحا، ذلك الحدث ذاته الذى يسمح لدانتى بأن يسكن يشوع بين الشهداء: "لأنها أيدت أول مجد ليشوع فى الأراضي المقدسة، التى قلّ أن تطوف ذكرها بخاطر البابا". (الفردوس ٩: ١٢٤-١٢٦) ويذكر إيريك أورباخ (Erich Auerbach) هذا النص بنوع خاص كواحد من الأمثلة على الكيفية التى يعمل بها نسق دانتى المجازى -التصويرى. إنه يذهب إلى أن يشوع كنوع من "المسيح" وراحاب باعتبارها "الكنيسة" قد فتحت الطريق أمام المسيح للاستيلاء المجازى على "القدس الخائنة"، ويؤكد أورباخ "أن كلا الأدبى والمجازى ينطبقان فى هذه الحالة. وفى الحقيقة فإن "سفر يشوع"^(٤) وقد أكسب طابعاً عجائزاً بهذه الطريقة تحديداً فى القرن الثالث عشر يدعم حجة أورباخ^(٢٦). وعلى سبيل المثال فإن بوناڤنتورا يستخدم مثل دخول يشوع إلى أرض الميعاد وتقديم القانون وتلقيه كعلامات (أو معجزات) - ويتعبّر آخر كبراهمين على يقين الإيمان^(٢٧). وتتسق هذه القراءة غير الأدبية للرحلة إلى إسرائيل، بصورة تامة، مع الممارسات التوراتية التى وطدها بولس، الذى يكتب قائلاً (١) فأنى لا أريد أن تجهلوا أيها الأخوة أن أباعنا

(خ) هو السفر السادس بين أسفار العهد القديم. ويشوع هو الذى تولى زمام قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى، وهو السفر الذى تظهر فيه قصة البغي راحاب. (المترجم).

كلهم كانوا تحت الغمام وكلهم جازوا في البحر (٢) وكلهم اصطبغوا على يد موسى في الغمام وفي البحر. (٣)، وكلهم أكلوا طعاماً روحياً واحداً. (٤) وكلهم شربوا شرباً روحياً واحداً فإنهم كانوا يشربون من الصخرة الروحية التي كانت تتبعهم والصخرة كانت المسيح. (٥) ولكن أكثرهم لم يرض الله عنهم فإنهم صعدوا في البرية. (٦) وهذه حدثت رمزاً لنا لنلا نشتهى الشرور كما انتهى أولئك. [رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثس ، الفصل ١٠: ١-٦] ^(١) .

في مثل هذه القراءة الرمزية تصبح راحاب ^(٢٨) كبغى وسيط قضية الحق (أو الكنيسة) على النقيض من الكنيسة الحاضرة (في ظل البابا كليمنت الخامس). الكنيسة الآن ، شأن البغى في الموكب في الأنشودة ٢٢ من الفردوس (١٤٧-١٦٠)، وتذكراً لرؤيا يوحنا (١٨: ٢-١٠)، قد تخلت عن القانون كي تنطلق في شراة مع سلطات الحكم العثمانية (فيليب العادل ملك فرنسا)، ومن ثم تدمر ذاتها. هذا هو - بالطبع - تفسير دانتي المجازي لسلسلة بأكملها من الاتصالات البابوية مع الفرنسيين، وشجارات بونيفانتشي الثامن، وفي ظل حكم البابا كليمنت الخامس، نقل الكرسي البابوي إلى أفنيون في عام ١٣٠٥. وإذا ربط فولكو (Folco) فعل راحاب الطيب بذاكرة البابا المخففة يشير إلى الأحداث التاريخية المعاصرة التي قد لا يكون لها كبير صلة بالسياسات الصليبية، لكنها ترتبط في جوانب كثيرة منها بسياسات في عالم المسيحية اللاتينية الغربية. وبدلاً من أن يسهل على المؤمنين رحلتهم إلى أرض الميعاد، فإن "بغى بابل" (أو البابوية التي امتلكت الكنيسة) تباع لحمها أو جسدها وتخونه وتلهو مع العمالة (الفرنسيين) ^(٢٩) . وكما تشير تيودولينا بارولينى (Teodolinda Barolini) في كتاب شعراء دانتي Dante's Poets فإن اللغة التي يستخدمها فولكو لوصف

(د) أثرت نقل الاقتباس من رسالة القديس بولس كاملاً من العهد القديم، وليس مجتزأً متقطعاً كما أوردته المؤلف في الأصل، حفاظاً على سياق النص المقدس وتكامله، وزيادة في فائدة القارئ من إدراك المقصود بالاستشهاد المذكور. (المترجم).

راحاب - مقرونة بشجبه للبلاط الرومانى - هى لغة فظة تليق بصليبي^(٣٠). مع ذلك،
فبينما يضع الشاعر تركيز فولكو على مثال عسكري محدد لعمل مسيحي فإن دانتى لا
يتبنى هنا حملة صليبية فى الأراضى المقدسة. إنه بالأحرى يدين الكنيسة المعاصرة
لتخليها عن واجبها باعتبارها عروس المسيح، عن طريق تواطؤ سياسى غير مشروع مع
الفرنسيين واستعمال زائف لحملة صليبية لتبرير أفعال ضد المسيحيين فى إيطاليا
وبلدان أوروبية أخرى^(٣١). تخنق البابوية - كحارس للزورق الصغير^(٣٢) [المطهر،
١٢٩:٣٢] - أى الكنيسة، فى تذكر مسؤولياتها عن توجيه دفتها.

والحقيقة أنه فى حكاية فولكو فإن الأشعار التى تلى قصة راحاب تلقى ضوءاً
على الكيفية التى بها تهجر الكنيسة الحاضرة واجبها أن ترعى قطيعها، حيث انحدار
منزلة فلورنسا كمثل أولى على اهمالها. وعن البابا والكرادلة يلاحظ فولكو أن أفكارهم
لا تذهب نحو الناصرة حيث ينشر جبريل جناحيه [المطهر، ١٢٧:٩-١٢٨]. وهنا مرة
أخرى لا يذكر دانتى بالاسم مدينة الناصرة باعتبارها موقع سياسات صليبية، إنما
باعتبارها المكان الذى وقع فيه التجسيد، حيث أتاح تواضع مريم وبساطتها وطاعتها
للکمة بأن يتحول لحما، وباعتبار الناصرة الاسم الذى يذكر بمعنى ذلك
الحدث ويواصل فولكو- مستذكراً هذا الزنا الخائن ومذكراً إيانا بدم الشهداء الذى
يقدس الأرض الرومانية - إدانة الكنيسة المعاصرة، فيلاحظ أن

الفاتيكان وسائر أنحاء روما الأخرى المختارة

التي أصبحت قبوراً للجنود الذين اتبعوا خطى بطرس

سرعان ما ستحرر من هذا الزنا. [الفردوس، ١٢٩:٩-١٤٢]

إن لاختيار فولكو تقديم هذه الأرض المقدسة المجازية غرضها رمزياً إضافياً. فإن
فولكو، المولود نحو عام ١١٦٠، فى عائلة من تجار جنوه الأثرياء، كان شاعراً
تروبادورياً (غنائياً) أصبح - بعد أن أمضى حياته فى المتعة فى بلاطات ريتشارد قلب

الأسد وألفونسو الثامن ملك قشتالة Castille وريمون الخامس (كونت تولوز) وباريل دويو - محارباً عنيداً ضد الهرطقة الأليبيجية^(٣٢) . وفولكو هو - إلى جانب دانتي وسان فرانسيس - الشاعر العامي الوحيد في السماء. والأهم من هذا أنه كشاعر صليبي ضد هرطقة الأليبيين هو أيضاً شاعر فريد لأن التروبادور والتروفيير ومنشدى المينى Minnesingers الذين كانوا أساساً نقاداً للحملات الصليبية الأليبية وندبوا باستخدام الصليبية البابوية ضد الهرطقة في الغرب^(٣٣) . وعلى النقيض من زملائه الشعراء، إنما شأن القديس دومينيك، حمل فولكو الصليب وقاتل ضد الخطر المتصور على حق المسيحية في قلب العالم المسيحي اللاتيني. إن أمثلة غيدو دا مونتييلترو وفولكو ودومينيك تشير معاً إلى موقف دانتي بشأن شن الحملات الصليبية الغربية: إنه يجزى دومينيك وفولكو على صليبيتهم العادلة ضد الهرطقة، لكنه يندد بالباباوات لدعوتهم إلى حملات صليبية للدفاع عن مصالحهم الزمنية والإقليمية. إن فولكو - شأنه شأن راحاب ويشوع - وعلى النقيض من الأرواح النازلة في الجحيم، وخاصة ميديوسا، في الأنشودة التاسعة من الجحيم، التي حاولت أن توقف رحلة دانتي - أعدوا طريق الرب^(أشعيا، ٤٠: ٢، مرقس، ١: ٢-٢) وهو موضوع ملائم لاستهلال ، خاصة وأن حياة دومينيك تتكشف في الأنشودة التالية.

وعلى الرغم من أنه من الواضح ان دانتي يؤيد الحملة الصليبية المجازية والحملة الصليبية الحقيقية - على السواء - ضد الأليبيين، في سماء الشهداء، يبدو أيضاً أنه يتبنى خطابية صليبية تماثل تماماً الحروب ضد العالم العربي. فهو هنا يصف أولئك الذين قاتلهم كاشياغويدا باعتبارهم العامة الحمقى [الفردوس، ١٥: ١٤٥] و"القانون" الذي يتبعونه باعتباره الظلم [الفردوس، ١٥: ١٤٢] وهو يستذكر أيضاً لغة "الحرب العادلة"، "حريك" (١٤٤) حينما يشرح كاشياغويدا - جد دانتي الأكبر - أنه مات كشهيد مناضل. وأريد أن أخص هذه السطور بعناية لأنني سأقترح قراءة بديلة للقراءة السائدة في الوقت الحاضر:

بعد ذلك تبعت الإمبراطور كونراد، لقد طوقنى بفروسيته

وقد فزت بالكثير من رضاه بما أدبت من عمل طيب

وفى أعقابها ذهبت ضد ظلم ذلك القانون الذى يغتصب

من يتبعوه حقكم بخطيئة رعيانكم.

وهناك خلصنى القوم الحمقى من عالم الخداع

الذى تتحدر كثير من الأرواح بمحبتها له

ولقد جئت من الاستشهاد إلى هذا السلام [الفريوس، ١٣٩:١٥-١٤٨]

إن الرأى الشائع هو أن كاشياغويدا قد اتبع كونراد الثالث (١٠٩٢-١١٥٢) فى الحملة الصليبية الثانية وأنه مات وهو يقاتل "الكفار"^(٣٤) فى عام ١١٤٧. وثمة التباس بشأن ما إذا كان بإمكان كونراد الثالث أن ينصبه فارساً؛ ولا يوجد سجل لأى فلورنسى نصب فارساً على يد كونراد الثالث، على الرغم من أنه توج فى ميلانو فى عام ١١٢٨. وأود أن أقترح أنه، وإن كانت هذه الفقرة يمكن أن تشير إلى الحملة الصليبية الثانية، فإن نوع اللغة المستعملة هنا يميز أكثر هجمات دانتي القاذحة الموجهة ضد فساد البابوية والممالك الغربية. ومن الأمور ذات الدلالة أن كتاب التسلسل التاريخى للأحداث وغيرهم من الكتاب الذين تناولوا الحملات الصليبية كانوا يستخدمون مثل هذا القدر ضد المسيحيين الذين كان اللوم على فشلهم يلقى نواقصهم الأخلاقية. وعلى سبيل المثال فإن جون سولزبورى John of Salisbury (الذى يميل لأن يكون مؤيداً للفرنسيين أكثر منه مدافعاً عن كونراد الثالث) يكتب - مع ذلك - عن الحملة الصليبية الثانية قائلاً إلى جانب سوء الطالع الذى ألم بالمسيحيين بفعل خداع الإمبراطورية البيزنطية وقوات الأتراك، فإن جيشهم قد أضعفته غيرة الأمراء وشجارات القساوسة. والجرمانيون رفضوا أن تكون لهم أية صلة بالفرنجة... قائلين إن الفرنجة

لا يعنون شيئاً لهم^(٢٥) . وبالمثل، يجد برنار في كتابه De Consideration^(٢٦) أن المسيحيين اللاتينيين مسؤولون عن إخفاق الحملة الصليبية الثانية.

وخلافاً لكونراد الثالث فإن كونراد الثاني كانت له حملة في إيطاليا، واتبع هناك سياسة صارمة، شبه وحشية. والحقيقة أنه تبني خطأ سياسياً يعكس أشواق دانتي القانونية - السياسية الخاصة. وعلى الرغم من أنه سعى للحصول على دعم بابوي لمركزه الإمبريالي وتوج في روما في عام ١٠٢٨، فإنه - أي كونراد الثاني - شرع في خفض السلطة الزمنية البابوية؛ وحينما أصدر دستوراً في عام ١٠٢٧ أنهى العمل بقانون لومبارد اعتبر ذلك انتصاراً لطبقة النبلاء الرومان وحكومتهم لأن هذا الدستور أعاد إقرار شرعية روما الإمبراطورية. وعلاوة على هذا فإنه انخرط في معركة ضد المسلمين في إيطاليا حيث كان هؤلاء قد استقروا هناك لمدة مائتي سنة. والمهم أنه حينما أقام كونراد الثاني - وهو جرمانى - في رافينا وفي روما أفضت مشاعر حادة معادية للجرمانيين هناك إلى وقوع اضطرابات خطيرة^(٢٧) . ويكتب جون سولزبوري عن كونراد الثالث أن جيشه دمر أولاً بفعل طيش الجرمانيين، في حين تعرض الفرنجة للخطر بفعل اندفاع وإهمال جوفري رانسون^(٢٨) (Geoffrey of Rancon). وإننى، إذ أقترح هنا أن دانتي قد بالغ في قيمة الكونرادين، فإننى أذهب إلى أن ما هو مهم في دور كاشياغويدا في القصيدة هو تركيز دانتي على الاخفاقات اللاتينية الغربية. لقد واجه كلا الكونرادين مقاومة شديدة لقيادتها الإمبريالية من النبلاء ورجال الدين المسيحيين اللاتينيين الآخرين.

يبدو أن كاشياغويدا يعتبر "الناس الرعاع" مسؤولين عن موته - لكن هؤلاء "الناس الرعاع" يمكن أن يكونوا هم أولئك الذين أحبطوا كونراد الثالث، وحينما يصف دانتي موت كاشياغويدا بأنه "شهادة" فإنما يجعل من حملته الصليبية الخاصة الشعرية والسياسية والشهادية الممكنة موازية لجد جده الأكبر. ومثل هذا التفسير يجعل حياة كاشياغويدا صيغة من تعريف بوناغنتورا لـ "الشهادة". أى أنه - مصداقاً لخدمته

للإمبراطور الألماني - لم يغوه حب العالم، والنضال ضد "الناس الرعاع" (أولئك الذين تمردوا على حكم كونراد)، فكوفى كاشياغويدا على عمله الطيب وأتى إلى "هذا السلام" كواحد مات من أجل الحقيقة. وكما كتب بوناغنتورا في مناقشته للشهادة "أى نبى لم يُضطهد فى موطنه؟ لقد كان هذا برهاناً على الحقيقة"^(٣٩). كذلك فإن هذه القراءة تقرب قصة حياة كاشياغويدا إلى قصة حياة دانتي نفسه، وهى التى يخصص دانتي - من أجل كشفها - لكاشياغويدا المركز الوسط فى ظهوره الذى يشغل ثلاث أنشودات، يربط الشاعر فيها منفاه الشخصى باستشهاد سلفه.

فى الحقيقة، إن كتمان دانتي حملات الأراضى المقدسة الصليبية و تأكيده على حركة الغرب لرؤية الأيقونة الحقيقية (الفردوس، ١٠٤:٢١) يشير إلى الغرب باعتباره موقع التحول إلى المسيحية، وهو هدف الحج - الحملات الصليبية. ويجذب انغماس كاشياغويدا فى شواغل دولة فلورنسا الانتباه بالمثل إلى الحملات الصليبية التى اعتبرها دانتي جوهرية لإيطاليا المعاصرة. وبحلول نهاية القرن الثالث عشر، وبلا شك نتيجة سقوط عكا، كانت الحماسة العلمانية للحروب الدينية قد خبت. وعلى الرغم من أن بعض المؤيدين - بيبير ديبوا وثاديو نابولى وفيدينزو بادوا - على سبيل المثال - ظلوا على تأييدهم فإن مشاعر مناهضة للصليبيين نمت، ليس فقط بسبب إخفاقات الحملات العسكرية ضد الإسلام، إنما أيضاً لأن المواطنين كانوا قد سجلوا مظاهر فساد رجال الدين الغربيين وأصبحوا ينظرون إلى الحملات الصليبية كوسيلة لفرض الضرائب^(٤٠).

بين أصلب المؤيدين فى القرن الرابع عشر تتداخل الحياة العملية لاثنتين من الإيطاليين مع حياة دانتي: حياة ثاديو نابولى (Thaddeo of Naples) وحياة فيدينزو بادوا (Fidenzio Padua). آخرون مثل المحامى الفرنسى بيبير ديبوا ومارينو سانودو - مثلهم مثل دانتي - كانوا يسعون إلى فضح فساد البابوية والتقاتل العشوائى بين المسيحيين^(٤١). فى كتاب De Recuperation Terre saucta الذى كتب فيما بين عام

١٣٠٥ و١٣٠٧ (بعد انتخاب كليمنت الخامس ونفى مقر البابوية إلى أفنيون) يذهب بيبو ديبوا إلى أن الحملات الصليبية والإجراءات الكنسية الأخرى (مثل الحرمان من الكنيسة) التي استخدمت ضد المسيحيين لأسباب سياسية كانت أمثلة على انتهاك سلطة الحبر الأعظم، وتظهر في مؤلف ديبوا - الذي يبرهن على مفهومه المتخيل عن غرب لاتيني موحد - سمات مشتركة مع كتاب دانتي الملكية، ذلك أنه يقترح سلاماً بين الملوك الأوروبيين كافة، وإصلاحاً وتعليماً كنسياً، وقمعاً لسلطة البابا الزمنية^(٤٣).

وعلى الرغم من أن ديبوا ودانتي يواجهان الأزمة السياسية والأخلاقية ويشاركان في المعتقدات السياسية، إلا أنهما يعرضان حلولاً مختلفة للمشكلات التي يتناولنها^(٤٤). كتاب الملكية يلتزم الصمت بشأن الحملات الصليبية إلى الأراضي المقدسة، في حين - على النقيض من ذلك - يشكل اجتياح الأراضي المقدسة الدافع الأولي للمزعم لكتاب ديبوا. فكتاب في الاسترداد (De Recuperation) يقترح أن تكون الحملات الصليبية والوحدة الأوروبية تحت تصرف ملك فرنسا بينما يبقى البابا في أفنيون. ويميز هذا بصورة جذرية سياسات ديبوا عن سياسات دانتي^(٤٥). ففي الأنشودة الختامية من المطهر يصف العلاقات الفرنسية - اللاتينية بأنها دعارة - إشارة إلى أنه يختلف جذرياً عن نظريات ديبوا التي يراها الفرنسيون ويؤيدونها سياسياً. كذلك فإن إدانة هيو كابيه للملوك الفرنسيين والموكب الذي يختم المطهر يدل بصورة مقنعة على إن دانتي لن يؤيد أيًا من الزعامة الفرنسية لأوروبا متحدة ولا الحجج الصليبية التي كانت تدعمها. مع ذلك، فإننا نرى في اثنين من أهم المنشاير السياسية لفترة أوائل القرن الرابع عشر - منشوري دانتي وديبوا - مفهوماً أن لم يكن ممارسة لجماعة أوروبية متحدة.

وثمة برهان آخر على أن دانتي يرفض السياسات الصليبية وحججها التي كانت موضع مناقشة في عهده هو جمعه في الفردوس، الأنشودة ١٩. بين مسألة خلاص الوثنيين والحجج ضد فساد الملوك المسيحيين. بين هؤلاء الزعماء ملوك غربيون كثيرون

نشطوا بعد سقوط عكا، وتشير الانقسامات الحادة بينهم بصورة جازمة إلى إخفاقات غربية. تتضمن القائمة شارل الثانى ملك نابولى (١٢٧) الذى كانت له مزاعم فى مملكة القدس، وجيمس، ابن جيمس الأول الأراغونى (١٣٧) الذى حارب ضد بيدرو الثالث الأراغونى وخسر مملكته - بما فيها جزر الباليار وفالينسيا، التى كان أبوه قد انتزعها من العرب. ويشجب دانتى أيضاً بقوة فيليب العادل (١١٩) وألبرت الأول (١١٧) وإدوارد الأول وإدوارد الثانى ملكى إنكلترا (١٢١-١٢٢) وفريديناند الخامس ملك قشتالة (١٢٥) ودينيز ملك البرتغال (١٣٩) وكانوا جميعاً قد حملوا السلاح ضد ملوك مسيحيين آخرين. وأهم دلالة من هذا كله أن الشاعر يضيف هنرى الثانى من لوزنيان (Lusignan) ملك قبرص وملك القدس الاسمى (١٤٥-١٤٨). الذى أعيد خلال فترة حكمه الاستيلاء على عكا والذى كان داعية قوياً للحملات الصليبية؛ وقد أدى هنرى دور المخبر لصالح المجلس البابوى ومارس الضغط لدى كليمنت الخامس لإقناعه بدعم الحملات الصليبية^(٤٥).

إما أن يتبنى دانتى خطابات الحملات الصليبية على الأراضى المقدسة وسياساتها فى الأنشودة عن كاشياغويدا ليناكش تاريخ فلورنسا وتراثها الرومانى- وليناكش بالمثل مستقبله الشخصى - فأمر يوحى بأنه لا ينظر إلى الحملات الصليبية كشاغل سياسى ملج، على الرغم من أنه يضع الأبطال الصليبيين، من مسيحي الغرب والتوراتيين على السواء - فى السماء ويشيد بشجاعتهم. والحقيقة أنه طوال القصيدة نلمس أن الانشقاق، سواء الفكرى أو السياسى أو الدينى، هو هدف مجادلاته. فإب اختيار دانتى للشخصيات التى تمثل الصوابية العسكرية - رولاند وشارلمان وليام ورينووار، على سبيل المثال- يظهر تركيزه على أوروبا وهجومه على النزعة الانقسامية والتفتت داخل السياق اللاتينى الغربى. مع ذلك فإن قصص يهوشع ويهوذا التى كتبها ماكابوس تشير بطريقة مجازية إلى الصراعات والصدامات التى لا بد تسبق الدخول المظفر إلى أرض الميعاد الرمزية وتحقيق رؤيا السلام.

إن الأشعار المركزية فى أنشودات كاشياغويدا تأتى حينما يبلغ الجد الأكبر لجد دانتي بالصراع الذى سيخوضه فى المستقبل ، " هذه تفسيرات ما قيل لك " [الفردوس، ١٧: ٩٤-٩٥]؛ كان الشاعر قد أبلغ فعلاً بهذا الأمر فى مناسبات عدة خلال القصيدة، ولكنه فيما يبدو لم يصدقه تماماً (فى الجحيم ١٠، ١٥، ٢٤ على سبيل المثال). يتبنى دانتي فى هذه الأنشودات - بآثر رجعى - مشروع قصيدته، على نحو ما يصف كاشياغويدا بطريقة لازمة المعاناة الآتية، متحدثاً عن حفيده "سوف تترك كل شيء كنت مشغولاً به" [الفردوس، ١٧: ٥٥-٥٦]. وحينما يستمع دانتي إلى هذه الكلمات المريرة عن مستقبله، يستجيب بخبطته الشهيرة بالدرجة نفسها، والتي يضطلع فيها بمهمته كشاعر - وهى مهنة يربطها بخلاصه الشخصى: "من ثم فمن الخير أن أتسلح بالبصيرة، حتى إذا ما أخذ منى أعز مكان لدى لا أفقد كل ما عدا ذلك بسبب أغنياتى [الفردوس، ١٧: ٩٠-١١١]. إن كاشياغويدا إذاً يلقي على سليله مسؤولية إزالة كل زيف، وإبراز ما قد رأيت [الفردوس، ١٧: ١٢٧-١٢٨] إنما يجعل دانتي مسؤولاً عن حملة صليبية: إنها دعوة مناسبة حيث أولئك الذين ماتوا من أجل الحقيقة مباركون إلى الأبد. لا بد لدانتي - وقد دُعِيَ ليكون نبي الإصلاح - وهو إصلاح يتركز، بصورة لها دلالتها، على أوروبا - أن يصور. كل الأرواح ذات الشهرة" [الفردوس، ١٧: ١٢٨] فى حملته الصليبية. يتعين عليه أن يكشف فساد الكنيسة وفساد مدن إيطاليا، وفساد الملوك المسيحيين الذين رأهم فى "رؤاه" على النحو الذى يكشف النقاب عنه فى القصيدة. قبل ذلك كانت بياتريس قد حذرت كى يتذكر ما رآه حينما كان الموكب يتكشف أمام عينيه وما تراه فلتعتمد إلى كتابته حينما تكون قد عدت بعيداً [المطهر، ٢٢: ١٠٤-١٠٥]. يقبل دانتي هذه التحديات، ذلك أن رده على المنفى الوشيك هو أن يتولى دور الصليبي، ذلك الذى رؤاه لـ "المشاهد" ستنشر. أصبح شعره - على حد تعبير جيان روبرتو ساروالى "فن حرب أدبى": إنه كما الشهداء سوف "ينهض" و"ينتصر" [الفردوس، ١٤: ١٢٥] (٤٦).

يعود دانتي إلى مستقبله كشاعر منفى فى المقاطع ذات العلاقة فى الأنشودة الخامسة والعشرين من الفردوس- والأمر الذى له دلالة أنها أنشودة استقهامه عن الأمل، التى تصف دوره الشعري مع الأمل المسيحى. فهو هنا يقوم بدوره كاملاً، دور النبى الشعري، مشيراً الى قصيدته باعتبارها "القصيدة المقدسة" (الفردوس، ١:٢٥) ويعبر عن رغبته فى العودة إلى فلورنسا كشاعر (الفردوس، ٨:٢٥). وتهيمن لغة الحملات الصليبية والحج على هذا المقطع، حيث تبلغ بياتريس القديس جيمس أن "أمل" دانتي معبر عنه فى نضاليته الكنسية:

ليس للكنيسة المناضلة ابن يملكه الأمل أكثر منه، كما هو مكتوب فى الشمس التى تشع علينا بكل صفوفنا. لهذا أتيح له أن يأتى من مصر إلى القدس حتى يمكنه أن يراها قبل أن تكتمل الفترة التى يقضيها فى الحرب. [الفردوس، ٥٢:٢٥-٥٧]

تؤكد بياتريس أن روح النضال والأمل مكتنا دانتي - مثل يهوئشع - من أن يأتى إلى القدس الرمزية (رؤيا السلام) من مصر الرمزية، إلى السماء قادماً من الأرض، وإلى الفردوس من الغابة السوداء. تلك كلها رحلات روحية أو مجازية يشكل شعره الطريق إليها. وفى الحقيقة، فإن القصيدة نفسها هى هذه الرحلة. إنها تمثل فضاء النص يتغلب على الحدود التى تفصل دانتي عن النظام الرؤيوى والتنظيم الذى يحكم عالمها الشعري، الذى هو أيضاً انعكاس للنظام الإلهي.

ليس دانتي وحده فى تولى هذا النوع من الحملات الصليبية. إنه يفرد - فى الفردوس - شخصيات كأمثلة على من شنوا هذه الحملات - القديس فرانسيس والقديس برنارد على سبيل المثال. فقد كان القديس فرانسيس - كالشمس التى تطلع فى الشرق- معروفًا بأنه سافر شرقاً فى محاولة لإقناع السلطان بالتحول إلى المسيحية^(٤٧).

فى حضرة السلطان المعظم بشر بالمسيح وبأولئك الذين ساروا على دربه، ولما وجد الناس غير مهينين للتحول، وحتى لا يبقى بلا جدوى، عاد ليجنى حصاد حقول إيطاليا. [القرنوس، ١٠١: ١٠٥]. تتوازي مقارنة القديس فرانسيس للحملات الصليبية مع مقارنة دانتى، ذلك أنه حينما وجد الناس غير مرحبين بمفاتحاته عاد إلى إيطاليا. وكصليبي حمل "علامة المسيح الأخيرة" [القرنوس، ١١: ١٠٧] فى أوروبا. ربما يكون القديس فرانسيس هو النموذج الذى يقترحه الشاعر للعلاقة مع الإسلام: محاولة حوار وتحول فى العقيدة بطريقة سلمية، لكن إذا فشل هذان، يرفع الصليب فى إيطاليا. والواقع أنه على الرغم من عدم وجود دليل تاريخى على أن القديس فرانسيس عارض استخدام القوة ضد الإسلام، فإنه مع ذلك استنكر أفعال الجيش المسيحى، وأعتقد أنها ستؤدى إلى هزيمته.

وفى حين أن نظامى الرهينة الجديدين - الدومينكان والفرانسيسكان - لم يعارضا بالتحديد الحركة الصليبية، فإنهما دافعا بالفعل عن تحويل العقيدة سلمياً. وهما فى هذا حذوا حذو مقارنة بطرس المبجل قبل قرن من الزمان. كان بطرس المبجل - وهو أول من أقر بضرورة حوار فكرى مع الإسلام - يعتقد أن الإسلام هو "عدو صليب المسيح". مع ذلك فقد أوصى بالقيام بجهود سلمية لتحويل العقيدة بدلاً من مواجهة حربية. وهو - فى الحقيقة - نازع برنارد كليرفو حول كيفية مقارنة الخطر المتصور على المسيحية الذى يشكله الإسلام. قال بأن الغرض من حملة صليبية هو تحويل العقيدة وأن سلوك الصليبيين قد قوض معظم الاهداف المركزية^(١٨).

أما الرد الفرانسيسكانى على الحملات الصليبية التى رعاها الكرسي البابوى فى القرن الثالث عشر فقد كان متعدد الأوجه. وحينما كان بوناڤنتورا يكتب مؤلفه عن حياة القديس فرانسيس، فإنه زار كل الأماكن الإيطالية التى عاش فيها هذا القديس، لكنه كرئيس للنظام الرهبانى كان يستنكر المشاهدة المادية كوسيلة للرؤية الروحية. وهو لم يزر أبداً ما كان يدعوه أرض الميعاد. وحينما يلاحظ فى بعض المواضع من كتابه

التعليق على لوقا يشبه بوناغنتورا الجغرافية- كما كانت ممارستها في التفسير التوراتي - فهو، على سبيل المثال، يجعل بيت لحم موقع تحقق وعد الرب بأن يوفر حاكماً تكون له السيطرة على إسرائيل ويدمر أعداءها ويقيم حكماً أبدياً (إنجيل لوقا-٢) (٤٩). وعلى الرغم من أنه يعترف بتاريخية أماكن معينة - فيلاحظ، على سبيل المثال، أن هيرود حكم الجليل، ولكن القدس، حينما كان يحكمها بيلاطس البنطى، كانت هي مقر السلطة الرومانية (٥٠). فإن بوناغنتورا يتحدث عن "الأرض الموعودة" بوصفها مكاناً روحياً. كانت طريق العقل إلى الرب (٥١) (Interarium Mentio in Deum) فكرته عن الحج، رحلة أوغسطينية (داخل أنفسنا)؛ فالأرض الموعودة كانت مكاناً للروح (٥٢). مع ذلك فإن بوناغنتورا - بعد مجلس ليون، الذى كان قد اختتم ببرنامج للإصلاح الغربى للسلوك الكنسى والرهبانى، ويوحدة المسيحيين، والدفاع عن الأرض المقدسة - أوصى رسمياً بأن يصلى الأخوة للحملات الصليبية ويبشروا بها (٥٣). وبحلول عقد الستينيات من القرن الثالث عشر، كان نقاد فرانسيسكانيون، مثل روجر بيكون (٥٤)، يدلون بحججهم للتدليل على أن الحملات الصليبية عرقلت مشروعات التحول العقائدى وأن التبشير والتعليم يمكن أن يكونا أكثر نجاحاً (٥٥).

أما القديس برنار - آخر مرشد لدانتي فى القصيدة - فيصور فى واحد من أبرز مواضعها (الفردوس، ٣١:٣١-٣٢) . إن القديس برنار - رمز أكثر أشكال الارتقاء التاملى جلالاً- فريد فى بابه لأنه حتى بياتريس تخضع له (٥٦). وإذ يرتبط بصورة

(ن) هذا عنوان أهم كتاب ألفه بوناغنتورا (المترجم).

(ر) Roger Bacon (١٢١٤-١٢٩٤) فيلسوف وعلم إنكليزى، أطلق عليه فى عصره لقب دكتور ميرابيليس (أى الجدير بالإعجاب). كان أهم مؤلفاته الموسوعة الكبرى Opus Majus التى دعا فيها إلى توسيع الدراسات المسيحية لتشمل العلوم والرياضيات إذا أريد للكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن تبقى قائمة للحضارة الإنسانية. فى عام ١٢٧٨ أعلن النظام الرهبانى الفرنسيسكانى الذى كان قد انخرط فيه قبل سنوات أن يكون مهترق وألقى به فى السجن فى عام ١٢٩٢ حيث مات. (المترجم).

تخيلية وتاريخية بالحملات الصليبية وتقديس مريم، فإنه يمثل صورة مصغرة الصلة الداخلية بين الإيديولوجية الجيوسياسية والاعتقادات الثقافية - الدينية. فى يوم عيد الفصح من عام ١١٤٦ كان برنار ييشر، داعياً إلى الحملة الصليبية الثانية تأييداً للملك الفرنسى لويس السابع، أحد الملوك حاملى اسم لويس الذين أدانهم هيو كاييه، والحملة الصليبية ذاتها التى يفترض أن كاشياغويدا لقي حتفه فيها . لقد أصبح برنار "المبشر الأساسى والروح الهادية للحملة الصليبية الثانية"،^(٥٥) يبلور الدعم العسكرى والسياسى لها. مع ذلك، فإنه كان يحظر على الرهبان حمل السلاح، وكان يأمر بمنع دخولهم البيوت البندكتانية إذا هم فعلوا . بالإضافة إلى هذا فإن كتاب De Consideratione ad Eugenium Papam - وهو الكتاب الوحيد لبرنار الذى يشار إليه على وجه التحديد فى أعمال دانتي - على الرغم من أنه يظهر أيضاً فى رسالة إلى كان غراندى ديلا سكال (Letter to can Grande della Scala) - وهى بحث من خمسة أجزاء عن العلاقة بين الكنيسة والدولة. ويعالج الفصل الثانى نتائج الحملة الصليبية الثانية، أما بقية الفصول فيحض البابا (يوجينيوس الثالث، الذى يوجه البحث إليه) على أنه يبتعد عن الأمور الزمنية وعن خطط السلطة.

وقد ألف كتاب De Consideratione فى لحظة كان يُحتفى فيها بنظرية سياسية قوية عن "الإمبراطورية البابوية" تصل رجوعاً إلى الأفكار القسطنطينية التى تحولت آنذاك إلى ملكية بابوية. لقد تحول تومه إلى النصوص التوراتية (مفاتيح ملكوت المسيح [إنجيل متى، ١٦: ١٩]، لأنه جلب سيقاً وليس سلاماً [إنجيل متى، ١٠: ٣٤-٣٥]؛ وأمره بأن "أعط ما لقيصر" [إنجيل متى، ٢٢: ٢١] وإنجيل مرقس، ١٢: ١٧، وإنجيل لوقا، ٢٠: ٢٥)، يستنكر برنار النظرية التى تضع سلطة البابا على الدولة باعتبارها سقطة خطيرة ويدعو متشدداً إلى فصل السلطات. وحينما يركز برنار على الغرب اللاتينى يحمل تبريره لمعارضة هذه السياسات البابوية كثيراً من ملامح التماثل مع الفصل الثالث فى كتاب الملكية، الذى فيه تطور دانتي أسبابه لدعم فصل السلطتين الكنسية

والزمنية - من ناحية مبدئية على أساس قول لوقا عن "سيفين"^(٥٦) (ز) . ويقرب بوناغنتورا شواغل برنار إلى زمن دانتي، فنجد أن كتاب بونيفاتشي الثامن الواحد المقدس Unam Sanctam (١٣٠٢)، الذي يعنفه دانتي في الفصل الثالث من الملكية، كان إحياء للنظرية الإمبراطورية ذاتها التي ساق برنار حججه ضدها. في هذه الوثيقة يؤكد بونيفاتشي أن الكنيسة مفوضة من الرب كحاكم في الملكوت الزمني وأن السلطة الزمنية ينبغي أن تخضع للسلطة الروحية^(٥٧) . إن كتاب برنار De Consideratione وبالمثل بعض رسائله ومقالاته الأخرى تبين أنه كان مضطرباً أشد الاضطراب بسبب تورط الكنيسة في شؤون دنيوية وأنه كان يعتبر هذا السبب والنتيجة على السواء للثروة والسلطة السياسية.

ولا يبدو أن ثمة شيئاً مشتركاً بين برنار الذي نراه في الكوميديا و برنار الذي كان يبشر بالحملة الصليبية الثانية. مع ذلك فإن الأنشودات التي يظهر فيها وهو يلح من طرف خفي إلى الصليبيين وإلى الأزمة التي لم تحل، أزمة فصل السلطات - التي تشير إليها بياتريس غاضبة، في آخر كلماتها قبيل تولى برنار مباشرة دوره كمرشد: وعلى ذلك الكرسي العظيم.

سيجلس الروح الذي سيصبح في هذا العالم إمبراطوراً

روح هذا المعظم الذي سيأتي ليقوم إيطاليا

قبل أن تكون مهياة لذلك [الفردوس، ١٣٣:٣٠-١٣٨]

ومثل ماركو لومباردو، الذي يشير إلى "الإرشاد السيء" [المطهر، ١٠٣:١٦] وهيو كاييه، الذي يختار "الجشع" [المطهر، ٨٢:٢٠] باعتباره المجرم، تلقى بياتريس اللوم على "الطمع الأعمى" [المطهر، ١٣٩:٣٠] بشأن الأزمة الراهنة:

(ز) في إنجيل لوقا (٢٢: ٣٨) "فقالوا يا رب إن ههنا سيفين، فقال لهم يكفي" (المترجم).

وعلى هذا سيصبح عندئذٍ حاكماً فى المنصة الإلهية

من لن يسير معه علناً أو سراً فى الطريق ذاته

إنما ليس لوقت طويل، فالرب لن يدعه

فى هذا المنصب المقدس، بل سيرديه الى أسفل

حيث سماعان المجوسى يكفر عن خطاياہ (الفردوس، ١٤٢:٣٠-١٤٧)

وتسجل كلمات بياتريس الختامية، بينما يتم الانتقال إلى أنشودات برنار التأميلية، تسجيلاً يبقى إلى الأبد التدخل السياسى من جانب البابا فى مغامرة هنرى السابع الإمبراطورية. كذلك فإن تلك الكلمات تستذكر الإصلاح البنىوى الذى اقترحه دانتي فى كتابه الملكية باعتباره قلب دعواه السياسية: الفصل بين السلطتين الكنسية والزمنية. وهذه هى ذاتها الشواغل البنىوية التى يثيرها برنار فى *De Consideratione*. وفى كلا هذين الكتابين فإن محور التركيز الجغرافى هو الغرب اللاتينى.

تحدث ذكريات إضافية عن تاريخ برنار السياسى فى الأنشودة ٣١ من الفردوس. هاتان الإشارتان إلى الحجاج هما تشبيهان يشبه دانتي فيهما نفسه بحاج. وبالنظر إلى النماذج بين المحارب الصليبي والحاج فى الخطاب الصليبي، لا يمكن أن يكون هذان التشبيهان عارضين. فى أولهما يستذكر دانتي سلوك الحجاج والعهود التى يقطعونها على أنفسهم، وهم الذين تجددهم رحلاتهم، وهو يجعل من أسفاره الشعرية رحلة أوغسطينية موازية لرحلات أولئك الحجاج (الفردوس، ٤٢:٣١-٤٨). أما الإشارة الثانية فى الأنشودة إلى رحلات الحج فإنها ذات علاقة خاصة ببرنار لأنها تشير إلى "فيرونيكا":

وشأن من كان ربما، يأتى من كرواتيا

لكى يلقى نظرة على تحفتنا فيرونيكا

دون أن يشبع بها جوعه القديم إليها
إننا يقول متفكرًا في ذاته طالما كانت معروضة

يا يسوع المسيح إلهي، الرب الحق، : أكانت صورة وجهك هكذا إذن؟

هكذا كنت بينما أبعد النظر إلى المحبة الحية

لمن ذاق بفعل التأمل في هذا العالم

طعم ذلك السلام [الفريوس، ١٠٣:٣١-١١١]

إن عددًا من السمات في هذه الإشارة الثانية يبدو موجهًا نحو أدبيات الحملات الصليبية - الحج. أولاً التركيز الشديد على البصر، حيث فيرونیکا شيء ينبغي أن يرى. وبينما كلمات "نظر" (Veder) و"عرض" (mastra) و"منظر" (sembianza) و"مشهد" (Mirando)^(٥٨) ترحى جميعاً بالرؤية المادية، فإن البصر المادي يخفق في إشباع الحاج. والتأكيد على البصر الأدبي هو السمة الأكثر تماسكاً من سمات مسردات الحملات الصليبية - الحج، ابتداءً من إيجيريا(س) وجيروم(ش). وفي الحقيقة، فإن داعي الذهاب إلى الأماكن المقدسة هو رؤيتها. ولكن دانتي يتجاوز هذا البعد في الحملات الصليبية. فهو - بصورة غير تقليدية - يمثل حاجاً صليبيًا يسافر باتجاه الغرب، وليس باتجاه الشرق، ليرى الأيقونة الحقيقية. فدانتى - مثله مثل القديس فرانسيس الذي عاد من حيث يحكم السلطان، ومثل القديس بطرس والقديس بولس

(س) Egeria في الأسطورة الرومانية هي الأنثى الشبقة التي أملت تعاليمها على نوما بوبيليوس Numa Pompilius (٧١٥-٦٧٢ ق.م.) ثاني ملوك روما في تشريعاته المتسمة بالحكمة. وقد أصبحت التسمية إيجيريا صفة كل امرأة تمارس نفوذًا على سياسى. (المترجم).

(ش) Jerome (٣٤٠-٤٢٠) أحد آباء الكنيسة الغربية الأوائل، وهو الذى ترجم الصيغة اللاتينية من الإنجيل تحت إشراف البابا داماسوس، استناداً إلى مصادر عبرية يونانية. وهي تعد ترجمة أدبية حرة لكنها لا تزال الصيغة اللاتينية المعتمدة، سيما من الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم).

الذين أتيا إلى روما، وأيضاً مثل أنياس - يتحرك في اتجاه مناقض للسياسات الصليبية. بالإضافة إلى هذا فإن "كرواتيا" و"فيرونيكا" تشيران إلى الشرق الأورثوذكسى، تومنان إلى الحملة الصليبية الثانية السينة الطالع. وطبقاً لرواية أودو دويل (Odo of Deuil) عن هذه الحملة - التى استغلت المشاعر العنيفة المعادية لليونانيين- كان المسيحيون اليونانيون الأورثوذكسيون يجدون أنفسهم غالباً متحالفين مع المسلمين الأتراك ضد الصليبيين الفرنسيين، الذين كانوا يبدون - بلا شك - مثل جيش غزاة. إن تشبيه دانتى الثانى يغير مظهر الحملة الصليبية - الحج، فالشاعر يعن النظر الآن. لا فى برنار إنما فيما يرمز إليه، "الحيوى".

"La vivace/ carita di colui che'n questo mondo, / contemplando, gusto di quella pace."

هكذا، يركب برنار الحب الذى ذاق عن طريق التأمل (وليس عن طريق المشاهدة المادية، إنما الإبصار الرمزي الفيكتوري - البونافنتورا) طعم السلام الأبدى.

يلمح دانتى بطريقة خفية - باستخدامه هذين التشبيهين هنا - إلى تاريخ برنار عن الحج - الصليبي، وطريق الاستتباط فحسب، إلى حملته الصليبية الخاصة من أجل إصلاح السياسات البابوية. لكنه يؤكد اكتشاف برنار بصرًا حقيقياً فى التأمل. إنه يربط برنار بمريم - وبالتحديد مريم بوصفها الوسيط إلى الرؤية النهائية - وليس بدوره الصليبي. إنه يحول تاريخ برنار طبقاً لنظام برنار الخاص للتأمل، الذى يشير إلى سلم التأمل باعتباره الرحلة إلى "السلام الأبدى". مع ذلك فإن برنار هو تجسيد قوى على نحو رمزي لمركب اللاهوت والنظرية الكهنوتية والسياسية الزمنية. والشعر والتأمل، ذلك المركب الذى يطوره دانتى طوال القصيدة^(٩٨) وفى الحقيقة فإنه من بين جميع مرشدى دانتى طوال الكوميديا، يختار برنار ليكون معه أكثر السمات المشتركة، ذلك أن برنار جمع بين حياة نكس نموذجية (حياة فقر شاركه فيها دانتى أيضاً بسبب المنفى) ولاهوت سياسى وشعر دينى وصوفية. وصلاة برنار للعذراء مريم فى الأنشودة

٢٢ من الفردوس، وإن تكن انعكاساً دقيقاً للاهوت برنار الخاص، هي-فوق كل شيء -
شعر دانتي (ص).

يشيد دانتي - فى الكوميديا - بفولكو والقديس دومينيك، اللذين يذكرهما
لدوريهما فى الحملات الصليبية الألبيجينية. وهو يلاحظ شارلمان وكثيرا ممن كانوا معه
فى سماء الشهداء لدورهم فى النضالات اللاتينية الغربية . وهو يعنف أولئك الذين
يدعمون حملات صليبية زائفة، أى أولئك الذين دعاهم البابوات ليكونوا بمثابة ستار
دخان تختفى وراءه معاركهم الخاصة المادية والسياسية. أما عن الحملات الصليبية
للأراضى المقدسة فإن دانتي - وإن كان يضع الملك المسيحى الأول للقدس المستعادة
مع الشهداء الآخرين - يتجاهل ذكرى دور برنار فى الحملة الصليبية الثانية و يتجاهل
كذلك تبشير يواكيم فيورى^(١٥) ضد الحملة الصليبية الثالثة، كما كتب عنه ساليمبيني
(Salimbene) فى كتابه الأسفار (Cronica)^(١٦).

(ص) تعد صلاة القديس برنار - كما صيغت فى الأنشودة الأخيرة من الفردوس- من أروع أشعار دانتي
ذات الطابع الدينى، ولعل من المناسب أن نسرد منها جزء يدل على المعنى الذى أرادتته المؤلف فى هذه
الفقرة:

آيتها الأم العذراء، يا ابنة ابك

يا صاحبة المكانة الأرفع والأرفع بين المخلوقات

يا غاية ثابتة تتجه نحوها غايتنا الأبدية

أنت التى أكسبت طبيعتنا البشرية رفعتها

حتى أن الخالق ليخلق ذاته جعلك خالقة

فى جنبيك أوت شعلة المحبة

التي أنبتت بدفئها فى السلام الأبدى

هذه الزهرة الخالدة... [الفردوس، ١:٢٢-٧] (المترجم).

(ض) Joachim of Fiore (١١٣٠-١٢٠٢) دير رهبان كالايريا. (المترجم).

حينما يواجه دانتي كاشياغويدا وطابور الشهداء يتولى الدور الصليبي ذاته، يستخدم لغة المسردات الصليبية ذاتها، ويسمح لنفسه بالتمتع بلذة اللعان في أضواء مجد أسلافه المشاهير، تلك اللذة المريبة، ولكن قصيدته وبوره كشاعر يحيل الحملة الصليبية العسكرية إلى رسالة هدفها إصلاح الغرب، وحين يركز حقيقة على أوروبا سياسية مفهومية، فإنه يشير إلى رجال الكنيسة الفاسدين والبابوية الفاسدة، والملوك، المواطنين الغربيين الفاسدين، ويشير أيضاً إلى النظام القانوني الذي انحطت قيمته، يشير إلى كل هذا الذي كان مزدهراً في أوروبا السياسية المفهومية هذه. يعطيه القديس بطرس - باعتباره البابا الأول والصوت الأكثر معرفة في السماء، المسؤولية عن هذا الإصلاح. ويعد أن يلقي بطرس خطبته الهجومية الحامية المؤلفة من ٢٣ سطراً ضد الكنيسة بسبب الجشع وشراء المناصب والانتقسام والنزوع إلى الحرب ضد المسيحيين (وهو ما يمكن أن ينطبق بالدرجة نفسها على حملات صليبية زائفة يرعاها بابوات، وعلى التقاتل بين الأوروبيين) والتكريس للمصالح الزمنية [الفريوس، ٢٧: ٤٠-٦٣]. ويقول بطرس لدانتي: "أفتح فمك ولا تخف ما لا أخفيه" [الفريوس، ٢٧: ٦٥-٦٦]. لقد تولى كثير من أدبيات الحملات الصليبية والحج - التي تستمد معلوماتها من تفسير أدبي للتوراة - رسالة دينية -سياسية تسعى لإقامة السلام في بلاد التوراة وعززت الكراهية للشعب الذي يعيش هناك، وعلى الرغم من أن دانتي يستعمل لغة الحملات الصليبية، فإنه يتبنى دور نبي، فيحيل أهدافها المادية والعسكرية إلى رسالة شعرية، أخلاقية - سياسية تهاجم الفساد الغربي البنيوي والفردى، وتتيح له رحلته الفرصة لرؤية أشياء العالم التي يحمل مسؤوليتها كنبى صاحب رؤية، وهو ما يقدمه إلى قارئه في حجة الصليبية من خلال النص.

هوامش الفصل الثالث

نشرت صيغة سابقة من هذا الفصل في فصلية دراسات عن دانتي (١٩٩٨) ١٢٥:٩٥

(١) فكرة القصيدة كلاهوت شعري ودانتي ككاتب إلهي طورها عدد لا يحصى من الباحثين لكن انظر بشكل خاص: (ص ٨٨- هامش ١)

(٢) ها هو ذا قيصر، وكل خط سلالة يوليوس.

جميع الذين سيمرون يوما ما تحت قبة

السماء العظمى: هذا هو الرجل، إنه هذا الواحد

الذي في الأغلب سمعتم عن الوعد به.

قيصر أوغسطس، ابن المؤلّ

الذي سي جلب مجددا عصرا ذهبيا

إلى لاتيوم، إلى البلاد التي حكمها ساتورن

في الأزمنة القديمة. لسوف يمد سلطانه

إلى ما وراء الغارامانات والهنود

فوق أقاليم بعيدة في شمال وجنوب

نجوم الأبراج، في الدرب الشمسي.

حيث أطلس حامل السماء على كتفه

يحول الكرة السماوية الليلية المرصعة بالنجوم الملتببة

[الإنيايدة ٦ ، ٧٨٩-٧٩٧]

(٣) بشأن إحساس دانتي برسالته كشاعر، انظر: (ص ٨٨- هامش ٢).

(٤) إنى أتفق فى هذا مع الحجة التى قدمها مؤخراً سكوت Dante's Political Purgatory؛ وليمينتاني Limentani فى The Mind of Dante وأنتريف Entreves فى الفصل الثانى من Dante as Political Thinker ، والذي يذهب فيه إلى أنه بالنسبة لدانتى فإن إصلاحاً بنيوياً من شأنه أن يقيم من جديد القانون الرومانى- تحت حكم إمبراطور، على النحو الذى طوره فى الفردوس، الأناشود ٦، يرفع عن كامل إيطاليا أزمته السياسية-الدينية. إن شاغل دانتى الأول هو مزج توائم السلطة أى الكنيسة والدولة، التى يلقى اللوم بشأنها على منحة قسطنطين والتى أدت إلى تفتت القانون الرومانى وإلى ضعف للإمبراطورية السياسية، وإلى انحلال الكنيسة الأخلاقى.

(٥) بشأن مناقشة لهذه الفقرات الذميمة، انظر (ص ٨٩- هامش ٥) وبشأن مناقشة لنواحي التوازى بين دانتيل والأناشودات الثلاث الأخيرة من المطهر. انظر: Pézard, "Daniel et Dante", 1-96.

(٦) (ص ٨٩- هامش ٦).

(٧) هذا واحد من الموضوعات الأساسية التى طورها شناب Schnapp فى Transfiguration.

(٨) للاطلاع على مقالة مثيرة حول هذا الموضوع انظر: Hardt, "The Christo- Rhymes, The Greek Cross and Cruciform Geometry"، وبشأن مناقشة موسعة وبرهان على الآثار الضمنية للتراث المسيحى، انظر: "The Christo-Rhymes and Polyvalence"، Hardt و Hardt, Die, 39-87, Zahl.

(٩) إن أقدم تحليلاً كاملاً لهذه الأناشودات، إننى أحيل إلى شناب Schnapp، (ص ٨٩- هامش ٩) (بشأن الموضوعات الموازية بين الأناشودات، وخاصة المنفى وفلورنسا والبعث) (ص ٨٩- هامش ٩).

(١٠) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٠) .

(١١) (ص ٨٩- هامش ١١) .

(١٢) تأثير النقوش فى رافينا مركزى فى أدلة شناب Schnapp فى كتاب Transfiguration, 170-238.

(١٣) على سبيل المثال فإن ملاحظات سنغلتون Singleton على الأناشود ١٨ من الفردوس فى مثال على قناعته (انظر ص ٢٠٦).

(١٤) يظهر كثير من الصيغ المختلفة لهذه الخطبة فى عديد من تواريخ الحملات الصليبية. لكن لأن كتاب وليام صور William of Tyre أصبح منتشراً على نطاق واسع بفضل الترجمة وإعادة التحرير، فإننى أحيل إلى روايته فى هذه المناقشة. انظر: (ص ٨٩- هامش ١٤) وبشأن جنود الحملات الصليبية وتبريراتها انظر أردمان Erdman, The Origin, 6-66.

(١٥) (ص ٨٩- هامش ١٥).

(١٦) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٦) ٧٤-١١١ ، ٧٢-٥١، Shein ، Fideles Grusis الذي يغطي دعم نيكولاس الرابع لحملات الأراضي المقدسة.

(١٧) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٧).

(١٨) حينما توفي كونراد شقيق مانفريد تولى مانفريد الوصاية على صقلية عن ابن أخيه كونرادين، ولكنه ولى العرش في عام ١٢٥٨، فطرده البابا أوربان الرابع من الكنيسة وعرض العرش على لويس التاسع عشر ملك فرنسا لكن الأخير رفضه، ولهذا أعطى العرش لشارل أنجو شقيق لويس. جدد البابا كليمنت الرابع عرش سلفه وبخل شارل إيطاليا. وهذه حالة محددة للتصادم بين البابوية والفرنسيين.

(١٩) انظر : (ص ٨٩- هامش ١٩) الذي يناقش فيه نيكولاس الرابع والبابا بونيفاتشي الثامن ودعمهما لحملات الأراضي المقدسة الصليبية.

(٢٠) انظر : (ص ٨٩- هامش ٢٠).

(٢١) انظر : (ص ٨٩- هامش ٢١).

(٢٢) (ص ٨٩- هامش ٢٢).

(٢٣) (ص ٨٩- هامش ٢٣).

(٢٤) (ص ٨٩- هامش ٢٤).

(٢٥) (ص ٨٩- هامش ٢٥).

(٢٦) (ص ٨٩- هامش ٢٦).

(٢٧) (ص ٨٩- هامش ٢٧).

(٢٨) انظر أرمور Dante's Griffin, Armour 215-83، أما أن "عامرة" المطهر، الأنشودتين الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين، تمثل البابوية الفاسدة، فتزويدها أدلة R.E. Kaske القائلة بأن الموكب في الأنشودة ٣٢ يصور المراتب الكنسية السبع. انظر: The Seven Status Ecclesiae.

(٢٩) (ص ٨٩- هامش ٢٩).

(٣٠) انظر : (ص ٨٩- هامش ٣٠).

(٣١) انظر : (ص ٩٠- هامش ٣١).

(٣٢) انظر : (ص ٩٠- هامش ٣٢).

(٣٣) (ص ٩٠- هامش ٣٣).

(٣٤) تعبير سنفلتون Singleton، القديس ص ٢٥٩ وحسب Forti في Cacciaguida وفيه يستعرض التناقضات التاريخية في رؤية دانتي لحياته الأخرى، أن كاشياغويدا موثق باعتباره عاش في القرن الثاني عشر، فلا بد أن يكون كوزناد الثالث قد جنده ليقاثل في الأراضي المقدسة، حيث استشهد في سبيل العقيدة.

(٣٥) (ص ٩٠- هامش ٢٥).

(٣٦) (ص ٩٠- هامش ٢٦).

(٣٧) (ص ٩٠- هامش ٢٧).

(٣٨) (ص ٩٠- هامش ٢٨).

(٣٩) (ص ٩٠- هامش ٣٩).

(٤٠) (ص ٩٠- هامش ٤٠).

(٤١) للاطلاع على نص ٢١١-١٥، Dubois، De Recuperatione Terre sancte، انظر: (ص ٩٠- هامش ٤١) وللاطلاع على نص يشير بالحملات الصليبية في فرنسا في العقد الثاني من القرن الرابع عشر، انظر: (ص ٩٠- هامش ٤١).

(٤٢) بشأن السلام، انظر ديويو Dubois (ص ٩٠- هامش ٤٢) وبشأن نزاع السلطة الزمنية عن البابا، انظر ١، ٣٦، ٤٥.

(٤٣) انظر: (ص ٩٠- هامش ٤٣) ويربط هاوسلي Housely بين ديويو ودانتي كناقدين للبابوية، تحديداً بسبب انتهاك المفاتيح والاستخدام البابوي للحملات الصليبية لمزايا سياسية أوروبية. انظر: The Italian Crusades، 37.

(٤٤) انظر: (ص ٩٠- هامش ٤٤) بشأن الاختلافات حول الحكم الفرنسي/ قيادة العالم اللاتيني، انظر Di- "Dubois e Il De Recuperatione"، 61-62، otti.

(٤٥) (ص ٩٠- هامش ٤٥).

(٤٦) انظر: (ص ٩١- هامش ٤٦) وفيه يذهب إلى أن دانتي مفوض كشاعر وكاتب في هذه الأندشود: "لقد استثمر الصليبي العجوز سليله بهمة صليبية جديدة"، Transfiguration، Schnapp، 48، 103.

(٤٧) يبنى دانتي هذا على سيرة بوناڤنتورا عن القديس فرانسيس. انظر، ٢٦-٣٢٣، Leg- Bonaventure، ende di S. Francisci، وبشأن مراجع أولية لا حصر لها عن زيارة القديس فرانسيس لـ الشرق "Orient - بما فيها، بين مراجع أخرى كتابات Jacques De Vitry، Thomas of Cela- Bonaventure، no، ١٢٠٠-١٢١٥) Biblioteca bio-bibliografica.

(٤٨) انظر: (ص ٩١- هامش ٤٨).

- (٤٩) (ص ٩١- هامش ٤٩).
- (٥٠) (ص ٩١- هامش ٥٠) .
- (٥١) (ص ٩١- هامش ٥١).
- (٥٢) انظر : (ص ٩١- هامش ٥٢).
- (٥٣) انظر : (ص ٩١- هامش ٥٣).
- (٥٤) Dante et Saint Bernard, Masseron, ٤٠ من الدراسات التي صدرت مؤخراً عن دانتي وبيترار (ص ٩١- هامش ٥٤) وانظر أيضاً Aversano, _ "San Bernardo e Dante" وبشأن خلفية كاملة عن وثبت مراجع لمناقشة أوجه تماثل واختلاف دانتي وبيترار فيما يتصل بالعلاقة بين الكنيسة والدولة - السيغين- انظر Botterill, "Not of this world".
- (٥٥) انظر (ص ٩١- هامش ٥٥) .
- (٥٦) بشأن مناقشة لأوجه التماثل بين انتقادات دانتي للكنيسة والسلطة الزمنية ونقد بيترار، انظر: Masse-ron, Dante et Saint Bernard, ٥٢-٢٢٢ .
- (٥٧) انظر: (ص ٩١- هامش ٥٧).
- (٥٨) (ص ٩١- هامش ٥٨).
- (٥٩) يذمب أفيرسانو Aversano إلى أن تأثير بيترار واضح في الأنشودة الأولى من الجحيم، التي تكشف عن تحول (في العقيدة) على النمط البرناردى. انظر (ص ٩١- هامش ٥٩).
- (٦٠) (ص ٩١- هامش ٦٠).

الفصل الرابع

دانتي والإندوس: خلاص الوثنيين

لقد ولد رجل على ضفاف السند^(١)

حيث لا وجود لأحد يحكى عن المسيح

أو يقرأ أو يكتب عنه

[الفريوس، ١٩: ٧٠-٧٢]

قدم الفصلان السابقان الدليل على أن دانتي يتخيل الإسلام والشرق باعتبارهما "الآخر" الذى يحدد على خلفيته أوروبا اللاتينية، مع ذلك فإن الشاعر لا يسعى للتغلب على ذلك الاختلاف أو إغفاله. على النقيض من ذلك فإنه يشرع فى إظهار أنه فى حين أن العالم الإسلامى ليس شاغله المباشر، فإن أوروبا اللاتينية - التى تمزقها الأزمات والانحلال - هى محل همومه. يصور دانتي الإندوس على أنه يمثل تناقضاً دينياً لا يسهل حله سواء فى قصيدته أو بواسطة المسيحية. فهو عوضاً عن استخدام الإندوس حصرياً ليشير إلى اعتقادات شعبية ومعاصرة، سياسية واجتماعية ودينية أو كتحييزات بشأن أماكن وراء القضاة الثقافى المسيحى - الرومانى، يستخدم دانتي

(١) من المهم أن يلاحظ القارئ أن السند هو الاسم العربى لنهر "الإندوس". وأن هذه التسمية الأصلية للنهر هى أيضاً تسمية الرواية والحضارة والثقافة التى يجرى الحديث عنها من جانب دانتي، ذلك فى هذا الكتاب. (المترجم).

الإندوس كآلية شعرية لكى يطرح تساؤلات عن قضية مركزية تتعلق بالمشروع الثقافى - الدينى الذى يشرع فى إنجازه فى الكوميديا، ومما يدعو للسخرية أن الشاعر نفسه الذى يضع الصرح الضخم الاستثنائى للديانة التى تحتضنها قصيدته ضد التناقض الذى يفرض عليها فى البلاد الواقعة فيما وراء خريطته الجغرافية - الثقافية. من ناحية هناك الهوة المجهولة التى تكمن فيما وراء مضايق هرقل فى فضاء دانتي الدينى - الجغرافى، حيث تدفق المياه يغلق حول أوليس ويضمن لعنته الأبدية (الجحيم، ٢٦). ومن الناحية الأخرى، يستخدم الشاعر الإندوس - وهى جزء من العالم المعروف - ليطرح قضية الكيفية التى بها يستطيع رب عادل أن يلعن الفاضل الذى لم يسمع بالمسيحية. "الإندوس" - التى يعرفها إى. آر. كورتيس E. R. Curtius بأنها موضوع أدبى للطرف الشرقى للأرض^(١) - احتفظت بهذا الدور الأدبى على الرغم من رحلات ماركو بولو إلى الصين، لقد ظلت تظهر فى أعمال أخرى فى القرن الرابع عشر كتبها بترارك وتشوسر على سبيل المثال، ككناية عن أطراف الأرض.

يصبح "الشرق" Orient - "الإندوس" فى هذه الحالة - وسيلة دانتي للنظر فيما إذا كان الخلاص يوجد خارج المسيحية. إن ظهور ريفيوس (Ripheus)، وهو وثنى من زمن ما قبل المسيحية (الفردوس، ٢٠: ٦٨) من إنياذة^(٢) فيرجيل، وترايان وهذا وثنى من زمن ما بعد المسيحية (الفردوس، ٢٠: ٤٤-٤٥)، وكاتو الجمهورى الوثنى (المطهر، ٢١) يقدم تساؤلات عن الخلاص خارج زمن المسيحية وعن سماء يهودية - مسيحية استثنائية. فإذا كانت الأنشودة ٢٠ فى الجحيم - بأجسامها المشوهة، أجسام العرافين والمنظرين العلميين الوسيطيين- إنما يشير إلى نظرية العالم المقابل للكرة الأرضية. وإذا كان المطهر فى الأنشودة العشرين يعطينا حدثاً محدداً عن شخص ما تم خلاصه خارج تبرير الثقافة المسيحية، والأنشودة التاسعة عشرة فى الفردوس، حيث مسألة الإنسان العادل على ضفاف نهر الإندوس (Indus) تختبر ما إذا كان الخلاص ممكناً

فيما وراء الفضاء الذي انتشرت فيه المسيحية. يستخدم دانتي حدود البلاد المسيحية لإثارة التساؤلات عن عدالة الرب، لأن التساؤل عن الخلاص خارج المسيحية هو - في حقيقة الأمر - تحد إنساني عقلاني للعقائد التي تلقيناها.

هذه المحنة ليست فريدة لدانتي. في الحقيقة، هي محنة مركزية بالنسبة للمسيحية. في رسالة القديس بولس إلى الروم يذكر آراء عن الخلاص النهائي، مدافعاً بالحجج عن عدم شمولية عدالة الرب: 'يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه، ما أبعد أحكامه عن الإدراك وطرقه عن الإدراك'. (العهد الجديد، رسالة القديس بولس إلى أهل رومية، ١١: ٣٣). على هذا الأساس يُخضع بولس الحكمة الفلسفية للحكمة الصوفية. ولقد نوقش الموضوع من زمن أوغسطين حتى القرن الرابع عشر، حيث قدم اللاهوتيون باستمرار الحجج على أن رحمة الرب التابعة من العناية الإلهية والنية الطيبة لغير المسيحيين والخلاص ينبغي أن تكون متاحة لأولئك الذين عاشوا قبل المسيح وأولئك الذين لم يسمعوهم بالمسيح أبداً. وعلى سبيل المثال فإن أوغسطين يقول في *De Vera Religione*:

إن المسيحية في زمنه كانت الدين الحق الأوحى؛ ولكنه في كتابه التراجعات *Retractionum* - حيث يشير إلى أن المسيحية لم تكن موجودة في الزمن القديم - يتفق مع القول بأن خلاص المسيح ينبغي أن يكون متاحاً لكل فرد من بداية الزمان لأن غاية الرب من خلق العالم كانت هي خلاص الإنسانية^(٣). ويذهب هيوسانت فكتور إلى أنه حيث لا توجد إمكانية لتلقي التعميد يمكن للمرء أن يتلقى نعمتها دون تلقي القربان المقدس الحقيقي. لأن سلطة الرب ليست مقيدة بالسلاسل إلى القرايين المقدسة^(٤). ويعلن البرت الأكبر أن كل مزايا الرب مقدرة بالتساوي لكل أولئك الذين لديهم الاستعداد لتلقيها^(٥). ويصر توما الأكويني على أن الرب لم يختر فئات معينة من الأفراد باعتبارهم أرجح للخلاص من غيرهم، لأنه أيا كان من يؤمن بعناية الرب يمكن

أن يربح حياة أبدية^(٦) . وعلى أساس رسالة بولس إلى الروم، يذهب بيبير أبيلار^(٧) إلى أن الخلاص لابد أن يكون متاحاً لكل من هو عادل بغض النظر عن الزمن الذي عاشوا فيه^(٨) . إن عناية الرب هي الأرحم^(٩) . وباختصار فإن كافة اللاهوتيين الكبار في تلك الفترة يعتقدون أنه في غياب معرفة بالوسيط. تجعل الثقة بالعناية الإلهية الخلاص ممكناً ، لا يمكن أن يحصر الخلاص زمنياً أو مكانياً بالمسيحيين المعمدين^(١٠) . ومن الواضح أن العقيدة لم ترغم دانتى على أن يستثنى الوثنيين من السماء أو من المطهر، وهو في الحقيقة - وكما بينا - يضم عددا من الوثنيين من حقبة ما قبل المسيحية وما بعدها. ثم فإن تساؤلاته بشأن غير المسيحيين فيما وراء الأقاليم الرومانية في سياق هذه القصيدة الثلاثية بدرجة عالية هي تساؤلات استفزازية.

يحدو دانتى في استخدامه للموضوع الإندوسى حذو فكرة أوغسطين عن الهنود التأمليين والفلسفيين، التي كان أوغسطين يشارك فيها أوريوس^(١١) . وليست هذه الفكرة انعكاساً لقوالب نمطية عنصرية أو عرقية، طبقاً لها كان الهنود - باعتبارهم - آريين اختياراً، بينما العرب - باعتبارهم لا آريين - أشراراً. يقر دانتى - على غرار أوغسطين - بوجود ممارسات أخلاقية ودينية في الهند، مثل الزهد والتأمل، مماثلة للشعائر المسيحية. مع ذلك فإن الشاعر كان يتصور أن هذا العالم إنما يقع فيما وراء الأمانى الثقافية - السياسية لمجاليه الخاص. وسأقدم الحجج على أنه بإدخاله الإندوسية في قصيدته إنما يدخل صعوبة مع الخريطة الإمبراطورية - الدينية التي طورها في كتابه الملكية ويدعمها في الكوميديا، ذلك أن البلاد والشعوب الواقعة فيما

(ب) Pierre Abélard (١٠٧٩-١١٤٢) فيلسوف سكولائي (مدرسى) ولاهوتي فرنسى اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً في النزاع اللاهوتي في زمانه بين النزعة المفاهيمية والنزعة الاسمية. فآخذ بالقول بأن الأشياء المحددة والمفاهيم الكلية كلاهما حقيقيان. لكن أبيلار أغضب رجال الكنيسة الذين كانوا يؤمنون على الإيمان لا على الجدول والبرهان، بأخذه بالمقاربة العقلانية. عززت كتاباته التيار الأرسطى في المنطق على النظرية الأفلاطونية. (المترجم).

وراء حدود الإندوس تتحدى يقينيّاتها الإيديولوجية. إنه عوضاً عن تخيل وجود قارة رابعة، حيث يعيش الناس الذين لا يتحدرون من سلالة آدم وحواء، يسير فى طريق ألبرت. يقدم الهند والحيشة فى منطقة قفراء، ولكن هذه المنطقة يمكن الوصول إليها من المناطق الحارة، كما كان يقول ألبرت. مع ذلك فإن الشاعر يعرف هذه المناطق بصورة محددة بأنها وراء خبرة المسيحية اللاتينية، على الرغم من حقيقة أن الهند- فى حياته وفى تقاليده الأدبية - كانت معروفة ومدمجة فى المغامرات التجارية الغربية على السواء.

يشير دانتى إلى البيئة الإندوسية أو الشعب الإندوسى على وجه التحديد فى عدد من المناسبات فى الكوميديا (الجحيم، ٣١:١٤-٣٢؛ المطهر، ٥:٢، ٢١:٢٦، ٢٧:٤٠، ٣٢:٤٢؛ الفردوس، ٥١:١١؛ ٧٨-٧٠:١٩؛ ٧٨-٧٠:٢٩-٩٧:١٠٢). وهو يدخل أيضاً كلا من سميراميس (ت) (الجحيم، ٥) والإسكندر (الجحيم، ١٤) فى هذه المناقشة حيث يتذكرهما كشخصيتين أسطورتين حاولتا غزو الهند، مع ذلك، ويسبب شكوك عامة بشأن ما إذا كان الإسكندر فى الجحيم، الأنشودة ١٢، هو المقدونى، فإننى لا أضم هذه الأنشودة.

عبر أورويسوس وأوغسطين والموسوعيين، كان سميراميس والإسكندر كلاهما مرتبطين فى التخيل بالهند فى العصور الوسطى، ودانتى يتبرأ منهما كليهما. وفى أعقاب روايات عن الفيضان وعن انقسام العالم إلى ثلاثة أقسام، يلتفت أورويسوس والموسوعيون إلى سميراميس باعتبارها أول من حكم بعد زوجها نينوس مؤسس بابل القديمة، أول ممالك العالم. وعند أورويسوس، الذى يضع الأحداث حسب علاقتها

(ت) Semiramis ملكة آشورية كل ما يعرفه التاريخ عنها أنها كانت أم الملك نينوس، وأنها كانت امرأة ذات أهمية هائلة لحقبة طويلة من حكمها وما بعده. والمعتقد أنها كانت بابلية الأصل، وقد أدخلت عبادة إله بابل فى المعبد الآشورى. وقد حاربت ببراعة ضد الكلدانيين. أما سميراميس الشخصية الأسطورية التى تحدث عنها كثيرون من مؤلفي الإغريق فكانت زوجة للملك نينو وينت بابل بعد موته. (المترجم).

بتأسيس روما، إن سميراميس خلفت نينوس عندما مات قبل ألف وثلاثمائة عام من تأسيس المدينة^(١١). استطاعت سميراميس، التي تقمصت روح رجل وارتدت ثياب ابنها - حسبما يقول أروسيوس - أن تحافظ على شعبها فى حالة انشغال شديد لمدة اثنين وأربعين عاماً بقتل شعب آخر. وبالمثل فإن إيزيدور ينسب لسميراميس الفضل فى توسع بابل بعد موت زوجها^(١٢). ويردد فينسان بوفيه رواية إيزيدور ويربطها بصيغة أروسيوس^(١٣). وفى كتابه Tresor يحذو برونيتو حذو هذا التقليد الراسخ. فهو يكتب أن نينوس حك أسيا كلها عدا الهند، وأن سميراميس - التى كانت أشرس وأجمل دما من أى رجل - كانت أقسى امرأة فى العالم^(١٤).

وفى أنشودة الشهوانيين يُبدى دانتي اهتماماً بسميراميس - التى ربطها أروسيوس وفينسان وبرونيتو أيضاً بمحاولة لغزو الهند - باعتبارها إمبراطورة تحكم من يحكون لغات كثيرة [الجيم، ٥٤:٥] - أكبر من اهتمامه بأى شخصية ملكية أخرى هناك^(١٥). وإخلاصاً منه لمصدره أروسيوس يستذكر دانتي أن سميراميس "كانت قد استسلمت للشهوة إلى حد أنها جعلت الشهوة مباحة فى قوانينها" [الجيم، ٥٥:٥-٥٦]. إمبراطورة البلاد التى يحكمها السلطان [الجيم، ٦٠:٥]. لقد قادت سميراميس شهوتها إلى انتهاك القانون الذى سنته لإخفاء ارتكابها سفاح القربى، وفى مناقشته سميراميس فى كتابه الملكية يعيد دانتي ما ذكره كتاب أروسيوس التاريخ، ويذكر قراءه بأن سميراميس حاولت إخضاع أسيا بأسرها بقوة السلاح (الملكية، ٢-٨-٣)، مع ذلك فإن دانتي فى الكوميديا يسهب فى شأن انتهاكاتها الجنسية والعواقب السياسية لتلك الانتهاكات، مبرزاً فساد البابليين الذين حاولوا - كما فعل المقدونيين - غزو الهند.

أما ظهور الإسكندر، فى الكوميديا - كموضوع أدبى فى قصيدة رومانية وكشخصية تاريخية - فيثير تلقائياً مسائل الإمبراطورية والتوسع العسكرى والانحلال والتوجه شرقاً وانهيار دول الامبراطورية. ولقد كان الإسكندر - تقليدياً - يمثل تضاداً

تاريخياً وتهديداً نفسياً للرومان على السواء، لأنه غزا الهند وهم لم يفعلوا. وقد سقطت إمبراطوريته، التي بناها على الحرب وعلى القمع القتالي للشعوب المسالمة، وبالمثل قد تسقط إمبراطوريتهم. وعند دانتى سميراميس والإسكندر، على السواء هما مثالان للتوسع الإمبراطورى الذى لا يسترشد بغاية إلهية. وهما - فى الحقيقة - يمثلان نزعة المغامرة العسكرية والاكتساب كفايات مجانية فى ذاتها.

إن أحد المصادر الرئيسية للمعلومات عن رحلة الإسكندر إلى الهند بالنسبة لكتاب العصور الوسطى هو بلىنى. فى الكتاب السادس من مؤلفه التاريخ الطبيعى Natural History يصف بلىنى بلاد الهند وشعبها وأنهارها وجبالها، ولكى يعطى فكرة ما عن الهند فإنه يتبع خطى الإسكندر إلى عبور نهر السند. فتلك كانت الغاية التى تنتهى إليها رحلته: وهى حقيقة أثارت خيال رومان القرن الأول الأديب^(١٦). وحينما حاول الإسكندر أن يقود قواته إلى الداخل الهندى، شكا الجنود من أنهم كما لو كانوا يؤخذون إلى كابة وظلمة وليل أبدى، حيث الطبيعة عديمة الحيلة أمام البحر العميق وحشود الوحوش المفترسة^(١٧). وقد أوقفت مسيرة الإسكندر شكواهم، التى أضيفت إلى تمرد سابق. هذه النهاية للعالم المعروف وطدت حدوداً متخيلة للعالم الغربى، محاولة لنهر الكانج، الذى كان قد أصبح موضوعاً رئيساً لكتاب الرومان فى القرن الأول. ولدانتى فى الكوميديا. وعند الرومان كان نهر الكانج أكثر من الجبهة الشرقية التى أخفق الإسكندر فى التغلب عليها: إنه نهاية الأرض^(١٨).

ويتبع دانتى أيضاً خطى أورويسيوس وأوغسطين والتقليد المشائى الرومانى فى التنديد بالإسكندر بسبب تعظيمه ذاته من خلال العنف العسكرى وتوسعه إلى داخل الهند. ويكتب أورويسيوس أن الإسكندر كان لديه جوع لا يشبع إلى الدم البشرى. سواء كان دم الأعداء أو الخلفاء وكان يتعطش دائماً الى إهدار الدماء من جديد^(١٩). وحسب أورويسيوس فإنه بعد حالة احتياج إلى الغزو اجتاحت الهند بهدف توسيع

إمبراطوريته من المحيط إلى الشرق^(٢٠) . وعلى النقيض من هذا، يصف أوغسطين - الإسكندر - رافضاً بأنه قرصان^(٢١) .

وفى أثناء فترة العصور الوسطى المتأخرة فإن القصص ذات الشعبية الكبيرة عن الإسكندر أوجدت دعماً خيالياً للهجمات العسكرية في الشرق الأوسط، المنطقة التي كان الإسكندر قد اجتاحتها. كانت قصيدة الكساندرايدوس -Alexandreidos وهي قصيدة لاتينية لغوتيه دو شاتيون Gautier de Chatlillon (١١٧٨-١١٨٢) كتبت على غرار ثابيد Thebald ملحمة ستاتيوس^(٥) والإنياذة ملحمة فيرجيل - ذات شعبية في فرنسا القرن الثالث إلى حد أنها أصبحت كتاباً مدرسياً أساسياً يستخدم لتدريس الجغرافية والتاريخ وأصبح يعلّق عليه عوضاً عن الإنياذة. وبالإضافة إلى إضفاء طابع رومانسي على الإسكندر وغزواته العسكرية فإن قصيدة الكسندراينوس مليئة بأعاجيب الشرق: أناس بريون ووحوش برية ورحلات الإسكندر، أولاً تحت الماء وبعد ذلك إلى السماوات في عربة جياد جامحة تجرها أربعة من حيوانات الغرفين^(٢٢) . لقد استغلت حكايات مغامرات الإسكندر استغلالاً كاملاً الشرق "الفرائبي". وتكشف نظرة خاطفة إلى الإشرافات التي تدعم هذه القصص مواجهات الإسكندر مع مجموعة كاملة من الأجناس المتوحشة (الأحياء المائية، السيكلوبات، غانيات الماء اللاتي يفتك احتضانهن باحبائهن، والسينوسيفالي، والبشر بلا رؤوس وما إلى ذلك) وهو يهزمها جميعاً أو يروضها^(٢٣) .

ويبين كتاب فينسان التأمل التاريخي Speculum Historiale تحولاً آخر في مقاربة تاريخ الإسكندر، يبتعد جزئياً عن التقليد المشائى الذي عامل الإسكندر باعتباره مولعاً بالقتال ومنحل^(٢٤). وعلى الرغم من أن فينسان لا يتغاضى عن نزوع الإسكندر الطبيعي

(٥) Statius (٩٦-٩٤٥) شاعر لاتيني وملحمته شابيد - المؤلف من ١٢ كتاباً كانت تتناول الشخصيات الأسطورية التي عرفت في ملحمة السبعة شد طيبة للشاعر أسخيلوس والتي تتناول الحرب بين أبناء أوديب على عرش طيبة. (المترجم).

إلى الخطيئة - وهو ما فصله بعناية الكتاب الرومان القدامى - فإنه يجعل منه محرراً على نحو ما، ويسهب في استيلائه على القدس وتحريره اليهود من دفع الفدية للسامرة^(٢٥). كذلك فإن فينسان يضمن كتاباته وصفا للروائع التي رآها الإسكندر في غزوه للهند^(٢٦). وبهذه الإضافات إلى قصة الإسكندر يعزز فينسان جاذبية المقدوني الفكرية والسياسية، وهذه الأخيرة أكثر أهمية. وفي حين أن إيزيدور يعرف الإسكندر، ببساطة بأنه فاتح آسيا^(٢٧)، يقدمه فينسان باعتباره تلميذ أرسطو، حاكم محارب مثقف وشعار فكرة الحكم على نحو أكثر اتساقاً مع الطموحات الإمبراطورية للدولة - الأمة الفرنسية البازغة حيث عاش فينسان وكتب.

صيغة برونييتو للإسكندر في كتابه الثروة Trésor - الذي كتب هو الآخر في فرنسا - هي أقل قسوة من صيغة أوغسطين وأورورسيوس. إلا أنها - شأنها شأن هاتين - تقدم وصفاً سلبياً في أساسه. يسجل برونييتو أن الإسكندر كرس حياته للغزو، وكان أرسطو وكالستين معلّميهِ. كان مظفراً على كل الشعوب، ولكنه كان تحت سيطرة الخمر والشهوة^(٢٨).

كانت كل التمثيلات العامة الأوروبية لقصة الإسكندر متأثرة بصورة بارزة بتاريخ الإسكندر العظيم (تاريخ بريليس Historia de Preliis) الذي كان هو ذاته مؤسساً على كتاب بزيديو - كالستين حياة الإسكندر. لقد تضمنت صيغة كالستين رسالة كتبها الإسكندر إلى "المبجل" أرسطو، وفيها يصف كالستين دخول الإسكندر إلى الهند وما حدث هناك وسماعه النبوءة القائلة بأنه سيموت في بابل^(٢٩). ويضم تاريخ بريليس هذه الرسالة، التي جرى تداولها على حدة أيضاً، وكلاهما (الكتاب والرسالة) كانا شهيرين في العصور الوسطى. وفي هذه الصيغة يظهر الإسكندر - على الرغم من قدرته على القسوة - نموذجاً للشجاعة البدنية والعاطفة والبراعة.

لكن دانتى يحذف مثل هذه التفاصيل المادحة عن الفاتح المقدوني، زاهباً في كتاب الملكية إلى أنه بسبب محاولة الإسكندر للفوز بحكم العالم - أى، في الحقيقة، تحدى

هيمنة روما - فإن الرب قد أسكنه (الملكية، ٢-٨-١٠). وفي الكوميديا يستخدم دانتي نزوع الإسكندر إلى المغامرة في الهند لتطوير نظريته عن تاريخ فشل السياسات الإمبراطورية قبل الامبراطورية الرومانية. وعندما يعود إلى وجهة النظر المشائية في الإسكندر، التي وطدها المؤرخان ليفي Levy ولوكان Lucan وطورها أورورسيوس وأوغسطين، يتجاهل الروايات العارفة عن الإسكندر التي انتشرت في حكايات العصور الوسطى^(٣٠). في الجحيم - الأنشودة ١٤ - يتناول دانتي موضوع الإسكندر في الهند، مشيراً بصفة خاصة إلى دخول الإسكندر إلى شبه القارة:

ومثل ألسنة اللهب، التي رآها الإسكندر في تلك المناطق الحارة من الهند

تصيب جيشه، وتسقطه أرضاً،

لذا فقد عني بأن تدوس فرقه القراب،

حتى ينطفئ ذلك البخار

بأسرع ما يمكن بعد أن أصبح معزولاً

هكذا كان اللهب الأبدي يسقط

وكما يفعل الحجر تحت الزناد

كان يحرق الرمل حتى يتضاعف الألم من جديد [الجحيم، ١٤: ٣١-٣٩]

يبدو أن هذه الإشارة المباشرة إلى المنطقة القائظة تدل على أن دانتي اتبع نظرية ألبرت القائلة بأنها كانت منطقة يمكن عبورها. مع ذلك فإن دانتي، بتحويله صورة وصول الإسكندر إلى الهند إلى تشبيه ملحمي ممتد، إنما يقلص الرؤية المتسعة للفتح البطولي الذي يقوم به جيش غازي. إنه يقوض المشهد كما صورته حكايات مغامرات الإسكندر، جاعلاً منه وسيلة لتعريف العقاب الناري المحفوظ لأولئك الذين يجدفون على الرب. إن سكان الجحيم - الأنشودة ١٤ - المعتدين على وسيط الرب، كلهم انتهكوا

الحدود الإنسانية، عبروا إلى الحدود التي تفصل بين الفرصة الإنسانية والقيود الإنسانية وبين الحدود الإلهية الجبرية والطبيعية. هنا- على سبيل المثال - لا يزال كابانوس^(ج) يزدري الرب (الرحيم، ٤٩:١٤-٦٠). ويعادل دانتى بين العبور إلى الهند وأمر الإسكندر بإخماد النار بفعل المجدفين الذين حقت عليهم بالفعل لعنة الاحتراق الأبدي. وفي كلتا الحالتين فإن العبور المتعدى للحدود، سواء كانت إقليمية أو أخلاقية أو وجودية (أونطولوجية)، يخلق حتماً أحداثاً جديدة من المعاناة: "كان تراقص الأيادي التعيسة لا ينقطع أبداً، وهى تنفض عن نفسها الاحتراق المتجدد هنا وهناك [الرحيم، ٤٠:١٤-٤٢]. والمنطقة التى مثلت حدوداً معذبة فى إغرائها للتأمل التخيلى "الغرائبى" لبلينى وسترابو، أو تحدياً عسكرياً لفيرجيل، هنا تصبح متراساً أخلاقياً^(٣١). وعوضاً عن السير على خطى النظرة التى أكتسبت طابعاً رومانسياً عن إسكندر ملهم يغامر فى أرض غرائبية لم تستكشف من قبل - كالتى يقدمها بزيو - كالكستين ومقلدوه - يتخلص دانتى من نزعة البطولة عن طريق الربط بين أفعال جيش الإسكندر ومحاولات الخطأ المتكررة لإبعاد ألسنة اللهب فى الرحيم عنهم. وبين الشاعر أن المنطقة القائظة يمكن عبورها، إنما كما كان فعل أوليس فرار الحشود (folle volo) فيما وراء الطرف الغربى للعالم المعروف تعدياً على حدود الأرض أدنى إلى كارثة، فإن تخطى الإسكندر الحدود الشرقية هو بالمثل تخط ضد الرب.

مع ذلك فإن هذه الأنشودة التى تزواج بين المجدفين على الرب والطبيعة ووصف فيرجيل لرجل كريت العجوز، وهو مجاز عن التاريخ العالمى فى حالة انهيار وفساد مستمرين، هى أكثر أهمية من الإشارة الى مغامرات الإسكندر الإمبراطورية. فدانتى وكيف التاريخ الذى ندركه فى قصة عجوز كريت ليدعم فكرته عن تاريخ وثنى ضال^(٣٢). إنه يصف البيئة القائظة التى تمطر ناراً إلى جانب دخول الإسكندر بغطرسه إلى

(ج) Capanus واحد من "السبعة ضد طيبة" انظر هامش سابق.

الهند، يبرز تحدى كابانوس المزمو للأمر الإلهي، ويربط كلا الحدثين بتماثل عجوز كريت. ومعاً تشير هذه الصور إلى تمرد متعدّ متواصل ضد السلطة الإلهية باعتباره سبب الإخفاقات التاريخية حين يعامل دانتى سلوك الإسكندر باعتباره سلوكاً مراوفاً أكثر مما هو بطلوى، فإنه يعادل تحديه التاريخي للطبيعة والرب في الإقليم القانظ الذي أراد أن يغزوه بالعجرفة الإنسانية كما صورها كابانوس، وانحطاط التاريخ، موضوع هذه الدائرة من دوائر جهنم. يستنكر دانتى محاولات سميراميس ومحاولات الإسكندر لـ"عولة" universalize الحكم والقيم عن طريق الغزوات الإمبراطورية. فمن وجهة نظر دانتى فشلت جهودهما لأن دوافعهما كانت أنانية وطفغانية لا تكفيرية، كما هو الحال في حالة نوى المطامح الإمبراطورية الرومان. لقد سبق كل من سميراميس والإسكندر ، بفعل رغبة الامتلاك والرغبة في القيام بمغامرات فوضوية للحصول على المتعة وممارسة الخداع، فأقاما نظامي حكم يتعارضان تماماً مع الإمبراطورية الرومانية، وهي نموذج دانتى للتاريخ المنضبط.

وخلافاً لهذين القائدين القديمين فإن الرومان لم يحاولوا غزو الهند. فان الإندوس في الحقيقة يقع فيما وراء فضائهم الجيوسياسي، إن لم يكن وراء طموحاتهم، وقد احتفظ بهذه المكانة الهامشية طوال فترة الهيمنة الإمبراطورية الرومانية. وعلى الرغم من نبوءة أنشيس^(ج) لاينياس بأن أوغسطس سيمد نطاق سلطته إلى بلاد الهند، فإن الرومان لم يحاولوا "تهدئة" الهند، وظلت المنطقة على الحافة الخارجية للهيمنة الثقافية والسياسية الرومانية.

كانت رؤية دانتى لإمبراطورية رومانية عالمية مقتصرة على منطقة إقليمية أضيق من مزاعمها المعلنة . وتشير إشارته إلى الإندوس (ألفريوس، ٧٠:١٩-٧٢) تساؤلات بشأن ما إذا كان الخلاص يوجد خارج المسيحية، لكنها أيضاً تفرض تحدياً للسياسات

(ج) Anchises والد إينياس (المترجم).

الإمبراطورية التي كان يربطها بفضاء العالم المعروف. يبين دانتي في الملكية الوليمة الكوميديا أنه يشارك في المعتقدات الدينية - السياسية التي طورها أروسيوس في كتابه *Historarium*، الذي يحاول - دفاعاً عن الإمبراطورية الرومانية - أن يظهر عملاً إلهياً في التاريخ الروماني. وكان أوغسطين - خلافاً لأروسيوس ودانتي - ينكر دعم الرب للإمبراطورية الرومانية. ويصفه خاصة في مدينة الرب، التي كتبها جزئياً للرد على نقاد أنحوا باللائمة على المسيحيين ورفضهم للآلهة الوثنية لسقوط روما على يد الأريك. (غ) (٢٣) ويسهب دانتي - في كتاب الملكية (١-١٦) وكذلك أروسيوس في الحديث عن تلاقى السلام الروماني Pax Romana مع ميلاد المسيح. وعلى النقيض منهما فإن أوغسطين يفسر فترة السلام بأنها نتيجة تعاقب بلا انقطاع للحروب الرومانية من أجل المكاسب والمطامع والقمع الذي يسبقها (٢٤). مع ذلك، فإن أقاليم ممتدة تقع فيما وراء مزارع السلام الروماني. وفي الحقيقة فإن دانتي - في الكوميديا - يحد جغرافية رغبته السياسية الطوباوية. وعلى الرغم من أنه في الملكية يتحدث عن حكومة عالمية ويشير إلى أن المسيحية هي ديانة عالمية، فإنه في الكوميديا يحد بصورة دقيقة مجاله هذا بإدخال التساؤل عن أهل الخارج - وخاصة الهنود والاحباش، الذين يسكنون أبعد أطراف العالم المعروف لناحية الشرق.

عند دانتي - على النقيض من المؤلفين الرومان - إن منطقة الإندوس هي "الشرق" (Orient)، حيث "طلعت شمس على العالم، حتى وهذه قد اعتادت على أن تطلع من الكانج" [الفردوس، ٥٠: ١١-٥١]. ويضفي دانتي على هذا النهر الهندي مكانة مقدسة إذ يربط ميلاد القديس فرانسيس بالمولد اليومي للشمس فوق الكانج. لقد دعا الكتاب المقدس نهر الكانج "فيزون" وأعلن أن هذا النهر يستمد منبعه من جنة عدن، التي يتذكرها دانتي في إشارته إلى الكانج في بداية الأنشودة ٢٧ من المظهر. وعند دانتي

(خ) Alaric (٢٧٠-٤١٠) ملك قوطى غربى غزا إيطاليا (٤٠٨) واستولى على روما ونهبها. (الترجم).

فإن الكانج ككتائية على الطرف الشرقى للعالم ، هو مصدر النور. وقد قام أوليس "بهبويه الأحق" [الجسيم، ١٢٥:٢٦] [صوب الغرب] حيث أقام هرقل علاماته التي يتعين على الرجال أن لا يتجاوزوها [الجسيم، ١٠٨:٢٦-١٠٩]. وهكذا فإن دومينيك -الذى ولد فى الغرب - فى تلك المنطقة حيث تطلع زيفير^(٥) الجميلة لتفتح الأوراق الجديدة التى من خلالها ترى أوروبا نفسها مكسوة مرة أخرى [الفريوس، ٤٦:١٢-٤٨] - والقديس فرانسيس - الذى يطلع فى الشرق (الفريوس، ٥٠:١١-٥١) يضمنان فيما بينهما جغرافية العالم فى الخير، تماماً كما يفعل الإسكندر، وأوليس فى الشر.

يقدم دانتي مرة أخرى رؤيته لتاريخ يمكن أن يكون قد استرد قيمته على نموذج الإمبراطورية الرومانية فى الفريوس، فى سياق قياس المفاهيم الإنسانية عن العدالة إزاء "العدالة" الإلهية. وهو هنا يدخل أيضاً المشكلة اللاهوتية التى يفرضها وجود الإندوس . يتحدث فى شكل نسر بصوت واحد [الفريوس، ١٠١:١٩-١٠٢]، ويرد المخلص فى سماء جوبيتر على دانتي الحاج شاغله المتواصل بشأن العدالة الإلهية: "تعلمن بأى عناية أنهياً، للإصغاء، وتعرفن ما هو هذا الشك، وهو عندى جوع موغل فى القدم" [الفريوس، ٢١:١٩-٢٢]. فى أعقاب ديباجة طويلة عن أعمال السلطة والمعرفة الإلهيتين [الفريوس، ١٩-٤٠-٦٦] وباستخدام كامل لرسالة بولس إلى الروم، يذكر النسر سؤال الحاج، الطويل الأجل:

"ولد رجل على ضفة السند (الإندوس) وليس هناك من يتحدث ،

أو يقرأ أو يكتب عن المسيح. وكل رغباته وأفعاله خيرة بالقدر الذى

يتبينه العقل الإنسانى، دون ما خطيئة فى الحياة أو فى الحديث. وهو يموت

(د) Zephire الريح الغربية. (المترجم).

دون أن يعمد، ودون عقيدة. فأين هي هذه العدالة التي تدينه؟ أين

هي خطيئته إذا كان لا يؤمن؟ [الفريوس، ١٩: ٧٠-٧٨].

إن الإجابة على هذا السؤال تختبر الأساس اللاهوتي كله الذي تركز عليه القصيدة، ذلك أنه يحدد لماذا يحكم على البشر بالذهاب إلى أليمبوس وجهنم والمطهر والجنة. إن عناية إلهية خيرة - هي التي خلقت العالم كفعل محبة والتي تجسدت لكي تحرر البشرية، قد استثنت بعضاً من بلوغ هذا الخلاص. كيف يمكن أن يكون هذا عدلاً؟^(٣٥) إن وجود الإندوس ذاته خارج الحدود الإقليمية للعالم المسيحي - الروماني يتحدى الإيديولوجية التي تقوم عليها القصيدة. يقدم دانتي هذه الأحجية في الأنشودات الختامية من القصيدة، وعلى وجه التحديد في الأنشودة التاسعة عشرة من الفريوس، وهي الأنشودة التي - شأنها شأن الأنشودتين الأخريين - تتناول موضوعات مركزية بالنسبة للكنيسة كمؤسسة. إن الشاعر يوجه الانتباه إلى هذه المعضلة، ويتحدى مزاعم المسيحية بشأن العوالم والثغافات التي تقع خارج متناولها إقليمياً.

يثار هذا التساؤل في سماء جوبيتر، الإله الرئيس عند الرومان، فيما يبدو أنه قد اكتسب طابعاً رومانياً. ويجيبه من انقذ في صورة نسر، العلامة التقليدية للرومان - العلامة التي جعلت الرومان مبجلين من العالم [الفريوس، ١٩: ١٠١-١٠٢] - لكنه هنا نسر متحول، فيه تبدو كل روح في صورتها مثل ياقوتة [الفريوس، ١٩: ٤]. ولما كان المعتقد أن الياقوت حجر كريم هندي من أندر الأنواع، يوحد دانتي رمزاً رومانياً ورمزاً هندياً، حكم روماني وأعجوبة هندية. وتضع أصداء رسالة بولس إلى الروم - مزيداً من الاختبار للعدالة الإلهية: "هل من غير العدل من جانب الرب... أن يجلب علينا جزاء... فإذا كان الرب غير عادل، كيف يمكنه أن يصدر حكمه على العالم؟" [الفريوس، ٣: ٥-٦]. الإجابة التي تقدمها قصيدة دانتي تماثل إجابة بولس، وهي توضح لاهوتاً عالمياً منقولاً من بيئة رومانية خاصة. وفي الحقيقة ذهب كينيلم فوستر (Kenelm Foster) إلى أن دانتي في هذه الأنشودة يعبر إلى "ما وراء أمور السياسة".

وعلى خطى سيلفيو باسكوازي Silvio (Pasquazi) يؤكد فوستر أن "النسر" ليس الإمبراطورية وإنما وحدة الجنس البشري، كون "النسر" قد تشكل من حرف الميم كناية عن مريم، متلقية تجسيد "الكلمة" مع ذلك فعند جيان روبرتو ساروللي Gian Roberto Sarolli النسر كرمز لجويتر هو رمز يحاكي ما هو مسيحي^(٣٦).

ويبدو أن دانتى - وهو يستكشف مسائل العدالة الإنسانية والإلهية - يقيد معاً السياسات الإمبراطورية الرومانية وروما المسيحية لأن الإمبراطورية الإنسانية النموذجية بالنسبة إليه هي مصغر إمبراطورية الرب الإلهية. لكنه عوضاً عن ذلك يمكن أن يكون مقترحاً من نقطة عندها خسوف سياساته الطوباوية. قبل الرومان حاول آخرون سحق الشعب المسالم الذى كان يعيش فى وادى الإندوس، ولكن الرومان لم يحاولوا ذلك. وقد وصف أوروسيوس وأوغسطين الهنود بأنهم شعب محب للسلام. ويبدو أن الصورة التى يرسمها دانتى للإنسان العادل فى وادى الإندوس يسير فى خطى هذا التقليد. لقد كان دانتى قد ذهب فى الملكية إلى أن المسيح ولد أثناء حكم أوغسطس قيصر على وجه التحديد لأن تلك كانت لحظة تلاقى الإرادة الإلهية مع الفعل الإنسانى، وهو ما سيحدد الفضاء الجيوسياسى للمسيحية. ولكن الإندوس لم يكن جزءاً من المصغر السيسى للملكوت الإلهى. هكذا يبدو أن الإندوس قد استبعد من إمكانية الخلاص التى حددتها العناية الإلهية.

فى الديباجة الطويلة للسؤال يشير "النسر" إلى أنه ليس بمقدور مخلوق مفرد أن يمتلك سلطة الألوهية. وهى حقيقة شهد عليها سقوط المزمور الأول^(٣٧) [الفردوس، ١٩: ٤٦]. إن الافتقار إلى السلطة والمعرفة لفهم الإرادة أو العدالة الإلهية، يجعل البشر قادرين فحسب على أن يروا:

(ن) المقصود به إبليس. (المترجم).

كما العين في البحر، تستطيع - وإن تكن على الشاطئ - أن ترى القاع، إنها لا تراه في البحر المفتوح، ومع ذلك فهو موجود، ولكن العمق يخفيه [الفردوس، ١٩: ٦٠-٦٣].

هذا الرد يتجنب أى إجابة حقيقية على مشكلة الاستبعاد، ولكنه يتطلب مزيداً من الفحص بمعايير المزايم اللاهوتية الخلاصية الاستثنائية في القصيدة. ألا تعنى هذه الصورة ضمناً - تماماً كما أننا لا نستطيع أن نتغلغل في أعماق العناية الإلهية المعقدة - أننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان الهنود يمكن أن يشملهم الخلاص والتحرير خارج المجال المسيحي الروماني؟

إن الأنشودة تقدم - في الحقيقة - بعضاً من تلميحات محددة في هذا الشأن أيضاً. وفي مقال ممتاز عن هذه الأنشودة يشير إدواردو سانجوينيتي E. Sanguinet إلى "النسر" كنوع من "نقش بالغ الأناقة" يقفل باب المناقشة بشأن "خلاص الوثنيين" بوضع المعرفة الإنسانية "لكم" ضد عدالة الرب اللامحدودة واللامتناهية^(٢٧). وشأن بولس حينما يفكر في رحمة الرب اللامتناهية والمطلقة (رسالة بولس إلى الروم ٩: ١٤-١٦) يشجب "نسر" دانتى بشدة البشر الذين يشكون ويحاجون (٨٢-٨٥) حتى وهم يرفضون قبول مطلقة "الإرادة الأولية" (٨٦) التي هي الخير الأسمى (٨٧). وشأن ملاحظات "النسر" التي لا تفهم كذلك "الحلم الأبدى" (٩٩) ليس مفهوماً (٩٧-٩٩) يقول النسر - مركزاً على الضرورة التحليلية المسيحية (الكريستولوجية) للخلاص:

"إلى هذا الملكوت لم يصعد أبداً من لم يؤمن بالمسيح،

سواء قبل أن سُمِّرَ على الشجرة أو بعده.

ولكن فلتنظر هناك كثيرون يصيحون يا مسيح، يا مسيح،

وهناك الذين سيصبحون يوم الحساب أقل قريباً بكثير إليه

من الذين لم يعرفوا المسيح [الفرغوس، ١٩: ١٠٣-١٠٨]

يتخذ هذا البيان الخاص أهمية كبرى لأنه واحد من أربع مرات فقط يستخدم فيها دانتي الترقيم المسيحى. وبينما يتبنى "النسر" الموقف الأصلاى (الأورثوذكسى) بشأن الخلاص، فإنه أيضاً يندد بمسيحيين علنيين كثيرين، أولئك الذين لم يبلغوا أبداً ملكوت المباركين. يردد النسر صدئ الرسالة إلى الروم، التى يكتب فيها بولس:

"لأنه ليس السامعون للناموس هم أبرار عند الله بل العاملون

بالناموس هم ببررون. والأمم الذين ليس عندهم

الناموس إذا عملوا بالطبيعة بما هو فى الناموس فهؤلاء

وإن لم يكن عندهم الناموس فهم ناموس لأنفسهم [رسالة بولس إلى أهل رومية، ١٣: ١٥-١٥].

وعلى الرغم من أن هذه الثلاثية المسيحية لا تدعى أن غير المسيحيين سيخلصون، فإنها تؤكد أن بعض الذين لا يعرفون المسيح سيكونون أقرب إليه يوم الحساب من كثيرين ممن يصيرون "يا مسيح! يا مسيح!" والحقيقة أن دانتي يؤكد على هذا فى الأبيات الأخيرة من الأنشودة (١١٥-١٤٨) التى تستنكر سلاسل من الملوك المسيحيين الفاسدين المنخرطين فى مقاتلة ملوك مسيحيين، والذين لم تقربهم معرفتهم بالمسيح إلى الخلاص. إنما هنا، فإن "النسر" - إذ يتخذ الفضاء الجغرافى الذى يقع على حدود البلاد المسيحية - يعلن أن الحبشيين حينما يفصلون عن المسيحيين، سيخلصون: " واحد إلى الأبد غنى والآخر فقير (١١٩: ١١١). ويتبنى "النسر" موضوعاً من موضوعات أدب الرحلات الصليبية يستخدم "الآخر" كمرآة لكشف العيوب الأخلاقية للمسيحيين فيتساءل أيضاً ماذا سيقول الفرس - الذين يحتلون تقليدياً الفضاء الجغرافى

التقليدى للخطر والغرائبية، والذين يتهمون تقليدياً بارتكاب تجاوزات مؤسفة - حينما يرون أن هذه العيوب ذاتها هي أكثر تمييزاً لمن يواجهون هذا الاتهام إليهم (١٩:١١٢-١١٤).

عوضاً عن الإجابة عن سؤال الحاج وتقديم رد لا سبيل إلى تفنيده بشأن أولئك الذين لم يعرفوا بأمر المسيح، يضيف "النسر" غموضاً إلى اللغز بحاشية مطولة من إنجيل متى ٢٥ . إن الفقرة الإنجيلية بذاتها سلسلة من حكايا رمزية تقسم البشر الذين يتلقون "ثروة أبدية" عن أولئك الذين يكسبون "فقراً أبدياً": وفي هذا النص تحدد الأفعال الخيرة- وليس نزعة التدين الإسمية- المصير الأبدى للفرد. ويشير "النسر" إلى أن العدالة والرحمة هما امتيازات إلهية تقع خارج حدود الفهم البشرى. وقد يمكن ممارستها نحو المسيحيين المعترف بهم وغير المسيحيين على السواء، ولكن إشارة "النسر" إلى حكاية رمزية للمسيح في إنجيل متى تستذكر أيضاً الاعتقاد بأن حياة بر لابد أن تسبق الخلاص. وفي الحقيقة أن النسر- إذ يلتفت نحو أوروبا، فضاء ما يشغل دانتى- يصوغ بصورة صريحة النهاية التي تقبع في انتظار المسيحيين الفاسدين والمنقسمين، على الرغم من أن إجابته على سؤال الحاج المركزى بشأن أولئك الذين لم يعمدوا ويعيشون فيما وراء المجال المسيحى- الرومانى تبقى مراوغة.

وعلى الرغم من أن الشاعر يتأمل فى هذا الفضاء الجغرافى فيما وراء أفقه المكانى - الزمانى ، فإنه يواجه فهمه المحددات بأمر تذكره من الفضاء والزمان العالميين اللذين تستكشفهما القصيدة. إنه يحقق هذا الانقطاع بوضع الأهمية العالمية Global للعلامات الجغرافية الكونية المرتبطة بموت المسيح فى الواجهة. وتتضمن هذه العلامات إشارات إلى الزلازل (الجيحيم، ١٣١:٣ ، ٣٨:١٢ ، ٤٣-٤٨) - "والأرض تزلزلت وتشقق (إنجيل متى، ٢٧:٥) وإن قائد المئة الذين معه يحرسون يسوع لما رأوا الزلزلة وما حدث خافوا جداً وقالوا فى الحقيقة هذا ابن الله (إنجيل متى ٢٧:٥٤)

وإشارات إلى كسوفات للشمس (المطهر، ٢٧:٣٥، ٢٩:٩٨-١٠٢) وإن يستكشف دانتى إمكان وقوع تجارب على اتساع العالم فلكية وجيولوجية ، ويتذكر هذه العلامات يترك الاحتمال مفتوحاً للعالمية، على الأقل على صعيد دراسة الكون.

وعلى الرغم من أن الكوميديا تعلن عالمية المسيح ومطلقية التحليل اللاهوتى لشخصية المسيح (الكريستولوجيا) فإن الشاعر يعى بوضوح بعض التناقضات التى لا تقبل الحل فى هذا الموقف، إنه يستخدم وجود الفضاء الجغرافى خارج الأقاليم السياسية الرومانية كواحدة من وسائل لإدخال هذه المشكلة وتقويض مشروعه المتسم بالمبالغة. وفى الجوهر فإنه يحرض لأوروبيين التاريخ والجغرافية للعناية الإلهية ضد الجيوسياسية اللاهوتية الأوغسطينية، على الرغم من أنه كان يود لو يجعلهما منسجمين. وفى حين أنه لا ينبذ قناعاته الدينية - السياسية الخاصة فإنه يكشف بالفعل أوجه ضعفها الفكرية والمنطقية، خاصة فى مواجهة ألوهية غير قابلة للتبدل وغير قابلة للوصف، غاياتها - على النحو الذى يوضحه التشبيه الخاص بأعماق البحر التى لا يمكن اختراقها - تتجاوز بصورة مطلقة الفهم الإنسانى (١٩:٦٠-٦٣) . إن فكرة الإندوس كهامش شرقى جيوسياسى وثقافى هى واحدة من أدواته الشعرية لاستكشاف تعقيدات اللاهوت المسيحى. وبالمثل لاستكشاف المشكلات فى سياساته الإمبراطورية، وهو مع ذلك يترك هذا كله بلا حل.

وعوضاً عن السير على خطى تقليد جعل الهند "شرقاً طيباً" يؤدى إدخال دانتى الإندوس على حافة الفضاء الإمبراطورى الرومانى والتوسع الثقافى والإقليمى المسيحى إلى إثارة تساؤلات حول خريطته الخاصة الدينية - السياسية. أن هذا كان أمراً متعمداً يزداد وضوحاً بما يختار الشارع أن لا يذكره بشأن الإندوس، فهو - على سبيل المثال- يتجاهل المعرفة المكتسبة بشأن مغامرات توما الرسول التبشيرية فى الهند، التى نجدها فى أعمال الرسول توما^(٣٨). يذكر جيروم وإيزيدور هذا التقليد، كما يذكره

آخرون من آباء الكنيسة^(٣٨) . مع ذلك فإن أوغسطين قد استبعد أعمال الرسول توما كنص استخدمه المانيون وغيرهم من الغنوصيين^(د) . إنه يصفها بأنها "مرطقة"، وقد يكون هذا ما دفع دانتي أيضاً لتجنب ذكر الاعتقاد الشائع بأن توما كان قد زار الهند^(٤٠) . وثمة مثال آخر على مادة لم تذكر هو الرواية التي أسلاها ماركو بولو - الذي تتلامح حياته (١٢٥٤-١٣٢٤) مع حياة دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) . فقد كتب مؤلفه المليون *millione II* في البندقية في وقت ما بعد عام ١٢٩٢ ، ربما في ١٢٩٨-١٢٩٩ ، حينما كان سجيناً مع روستيتشيلو بيزا *Rustiche 110 of Pisa* ، ولكن دانتي إما كان غير عارف بهذا العمل أو اختار تجاهله^{٤١} ، وإذا كان دانتي قد زار البندقية أبداً فإن ذلك كان في عام ١٣٢١ ، العام الذي فيه توفي^(٤٢) . ويحتوي كتاب المليون على وصف كامل ليس فقط لأقسام من الهند، إنما أيضاً للضريح الذي ذاع أن الرسول توما قد دفن فيه، والذي يصفه ماركو بولو بأنه مكان يحج إليه المسيحيون والمسلمون^(٤٣) . ويذهب باولو بيكورارو *Paolo Pecoraro* إلى أن حذف دانتي المتعمد لأوصاف لآسيا معروفة جيداً - بينها أوصاف ماركو بولو وجون بلانو *J.P. Carpini* وأودوريك بوردينوني *Odoric of Pordenone* وجيوفاني مونتيكورفينو *Giovanni of Montecor-* *vino* - ينبع من قراره بفصل "الجغرافية الواقعية" عن "الجغرافيا الدانتية"^(٤٤) . إن دانتي أقل اهتماماً بالجغرافية الحقيقية للعالم منه بالمعاني الرمزية لجغرافية العالم. وسواء كان استبعاد دانتي هند توما وماركو بولو متعمداً أو عن جهل، فإنه يبرز وصفه الإندوس كفضاء يقع خارج الوسط الجيوسياسي والثقافي للعالم المسيحي-الروماني الذي يتبناه باعتباره جغرافيته السياسية.

(ر) الغنوصية من *Gnosis* اليونانية التي تعنى المعرفة - نزعة صوفية إغريقية سابقة على المسيحية، وكان لها تأثير كبير على المسيحية بعد ذلك، والمعتقد الأساسي فيها هو أن هناك طريقاً إلى الخلاص بواسطة المعرفة على غرار ما يضيء النور في الظلمة. (المترجم).

يضع دانتي الهند - التي يستنكر الاستيلاء عليها من قبل الإسكندر وسميراميس باعتباره عملاً غير مشروع، ويوجه الانتباه إلى السلام المنضبط المسيحي - الروماني - في موقع وراء الخبرة الجغرافية المسيحية. وهو إذ يفعل هذا يتحدى المزايم ذاتها التي كان هو نفسه قد ردها في كتابه الملكية، حيث عادل فضاء العالم بأسره بالإمبراطورية الرومانية، كما هو الحال في تقاليد الشعر الروماني^(٤٥). إنه يجعل الإندوس "هامش" الممكن الأخلاقي والعدل خارج منطقته الجيوسياسية - إنما يحدد محيط معتقداته: إن لا محدودية الإمبراطورية المسيحية - الرومانية كمثال أعلى ديني وسياسي تحدها هوة سحيقة عند حافتها الغربية ومجال آخر سياسي وثقافي عند حدودها الشرقية ومن السماوات وما رواها تعلق وجهة نظر الشاعر رؤيته الجيوسياسية وتقوض إيديولوجياته الأخلاقية الدينية والسياسية.

وعلى الرغم من أن دانتي يشرع في استكشاف الكون ووصف الملكوت الإلهي - في النهاية - ليتبع صورته هو، فإنه لا يستطيع أن يأمل في الغوص في أعماق البحر الإلهي. ومع عظمة الكوميديا في أهدافها، تبقى بالضرورة ناقصة حينما يتعلق الأمر بتحقيقها، ذلك أن الشاعر يرفع عظمة الرب الأسمى فوق أي فهم إنساني أو مؤسسة إنسانية أو نظرية جيوسياسية. والإندوس كمنطقة جغرافية نائية في المنطقة القائظة هو آلية شعرية واحدة بين كثرة تدخل الهوية بين الفهم الإنساني والإرادة الإلهية في الكوميديا. هو كذلك يؤدي دور كشف معتقدات الشاعر الإنسانية الناقصة، التي يستعاض عنها "بالحب الذي يحرك الشمس والنجوم الأخرى" [الفردوس، ١٤٥:٣٣]. ويتسق هذا - بالطبع - مع التقاليد اليهودية - المسيحية المطورة في التوراة وطورها أوغسطين. ومن هذا المنظور يكون الفضاء الجغرافي للإمبراطوريات والمؤسسات الجيوسياسية التي تدعمها - بغض النظر عن مدى انتشارها أو نجاحها في قوتها العسكرية والإيديولوجية - محدوداً. وغالباً ما يكون محاكاة زائفة للملكوت الرب النهائي.

إن العدالة الإلهية، المألوفة والتي لهذا تتجاوز الإدراك الإنساني. تتغلب على الخلافات الإيديولوجية الاستثنائية أو التشكيلات الثقافية لكي تصدر أحكامها على كل منها في إطار ملكوتها العالمي المفرد. وكما هو الحال في خرائط العالم الموسوعية في العصر الوسيط، فإن جغرافية دانتي للحدود الخارجية هي أداة شعرية مصممة بحيث تسلم القصيدة إلى سلطة عناية إلهية، وهذه تجمع الكل في حضنها الجليل بلفتة تعلن " إن لي المسكونة بكل ما فيها". [المزامير، ١٢: ٥٠] (ز).

(ز) يجب الإشارة هنا إلى أن المزمور ٥٠ المذكور هنا هو المزمور ٤٩ بحسب تقسيم العبرانيين، فهو يحمل هذا الرقم الأخير في طبعة "الكتاب المقدس" (العهد العتيق والعهد الجديد) الصادرة عن "جمعيات الكتاب المقدس المتحدة" ساحة النجمة - بيروت. (المطبعة الكاثوليكية - ١٩٥١) (المترجم).

هوامش الفصل الرابع

قدمت صيغة مبكرة كثيراً من هذا الفصل للمرة الأولى في عام ١٩٩٤ في الأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى Medieval Academy of America في جلسة نظمها Seth Lerer من جامعة ستانفورد، ونشرت بعد ذلك تحت عنوان "Dante and The Indus" في فصلية دراسات عن دانتي (١٩٩٢): ١٧٧-١٩٣

(١) بشأن موضوعات الهند انظر ١٦١-١٦٠، Curtius, European Literature,

(٢) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٢).

(٣) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٣).

(٤) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٤).

(٥) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٥).

(٦) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٦).

(٧) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٧).

(٨) النعمة الإلهية كانت متوقعة في كل الأشياء. انظر: (ص ١٠٧- هامش ٨).

(٩) انظر: (ص ١٠٧- هامش ٩) يكتب caperan أن دانتي أدرك أنه كان هناك مسيحيون ملعونون كما أنه كان هناك غير مسيحيين لم يسمعوهم بالمسيحية ويمكن مع ذلك أن يخلصوا (٢٠٦-٢١٢). انظر أيضاً: (ص ١٠٧- هامش ٩).

(١٠) في مدينة الرب يناقش أوغسطين "الخنثويين"، الهنود الذين يتفلسفون وهم عراة (١٤-٢٧، ٢٠-٢٧)، وهو يصنفهم مع الأتلاطونيين والفيثاغوريين والليبيين الأطلسيين والفرس والكلدانيين والحيشيين والفوليين والإسبان باعتبارهم قد اكتشفوا وعلموا أن هناك إلهاً واحداً فحسب، هو خالق كل الكائنات المخلوقة، وقد أصر أوغسطين على أنهم -بسبب معتقداتهم الشبيهة- "مثلاً" (٨-٩). انظر Orosius Histoires, ١.٤.٦.٣.١٩

(١١) (ص ١٠٧- هامش ١١).

(١٢) (ص ١٠٧ - هامش ١٢).

(١٣) (ص ١٠٧ - هامش ١٣).

(١٤) تولت سميراميس - أمه - العرش والحكم طوال حياتها: ذلك أنها كانت أشد قسوة وأكثر ضراوة من أى رجل، ويعد أن كانت أقسى نساء الدنيا' Brunetto, Li livres dou tresor.

(١٥) بشأن مناقشة أكمل لنور سميراميس فى قصيدة دانتي انظر: (ص ١٠٧ - هامش ١٥).

(١٦) Pliny, Natural History, ٦, ٢١, ٦١ يلقي الإسكندر وإمبراطوريته ظلًا طويلاً من الشك على خيال الإمبراطورية الرومانية. فإن غزواته تجعل منه موضوعاً أثيراً للأدب الرومانى القديم. على سبيل المثال انظر: (ص ١٠٧ - هامش ١٦) كذلك فإن المقارنة الممتدة للتناقضات بين الاسكندر ويوليوس قيصر شائعة. فإلى جانب كتاب لوكان Lucan بعنوان (١٠ book) Pharsalia تظهر هذه التناقضات عند Plutarch, Livy. انظر على سبيل المثال - ٦٠٩-٤٤٢: ٤٢٩-٧٠٢٢. Plutarch's Lives, واستطرد ليفي عن ما إذا كان الإسكندر قد استطاع أن يغزو روما فى ٤١-٢٢٧، ٩٠، ١٧ Livy in Fourteen volumes ويبين كوينت Quint كيف يضع لوكان أحوجه توازن بين الإسكندر ويوليوس قيصر إذ يجعلهما كليهما يزوران طروادة ويأخذ يوليوس قيصر إلى قبر الإسكندر فى الإسكندرية انظر ٨-٦ Epic and Empire - ويشأن مصائر الإسكندر فى الرسائل الرومانية انظر. (ص ١٠٧ - هامش ١٦).

(١٧) (ص ١٠٨ - هامش ١٧).

(١٨) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ١٨).

(١٩) (ص ١٠٨ - هامش ١٩).

(٢٠) (ص ١٠٨ - هامش ٢٠).

(٢١) (ص ١٠٨ - هامش ٢١).

(٢٢) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٢٢).

(٢٣) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٢٣).

(٢٤) انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٢٤).

(٢٥) بشأن الإسكندر والخطيئة انظر ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤ Beauvais, Speculum Historiale، بشأن استيلاء الإسكندر على القدس، انظر ٤٠٣.

(٢٦) انظر رسالة الإسكندر إلى أرسطو فى المصدر السابق، ٤٠٣-٤٠٨ والمراسلات مع الملك ديثيموس على الصفحات ٧٠-٦٧ و٤٠٣.

(٢٧) (ص ١٠٨ - هامش ٢٧).

(٢٨) انظر : (ص ١٠٨ - هامش ٢٨).

(٢٩) لبعض الخلفية عن نصوص الرسالة إلى أرسطو، انظر: Ross, "Letters of Alexander", الأفضل للرسائل في (ص ١٠٨ - هامش ٢٩) ، ويشان مقال ممتاز حديث عن رسالة الإسكندر إلى أرسطو واستخدامه في الموضوعات الأولية الشرقية ومصادره الأدبية انظر: Romm, "Alexander, Biologist".

(٣٠) تتضمن هذه حكاية الإسكندر Roman d'Alexandre الفرنسية القديمة ، التي ترجع إلى أوائل القرن الثاني عشر، وصيغا أخرى متعددة ترجع بتاريخها إلى أواخر القرن الثاني عشر. ويشان مراجعة لكافة المصنف الفرنسية القديمة السابقة على القرن الرابع عشر. انظر: Ross, Alexander der Historianus.

(٣١) (ص ١٠٨ - هامش ٣١).

(٣٢) يزاوج مازوتا Mazzotta في كتابه ١٤-٦٥، Dante تشبيه "عجوز كريت" بتشبيه كاتو Cato في المطهر، الانتشودتين الأولى والثانية، كلاهما "عجوز" ويقدم في الصحراء. ويقدم دانتى "الرجل العجوز" في سياق انحراف النظام الأخلاقي للطبيعة، كما يعطى مثلاً له زهو كابانوس Capaneus.

(٣٣) (ص ١٠٨ - هامش ٣٣)

(٣٤) (ص ١٠٨ - هامش ٣٤)

(٣٥) يتناول هذه المناقشة ياكوموتزى Jacomuzzi في (ص ١٠٨ - هامش ٣٥)

(٣٦) شمة مناظرة بشأن ما إذا كان "النسر" يمثل بالفعل الرومان الأقدمين انظر: (ص ١٠٨ - هامش ٣٦) ويذهب كاسيلا Casella إلى أن "النسر" هو رمز العناية الإلهية التي تحكم العالم. انظر (ص ١٠٨ - هامش ٣٦)

(٣٧) (ص ١٠٨ - هامش ٣٧) ويقدم كاسيلا Casella حجة معاكسة في (ص ١٠٨ - هامش ٣٧)

(٣٨) أعمال توما The acts o Thomas ربما ظهر في سوريا أولاً ولكن له صوراً منقحة عديدة (قبطية، حبشية، يونانية، عربية، وأرمينية). انظر The Acts of Thomas خاصة الصفحات ٢٩-١٨ .

(٣٩) (ص ١٠٩ - هامش ٣٩)

(٤٠) (ص ١٠٩ - هامش ٤٠) لا يقدم أى من إنجيل توما أو أعمال توما أية قوائم تتعلق بأباء الكنيسة بشأن القوانين التوراتية، وليس أى منها مدرجاً في إنجيل جيروم من المؤكدان المؤلفة تعنى بهذا ترجمة جيروم اللاتينية للإنجيل - (المترجم) - وهو دليل كاف يسمح لدانتى باعتبار أسطورة توما مشكوكاً في نسبتها. انظر، مثلاً، محاضر "مجلس هيپو" Council of Hippo في عام ٣٩٢ ، في كتاب Hefelé, Histoires des conseils, ٨٩

(٤١) بشأن افتقار دانتى إلى المعرفة بماركو بولو ، انظر (ص ١٠٩ - هامش ٤١) ويشأن مقال يلخص جغرافية الكون المشتركة لدى دانتى وماركو بولو انظر "Olschki, "Marco Polo".

(٤٢) انظر. Villani, Cronica, ٢٠٩و١٣٦. ويشأن آراء فى زيارة دانتى للبندقية فى عام ١٣٢١ للترتيب لمعاهدة صلح بين تلك المدينة ورافينا انظر: Ricci, L'ultimo rifugio, ٤٥-٤٤

(٤٣) (ص ١٠٩ - هامش ٤٣)

(٤٤) (ص ١٠٩ - هامش ٤٤)

(٤٥) انظر: (ص ١٠٩ - هامش ٤٥)

الفصل الخامس

المعجز والأعجوبة: دانتي وعجائب الشرق

أنت الإله الصانع للمعجزات

المزامير، ٧٦: ١٥

في أثر هذا الذي كانت حياته الإعجازية

أولى بالتغنى بها في ملكوت السماوات

الفردوس، ١١: ٩٥-٩٦

حينما يلتفت دانتي إلى الفردوس، فإن الحاج والشاعر - على الرغم من العبور البصري الدراماتي والنسر في السماء - يبدوان ذاهبين إلى ما وراء التمثيل^(١). مع ذلك فإن تجاوز ماله شأن بالعلامات، لا يعبر فقط عن استحالة الوصف. إنه يقوض موضوعات أدب الرحلة وأغراضها جميعاً، سواء كان مروجاً صليبيّاً أو حجياً أو ملحمياً، وسواء كان يحكى رحلات نزول أسطورية أو رحلات برية. تستكشف قصيدة دانتي هنا - باعتبارها تجربة بصرية - الشرق باعتباره مجازاً، لأن محل الروائع هذا يمد المرء بوسيلة رمزية للكشف عن معجزات العالم الحقيقية.

مع ذلك في هذه الحالة ليس مجرد "استبدال" - كما في التقليد الخطابي الأرسطي أو الأسلوب الكوينتيلي،^(١) حيث يصبح المجاز حيلة لغوية بارعة، إضافة رشيقة إلى القصيدة^(٢). إنها ليست أيضاً المجاز الذي يجعل فشل اللغة والمعنى حتماً، كما في نظرية ديريدا^(٣). (ب) Derida وبقدر ما يكون المجاز أداة دلالية "تعيد صنع الطبيعة" لأغراض شعرية^(٤)، فإن إختلافه عما قصد إلى الإشارة إليه يبرز مرة أخرى، ليس فقط الصعوبة التي يجدها الشعر مع مادته، إنما أيضاً استحالة تحقيق ما شرعت القصيدة في أن تقطعه. إن البديل لإحساس كوليردج بالحضور الإلهي هي القصيدة، ولكن الشاعر يريد أن يذكرنا بأن القصيدة نفسها ليست إلهية. هي لا تستطيع أن تجعل الكلمة^(٥) حاضرة. وتلمح مجازاتها إلى المجد الذي تشير إليه، ولكنها - بلغة بوناغنتورا - مجرد آثار، انطباعات، وظلال للانهائية الرب. وإذا لجأنا إلى مصطلحات أكثر حداثة فإن إيمانويل لوفيناس^(٦) E. Levinas - شارحاً الرب

(١) نسبة إلى Marcus Fabius Quintilian (٩٥-١٠٩) خطيب لاتيني وعلم للخطابة في روما. أهم مؤلفاته تدريب الخطيب De Institutione Oratoria. وفيه شأن شيشيرون في كتابه الخطابة

Oratore يؤكد على أهمية التكامل الشخصي والاعتقاد النزيه في فن إقناع الجماهير. ولا يزال هذا الكتاب مصدراً مهماً حتى اليوم لأنه يصف بدقة المزايا التعليمية التي كانت مباحة لشباب الموسرين في روما في القرن الأول. كما يتضمن مختارات المؤلفين اللاتينيين التي لولاه لكانت مفقودة. (المترجم).

(ب) Jacques Derrida (١٩٣٠-٢٠٠٨) فيلسوف فرنسي ولد في الجزائر، يعد غالباً بين فلاسفة النزعة التفكيكية (وهذا مصطلح مستمد من هيدغر) ولكنه منذ بداياته أثر كبير على نظريات النقد الأدبي وما يسمى "فلسفة الأدب"، ولكنه يعد الآن واحداً من أبرز الفلاسفة المعاصرين. (المترجم).

(ت) "الكلمة هنا بمعنى لاموتى، أى المسيح، ففي إنجيل يوحنا "يسوع هو الكلمة القائم بذاته" الكلمة الإلهي. (المترجم)

(ث) Emmanuel Levinas (١٩٠٦-١٩٩٥) فيلسوف يهودى فرنسي من أصل لثواني، يعد من خلفاء الفلاسفة اليهود الكبار المحدثين وبالأخص روز نوايغ ومارتن بوبر. لكنه تأثر أيضاً بهوسيرل ومايدغر. اهتم كثيراً بتحليل العلاقة مع "الآخر". وأهم كتبه الكلية واللاتهائية (Totality and Infinity) (1961) وله كتابات متفرقة ذات طابع "اعترافي" كيهودى، وقرارات في "الظمود" (المترجم).

الواحد لتقراءة العبرانيين الذي أدخلته المسيحية فى التاريخ الأوروبى - يكتب عن هذه "اللانهاية" باعتبارها "الاسم المطلق للرب" وباعتبارها "القوة التى تتجاوز كل قوة، التى لا يحدها مخلوق أو أية أولوية أخرى، والتى لا يمكن لأحد أن يعرف طرقها"^(٥). على الرغم من أن "المخلوق" - حسب التوراة - هو على صورة الرب، ولهذا يملك صفات مشتركة مع الرب اللانهاى، فإنه نهائى. تكشف قصيدة دانتي عن الرب اللانهاى، داخل حدود الإمكانية البشرية" المجاز هو الوسيلة لتأكيد هذه العتبة. مرة أخرى، وكما تعبر كتابات لوفيناس عن "اللانهاية"، "إن صورة الرب الأسمى" - الروح الإنسانية لا تشارك فحسب بدور إبداع الكائن الخالق، بإلهامه اللانهاى للمعرفة، بل إن العالم نفسه يشرح فى المكان والزمان التعقد اللانهاى للرب"^(٦). يشارك الشاعر فى هذه المصادقة اللانهاية للرب. وبالمصادفة فإن لوفيناس فى هذه النقطة الأخيرة يتفق مع اللاهوت الأوغسطينى والبونافنتورا. الفريوس، بوجه خاص - يحكمها هذا الأسلوب المجازى، الذى يطمس "الأشياء الإنسانية"، ولكنه فى الحقيقة يستخدمها كأدوات شعرية. يواصل دانتي فى الفريوس مناقشة النزعات الفكرية التى تحدثت اللاهوتيين والسكولائيين (المدرسين) من القرن الثانى عشر وبعده، بينما يحتفظ فى الوقت نفسه بجداله السياسى والأخلاقي المتسم بالحدة. فبسبب اكتشاف الفلسفة والعلم القديمين والتفكير المترامز فى المناهج الأكاديمية - كما تناولته أعلاه بالنقاش - فإن الاستقلال الذاتى للمباحث الفكرية المختلفة التى تفصل اللاهوت عن الفروع الدراسية الأخرى قد فرض انتبأً جديداً بما يشكل ظاهرة "طبيعية" فى العالم ومن خلقها. فى الفريوس، بينما يحترم دانتي ويسير فى خطى البحث "العلمية" التومائى والدومينيكانى فى الطبيعة، فإنه يسير فى خطى درب أوغسطين الفكرى، متوسطاً من خلال تشكيلات اللاهوت البونافنتورا. ونظراً لأن هذا يشكل جزءاً مكملًا من المجادلة التى اقترحتها فى هذا الفصل، فإننى سأعرض تمييز أوغسطين بين "المعجز" و"الدهش".

العجائب والمعجزات

فى الفقرة ١٢/١٠ من مدينة الرب يذهب أوغسطين إلى أن "العجائب" تحدث ففتجاوز فى الظاهر القدرات الإنسانية، ولكنه يصر على أنه نظرا لعدم وجود صلة لهذا بالخير الأوحد، لا بد أن تكون عمل شياطين شريرة. مع ذلك فإنه يسلم بأن "المعجزات" تأتي إما عن طريق الملائكة أو بوسائل أخرى، ومن ثم تدعم عبادة الرب الحقيقي الواحد وديانته، والذي فيه وحده يمكن أن توجد حياة مباركة. إن من الممكن للرب غير المرئى أن يصنع معجزات مرئية، وهذه المعجزات المرئية تحدث لتدعم عبادة الرب الحقيقي الواحد. والمعجزة الحققة هى الخلق ذاته. وما نحتاج إلى ملاحظته هنا هو تمييز أوغسطين بين العلامات المرئية والرب غير المرئى: العجائب المرئية التى تشهدها الكائنات البشرية، التى يحتمل أن تكون قد جلبتها شياطين، والقدرة على رؤية الخلق، الذى هو معجزة. كذلك يعرف أوغسطين أفعال أولئك الذين يتصرفون طبقاً للحقيقة الدينية، بإلهام من الرب، باعتبارها مجازية. إنه يسعى إلى أن يميزها بين المشروع العظيم للإبداع الإلهى والمعجزة الإلهية وبين الأشياء العجيبة فى العالم التى يمكن أن يراها البشر.

تناول ألبرت الأكبر وبوناغنتورا أيضاً المعجز والرائع. وقد اتفقا فى النهاية مع أوغسطين وإن كان ذلك بأسلوبيهما المتميز. وكما أشرت فى مناقشة الشهادة، يذهب بوناغنتورا الذى كان المسيح عنده وسيط المعرفة - فى كتابه *Collationes in Hexaëmeron* إلى أن لـ "الشهرة" *Fama* ثلاثة جوانب: الاستحقاق *meritorem* والإعجاز *miraculum* والشهادة *martyriorum*. ولقد كانت للأباء الأوائل للكنيسة شهرتهم نظراً لاستحقاقهم، إلا أنهم لم ينجزوا معجزات ! كان الاستحقاق والإعجاز فى القانون نفسه. كانت المعجزات يقينيات الإيمان: الهروب من مصر، عبور البحر الأحمر، قضاء أربعين يوماً فى الصحراء، المن الآتى من السماء، يشوع يشق المياه

ويدخل أرض الميعاد. الاستحقاق والإعجاز والشهادة يمكن رؤيتها جميعاً في عمل الرسل. ونظراً لتفضيل بوناڤنتورا مقارنة رمزية للكتاب المقدس فإنه يقرأ أحداثاً مركزية في التوراة باعتبارها براهين إعجازية على اهتمام الرب بالخلاص الإنساني: الهروب من مصر - على سبيل المثال - الذي كان المناسبة لهبة القانون الربانية، كان ممكناً عبر تدخل الرب^(٧).

يستهل ألبرت مناقشته معجزة المعرفة الإلهية De Mirabili Scientia Dei بفقرة من المزامير، ١٣٨: ٦ "علم عجيب فوق طاقتي. أرفع من أن أدركه". وهو يقصد إلى تمييز الإعجازي عن المعرفة، التي هي - مع ذلك - أداة للاهوت^(٨). هكذا فإنه عند أوغسطين ويوناڤنتورا وألبرت يشكل الإعجازي دليلاً مباشراً على الحضور الإلهي في العالم، فهو ليس فقط علامة مرئية أو أعجوبة، إنه عمل إلهي رائع ومذهل بالمثل.

وفي خطى موقف أوغسطين يفصل دانتي أيضاً بين "المعجزة" و"الأعجوبة"، ويرتبط هذا الفصل ارتباطاً وثيقاً بمعالجته لمادة العجائب في الكوميديا. وعنده إن "المعجزة" هي الأعجوبة البصرية - فعل الرب في العالم والاستجابة البشرية له. وهو يميز هذا من "الأعجوبة" التي تنشأ من "دهشة" وهي استجابة يدفع إليها سريعاً الجهل، حيث أن "الأعجوبة" تطبع فقط حينما نلاحظ شيئاً لم نلاحظه من قبل ومن ثم فإنها تتطوى على مفاجأة بصرية. ولكن "الأعجوبة" هي علة ومعلول على السواء، تثير الشهية الفكرية والرغبة في أن نعرف كفاية ذاتها^(٩).

في كتابه الوليمة قدم دانتي عدداً من التعليقات بشأن ما يشكل "رائعاً" و"معجزة" و"أعجوبة". ومن المثير للاهتمام أن نضع النظر في هذه التعليقات قبل مناقشة الكيفية التي يرى بها هذه الكلمات في الكوميديا، لأن هناك اختلافات مهمة بين الوليمة والكوميديا. وفي الحقيقة إن دانتي نفسه سيشير في الكوميديا إلى هذه المفاهيم في ملاحظاته المراجعة^(١٠) بشأن الوليمة^(١١). ولا يفرق دانتي في الوليمة بين "المعجزة"

والرائع والأعجوبة. وفي القصيدة الغنائية الأولى من الكتاب الثاني فيه يكتب "سوف ترى جمال مثل هذه المعجزات السابقة - (٤٩:١-٥٠) وهو ما يصفه لاحقاً بأنه يعنى أنه يعلن أنه خلالها سيتم إدراك جمال هذه المعجزات؛ وهى تنطبق بالحقيقة، لأن جمال العجائب هو إدراك أسبابها التى تبرهن عليها، كما يبدو أن الفيلسوف يذكره فى بداية الميتافيزيقيا^(ج) [الوليمة، ١٥:٢-١١]. "الـهى" (المفخمة) والـهى " (العادية) هما السيدة الفلسفة [الوليمة، ١٥:٢-١١] التى واسته بعد موت بياتريس والتى إليها توجه:

لهذا بدا لى رائعاً للغاية وعسيراً أيضاً أن أثبت أننى لم أحتملها. وأكاد أبكى

بصوت مسموع لكى أعذر نفسى عن التغيير الذى بدا أننى فيه أظهر افتقاراً

إلى القوة، وجهت صوتى إلى ذلك الجانب الذى ظهر منه انتصار الفكر الجديد،

والذى كان بالغ القوة مثل الفضيلة السماوية [الوليمة، ٢٠:٢-٥].

هذه المناقشة لـ صاحبة السيادة الفلسفة فى هذه الحياة الفكرية يماهياها مع الإعجازى، وهو مفهوم يتسخدمه دانتي بلا تمييز يعنى "المعجز" و"الرائع" و"الأعجوبة". وهو يعد بأن يتحدث أكثر عن "مسألة معنى كلمة أعجوبة" (الوليمة، ١١، ٢٠) فى الكتاب الثانى من الوليمة، إلا أنه يختتم الكتاب الثانى مؤكداً أنه كان مفتوناً بصاحبة السيادة الفلسفة - التى كانت، بعد حبه الأول بياتريس - أجمل وأشرف ابنة لإمبراطور العالم. وفى الكتاب الثالث من الوليمة، يعود ليتحدث عن المملكة العقلانية التى تجعل بالإمكان الاعتقاد بأشياء لا ترى، فيذهب إلى أنه بنون صاحبة السيادة

(ج) Palindodic نسبة إلى Palinode وهى القصيدة التراجعية حيث يتراجع الشاعر عن معنى سابق له قوله فى قصيدة له. (المترجم).

(ح) Metaphysics المقصود هنا هو كتاب ما وراء الطبيعة لأرسطو. (المترجم).

الفلسفة فإن ما يبدو "عجيباً" يكون كذلك، ذلك أنها تجعل "المعجزة" عقلانية. ما يبدو لولاماً إعجازاً يصبح بفضلها مفهوماً [الولاية، ١٤:٣]. وفى الكتاب الرابع - حيث لا يزال يحتفظ باعتقاده بأنها "أعجوبة" أن يكون بالإمكان فهم "أعمال المشورة الأبدية" بواسطة العقل الإنسانى - يتنبأ بتمييز سيقوم به فى الكوميديا، حينما يقول "ليست أعجوبة" إذا مضت العناية الإلهية فى طرقها التى هى طرق خفية بالنسبة لنا (٤، ٥٠١). مع ذلك فإنه يستمر فى تطوير الفكرة، التى رسخها بالفعل فى الولاية، القائلة بأن من العجيب أن يكون بالإمكان إدراك الواقع الإلهى بواسطة العقل الإنسانى (الولاية، ١٢، ٤) ويؤكد أن

الرهبة هى دهشة الذهن وهو يرى أو يسمع، أو بطريقة ما يدرك،

أشياء عظيمة رائعة. وبالقدر الذى تبو به (هذه الأشياء)

عظيمة، فإنها تثبت الاحترام لها داخل من يدركها؛ ويقدر ما تبدو

رائعة فإنها تجعله يصبو إلى معرفة عنها [الولاية، ٢٥:٤-٥]

إن من الواضح أن دانتي يستخدم كلمتى روعة وأعجوبة كمترادفين هنا؛ وهو فى الحالتين يطبقهما على أشياء يمكن أن تفهم بواسطة الحواس. ولنلاحظ تركيزه على الأفعال التى تدل على إدراك حسى، مثل ينظر *Vedere*، يسمع *udere*، يحس *sentire* ويبدو *parere*، وهكذا فإن دانتي فى الولاية يميل إلى استخدام كلمات روعة ومعجزة وأعجوبة كمترادفات وبصيغة خاصة عند الإشارة إلى قدرة العقل على أن يدرك ويفهم ما يشكل الرائع.

وفى الكوميديا يستخدم دانتي الأعجوبة كاسم عدة مرات فى القصائد الغنائية الثلاث جميعاً، فى حين أنه يشير إلى الثالث باعتباره "إعجازياً" (٤:٢)؛ ويشير إلى بياتريس باعتبارها "بياتريس الإعجازية" (٤:٢٤) وهذه "السيدة الإعجازية" (٢-٣، ٢٣، ٦). التى تملك "جمالاً إعجازياً" (١٥:٢) و"الضاحكة الإعجازية" (٢٢:٨) وأخيراً "رؤياه

الإعجازية^(٤٢-١) التى ألهمته الكوميديا . وحينما يستخدم دانتي كلمة أعجوبة فى الكوميديا - كاسم، وفى صيغة الإثبات، وفى صيغة المصدر^(٤٣) وفى صيغة الفعل التام، وفى صيغة أشكال الفعل الدلالية^(٤٤) - فإنها تشير إلى علامات "مرئية". وتصف كلمة "معجزة" فى هذه القصيدة ما هو إعجازى حقاً - أفعال وأشياء والصفوة - التى، وإن كانت إشارات إلى عمل الرب فى الكون، فإنها ليست غايات فى ذاتها، وإنما علامات على "معجزة" قصوى للرب.

وعلى خطى الفكرة الأوغسطينية عن "الإعجازى" يستخدم دانتي مصطلح الأعجوبة للدلالة على موضوعات الدهشة الشائعة فى أدب الرحلات الشعبى أى للإشارة إلى علامات "مرئية" وعجائب دنيوية. إن إحدى الطرق التى يعبر بها الخطاة عن إدراكهم أو دهشتهم أن شخصاً حياً يعبر الجحيم أو المطهر هى وصفهم لها بأنها "عجوبة" وعلى سبيل المثال فإن ملاحظة الخطاة عن الطبيعة العجائبية للرحلة [الجحيم، ٦٧:٢٨ ، المطهر، ٦٩:٢ ، ٨٢:٢ ، ٨:٥ ، ١٤:١٤]. ويحيى برونيتو لاتينى تحية رائعة: "يا لها من أعجوبة!" [الجحيم، ١٥:٢٤]. وفى حالة برونيتو يعود هذا الاستخدام إلى استعمال دانتي الكلمة لوصف صاحبة السيادة الفلسفة فى الواليمية، لأن كتاب برونيتو الثروة Trésor- مثل أعمال أرسطو أو بلينى العلمية - كان محاولة فلسفية لمنهجة المعرفة بأشياء العالم. لقد رفع برونيتو مكانة المعرفة - التى ساواها بالحكمة فى كتابه الثروة Trésor - من مساعد اللاهوت إلى ينبوع المركزى للمعرفة ذاتها، جاعلاً من اللاهوت شريكاً مع العلوم الطبيعية والرياضيات كفروع من الفلسفة^(٤٥). وإذ فعل برونيتو ذلك فإنه علّمَ المعرفة وقوض سلم الصعود الروحى - الفكرى لصالح المعرفة

(غ) التى تنتهى فى الإنكليزية بالحروف الثلاثة ing (الترجم).

(د) الصيغة الدلالية indicative هى التى تظهر الفعل أو الحالة بوصفها صيغة موضوعية لا فكرة مجردة. (الترجم).

الأرسطية الجديدة، كفاية في ذاتها. ومن ثم فإنه، وقد حياً دانتي الحاج بقول "يا لها من أعجوبة"، يتسق بصورة كاملة مع ما يفهمه دانتي باعتباره حدود مقاربة برونيتو للمعرفة.

يعبر دانتي الحاج عن دهشة إزاء ما يراه في رحلته - ما يفعل، مثلاً، حينما يلتقى فوريز⁽³⁾ (المطهر، ٥٩:٢٣) وساتايوس، "ربما تعجب، أيها الروح القديم، من الابتسامة التي أبديتها" [المطهر، ١٢١:٢١-١٢٢]. إنه يتعجب للمصادفة الخارقة المتمثلة في إطرء ستاتايوس شعر فيرجيل في حين كان الشاعر نفسه حاضراً. ويشعر فيرجيل بدهشة مرئية مماثلة حينما يرى كايافاس⁽⁴⁾ راقداً على شكل الصليب عبر الممر الذي يقطع الجحيم بأسره (الجحيم، ١٢٤:٢٣). إن تعجب دانتي بشأن رأس إبليس - "ما أعجبه من عجب ذلك الذي بدا لي حينما رأيت ثلاثة وجوه لرأسه!" [الجحيم ٣٧:٢٤-٣٨] - يطبق مفهوم "الأعجوبة" على رأس إبليس "الوحشي" الثلاثي الرؤوس المثير للضحك. وعلى الرغم من أن شيطان دانتي يتسق مع الصيغ الأخرى الوسيطية للشيطان^(١٢)، فإن تأكيد الشاعر على "العجب" يذعن لتقاليد أدب العجائب. مع ذلك لم تكن رأس الشيطان ذات الوجوه الثلاثة "أعجوبة"، إنما هي بالأحرى "بدت" أعجوبة له. ومع وضع التأكيد على العلامة المرئية فإن مظهر الشيطان - بدا ما يمكن أن يكون مزعجاً وضخماً ومذهلاً- يبقى علامة "استعارة أكثر مما هو محاكاة"^(١٣). والمقابل لهذا التقليد عن "العجيب" هو مخاطبة دانتي المباشرة للقارئ. وأول هذه المخاطبات يرد في الجحيم حين -كما لو أنه يذعن لعجائب الأدب - يبلغ قراءه بأنه لن يكون عيباً إذا ما كانوا هم أيضاً يبيتون في التصديق، فهو نفسه يجد صعوبة في تصديق نفسه. وينبغي أن لا يخلط هذا بموضوع ما لا يمكن وصفه، ذلك أن تأكيده هو بصورة مؤكدة

(ن) Forese Dorati، شخصية فلورنسية، كان صديقاً لدانتي. (المترجم).

(ر) Caiaphas قس إسرائيل الأكبر الذي أدان المسيح في ختام محاكمته. (المترجم).

للاغاية على ذلك الذى هو مرئى بصورة مدهشة: "إذا كنت الآن أيها القارئ بطيئاً فى تصديق ما أقول، فلن يكون هذا عجباً، ذلك لأننى وأنا الذى شاهدته لا أكاد أعترف لنفسى [الجحيم، ٢٥، ٤٦-٤٨]. وحينما يرى دانتى كاشن الغرفين الخرافى- ذلك المخلوق غير العادى فى علاقته المتساوقة مع إبليس فإنه يخاطب القارئ مرة أخرى، ومن جديد مستخدماً صيغة الفعل، يتعجب: "فكر أيها القارئ"، إذا كنت قد تعجبت حينما رأيت الشيء الذى يقف ساكناً فى ذاته" [المطهر، ١٣: ١٢٤-١٢٥].

إن الغرفين فى خريطة العالم الضخمة، فى عجائب مادة الشرق، وفى الموسوعات، وحش غرائبى يرتبط بالحيثيين وبامتلاك أحجار الزمرد الكريمة^(١٤). ويصف إيزيدور الأشبيلي هذا المخلوق بأنه نصف نسر ونصف أسد^(١٥). ويتحدى بيتر أرمور- Peter Ar-mour - فى دراسته المهمة **الغرفين عند دانتى Dante's Griffin** - الموقف التقليدى القائل بأن الغرفين يمثل المسيح فيقدم تارة نظرة أفق رائعة لعقيدة الغرفين فى زمن دانتى وبور "مادة الشرق" فى الفريدوس الأرضى عند دانتى. يرفض أرمور ربط الغرفين - الذى يعرفه دانتى بأنه "حيوان" [المطهر، ٣١: ٨٠] و"الحيوان المزوج" [المطهر، ٣١: ١٢٢] - بالمسيح. إنه يقدم الحجج بطريقة مقنعة على أن طبيعته التوأم، النسر والأسد، تمثل بطريقة أيقونية روما مثالية رفيعة، "روما العظيمة، حيث يعد المسيح رومانياً" [المطهر، ٣٢: ١٠٢]^(١٦) تتركب الطبيعة التاؤمية للغرفين اتحاد روما كإمبراطورية لها أميرها، اتحاد الرأس والجسم، الأمير والشعب، روما الإمبراطورية والجمهورية، إمبراطور فرد ومنصب إلهى^(١٧). وبعبارة أخرى، يمثل الغرفين مستقبلاً سياسياً طويلاً ومتغير الهيئة مبنياً على نموذج الإمبراطورية الرومانية، ولكن هذا المستقبل سوف يتحقق فقط فى ذروة موكب الشخصيات و الفضائل التوراتية.

أما إذا كان الغرفين يمثل - أو لا يمثل المسيح، فإننى أبقي مقتنعة بحجة أرمور القائلة بأنه يمثل أملاً فى تاريخ محرر، والتأكيد هو على الموكب، على المشهد الرائع الذى يؤدى أمام الحاج، ومرة أخرى يؤكد الشاعر العلامة المرئية التى - فى حضور

بياتريس- تدعم بؤرته البصرية وهو "يتعجب" إزاء هذا الشيء الذى هو علاماتي بصورة مبهرة. والحاج هو مراقب الموكب الرمزي لدراما لاهوتية - تاريخية لها معانيها الضمنية بالنسبة بتاريخ الخلاص وبالنسبة لأزمته الشخصية. وهى تثير دهشته. وعلى الرغم من أن دانتى يتبنى موضوعات مادة العجائب فى الموكب، فإنه يعطيها وظيفة مختلفة عن تلك التى كانت لها فى الحكايات الخرافية عن حدود الأرض. إنه يعالج هذه الموضوعات فى تفسيره الخاص لتاريخ الخلاص، مبتعداً عن المرئى مادياً إلى الذى يكشف بصورة رمزية كتاريخ اكتسب طابعاً لاهوتياً وطابعاً مجازياً.

يستعمل دانتى صيغة "عجوبة ثلاث مرات فى "الغابة المقدسة"، عدن ذات الهيئة المتغيرة على جبل المطهر. وهو هنا يحول الفكرة التقليدية القائلة بأن عدن تقع فى الشرق، موقع العجائب كما يمثل - على سبيل المثال - فى خريطة العالم وكثير من أدب العجائب والموسوعات وكتاب ماركو بولو المليين، الذى زعم فيه أن الجنة يمكن أن ترى هناك. غير أنه يستخدم اللغة نفسها التى تستخدمها هذه المسردات الجغرافية. إنها ترد مرتين كاسم ومرة كفعل متصل فى أنشودة ماتيلدا^(١٨) عن الفردوس الأرضي (المطهر، ٢٨:٢٩-٣٩، ١١٥)^(١٨)، ولكن استعمال كلمة "عجوبة هنا يتوازى مع مظهرها المزدوج فى الجحيم الأنشودة ٨، (٥٤ ، ٦٧) التى فيها يدعش الخطاة إذ يرون دانتى الحى يسير بين الموتى. ويصف دانتى ماتيلدا نفسها بأنها "عجوبة" (٢٨:٢٩) ، على الرغم من أنها - باعتبارها منذرة بسلب العجائب يسود فى الفردوس - تصر على أنه "ينبغي"- إذن أن لا يبدو عجباً على الأرض إذ يسمع هذا ، حينما يمتد جذر نبات ما هناك دون بذرة مرثية [الفردوس، ٢٨:١١٥-١١٧]^(١٩) . وتميز ماتيلدا عند دانتى بين "التعجب" و"التفهم"، وهو انقسام يفصل النشاط الفكرى كناية فى ذاته عن التبصر

(ز) Matilda إحدى صديقات بياتريس ووصيفة لها. يصفها دانتى فى المطهر بأنها "صورة للحياة النشطة" (الترجم).

الذى يجعل القدرة على الفصل بين "العجائب" وأعمال الرب ممكنة. ويتفق هذا التمييز اتفاقاً كاملاً مع التقاليد التأويلية التى تجعل من ماتيلدا رمزاً للحياة النشطة ومع ماتيلدا باعتبارها رمز الحكمة^(٢٠). هنا تؤكد صاحبة السيادة العدنانية الفلسفة عند دانتي كيف يمكن للفلسفة واللاهوت أن يتآلفا، إذ أولاهما تجعل من الممكن للبشر أن يفهموا وثانيتهما تجمع بين الفهم والبهجة. إنها وصيفة بياتريس، إنها الكياسة التى تقضى إلى الرب، فى سلسلة من التدخل والهداية الأنثويين اللذين بدأ بمريم. وحينما تدرك ماتيلدا أن بعض الشكوك تعرقل دانتي، فإنها تشير إلى المزمور الحادى والتسعين، الذى يمكن أن يساعده فى التغلب على شكوكه: "بعض الشكوك يبقيك فى عجب، ولكن المزمور فرحتى يبعث النور الذى يمكن أن يبدد الغيم من عقولكم [المطهر، ٢٨: ٧٩-٨١]. هنا يرتبط "التعجب" بالشك الفكرى، لكن نقيده، الاستنارة، يوفره المزمور. وكما يشير تشارلز سنغلتون (Ch. Singleton) فإن هذا المزمور لا يبدأ بـ **الفرحة**. ترد هذه الكلمة وسياقها فى البيتين ٥-٦ (٤-٥) "لأنك يا رب فرحتنى بصنعك. لأعمال يدك أرتّم. ما أعظم أعمالك يا رب". يستخدم بيتر أبيلار هذين البيتين ليصف حالة الرجل والمرأة الأصلية فى عدن. فى كتابه Hexaëmeron يوجه أبيلار الانتباه إلى لذات الحواس التى تمارس فى عدن وتستمر إلى ما بعد السقوط، الذى هو جزء من خطة الرب للخلق والتى يمكن أن تدفع البشر لأن يمدحوا الخالق كما فى المزامير^(٢١). يربط دانتي بين "التعجب" و"الشك" والدهشة ازاء الظواهر البصرية وبين الشك الذى يضعه فى مقابل عمل الرب؛ وهو بهذا يكشف عن التفكير الانفصالى الذى يجعل البشر يتعجبون أو يدهشون ازاء الخلق كنتقيض للبهجة بالكيفية التى تؤدى بها عملك العظيم يا إلهى" وهنا يبدو الشاعر مجدداً مقوضاً النشاط الفكرى والتجارى الذى قاده إلى أن يرصد قائمة الأعاجيب أو أن يحسبها. إنه يميز الظواهر البصرية التى تثير الدهشة وتؤدى إلى موضعتها أشياء العالم من المشاركة فى بهجة خلق الرب. إنه يضع اللاهوت الفرنسيسكانى، كما طوره بوناغنتورا، فى مواجهة مسردات الرحلات الشعبية، والتقاليد الموسوعية التى تدعم "العجائب" باعتبارها مخزونها فى

التجارة، وكشكل وضيع من السكولائية (المدرسية). وفي مواصلة المداولة حول الاستقلال الذاتى للطبيعة، يتخذ دانتى موقفاً فراسيسكانياً: إن عمل الرب واضح فى أعمال الطبيعة، وليس هذا عجباً.

يستعمل دانتى صيغة من كلمة "أعجوبة" *marviglia* بصورة متكررة فى المطهر وفى الفردوس، ولكن هذه مصحوبة على الدوام بالنفى. وفى الحقيقة إنه فى مناسبات ثمان، حينما يستخدم صيغة من كلمة أعجوبة - سواء كان قد استخدمها فيرجيل للحاج (المطهر، ٢٩:٣، ٢٨:١٥) أو استخدمها فيرجيل للتائب (المطهر، ٩٧:٢) أو فى محاكية القارئ (المطهر، ٧٢:٩) أو استخدمها غويدو ديل كوكا لدانتى (المطهر، ١٠٣:١٤) أو بياتريس للحاج (الفردوس، ٣:٢٥، ٥:٤) أو القديس بطرس لدانتى (الفردوس، ٢٧:٢٠) - فإنه يرفقها دائماً بنفى: "لا عجب". وهذا صحيح أيضاً فى كل مناسبة حين تكون مستخدمة كاسم فى الفردوس، الذى فيه يقتطع النص على الدوام الفكرة القائلة بأن ما يخبره الحاج أو ما تجرى مناقشته يمكن تفسيره بأنه أعجوبة: "لا عجب" (الفردوس، ١٠:٤٧، ٢٨:٥٩) أو "لا يأخذك العجب" (الفردوس، ٢٧:١٣٩). وفى الحقيقة يحدد هذا النفى للعجيب أسلوب الفردوس. ففى الأبيات الختامية من الأنشودة الأولى فى الفردوس، وفى موازاة استبعاد ماتيلدا^(٢٢) "الأعاجيب" فى المطهر (١١٥:٢٨) تخبر بياتريس الحاج بأن عليه أن لا يدهش لأنه يصعد، لأن هذا طبيعى؛ تماماً كنهر ينحدر من جبل، إنه يكون عجباً حقاً إذا عاد - وقد تحرر من العوائق - إلى السفح (الفردوس، ١٤١-١٣٦).

ثمة استثناءان مهمان لهذا النفى لفكرة "العجب"، وعلى الرغم من أهميتها فإنهما كليهما مرتبطان بفكرة "مادة الشرق". المناسبة الأولى فى الأنشودة ١١ من الفردوس، فى حياة القديس فرانسيس، حينما يستخدم دانتى عدداً من موضوعات "الشرق"، بينها نهر الكانج. لكن هنا أيضاً يجرى الحديث عن غرام القديس بالفقر باعتباره "أعجوبة" (٧٧) دفعت آخرين إلى أن يحزنو حزنو نموذجيه. وهكذا عكس "إضفاء طابع

غرائبيّ على أدب العجائب، الذي كان يدعم الدهشة كغاية في ذاتها أو كحافز على نشاط تجارى. فى هذه الأنشودة يربط دانتي القديس فرانسيس بـ "أعجوبة شرقية" لها قوة تحويل أولئك الذين يقيم معهم اتصالاً روحياً. وهذا مثال محدد على فكرة أوغسطين القائلة بأن الأعاجيب يمكن أن تلهم البشر أن يؤمنوا بالآلهية غير المرتبة التي خلقتهم. أما المناسبة الثانية فهي حينما يبلغ الحاج دانتي بأنه على الرغم من أن الأشخاص الذين يراهم بين النخبة - ترايان وريفوس، الذين يظن أنهم وثنيون - يمكن أن يدهشوه، قد غادروا الدنيا "ولديهم إيمان راسخ" [الفردوس، ١٠١:٢٠-١٠٥].

يبدو استخدام كلمة أعجوبة فى هذا السياق تفصيلاً متعمداً لأدب "العجائب" الذين كان يتأمل فى شأن الناس الذين كانوا يعيشون خارج الزمان والمكان المسيحيون هنا. يهدم دانتي بالكامل فكرة وجود آخرين "غرائبيين" عن طريق إظهار أن أعمال العناية الإلهية عجلت بأعاجيب تجعل من الممكن لأولئك الذين عاشوا على الهوامش (فى هذا الحالة الهوامش الزمانية لا المكانية) أن يتجمعوا فى السماء (الجنة)، تماماً فى الوقت الذى تطوق فيه جيوش المسيح الأرض بأسرها فى خريطة العالم.

اختبار المعجزة

يتعارض استعمال دانتي كلمة "أعجوبة" فى الكوميديا مع الطريقة التى يستخدم بها كلمة "معجزة". فهو يستعملها كصفة عشر مرات فى الفردوس، لهذا يبدو أن كلمة "معجزة" تعكس فكرة أوغسطين عن الكيفية التى تتحقق بها الأعمال الإعجازية الإلهية فى العالم. أما ظهورها الوحيد فى المطهر - فى الأنشودة الثلاثين، وخاصة على لسان بياتريس- "كأمير البحر" (٢٠-٥٨)^(س) a hapax legomenon - يقفل راجعاً إلى

(س) a hapax legomenona فى اليونانية تعنى الكلمة أو القول الذى ورد فى التوراة مرة واحدة، الأمر الذى يجعل تفسيرها صعباً للغاية نظراً لغياب امكانية مقارنة استخدامات متعددة للكلمة أو القول. (المترجم).

الطريقة التى استخدم بها دانتي هذه الكلمة فى الوليمة، التى فيها دمج المعجزة والأعجوبة والإعجاز، حول موضوعها دانتي من بحث لاهوتى إلى مسعى فلسفى بصورة أكثر حصرية - تعنفه بياتريس على تخليه عنها، وتخبر الملائكة "هذا الإنسان أصبح فى حياته الجديدة فى النهاية" ما كان كفيلاً فى النهاية بتوجيه كل استعداد صحيح لديه لجعل منه برهاناً معجزاً [المظهر، ١١٥:٣٠-١١٧]. لقد سعى إلى "اختبار المعجزة"، ولكن فى الكوميديا يتضح أن هذا كله لا يعدو أن يكون اجتماع لفظين ومتناقضين: ليس لأن العقل منفصل عن الإيمان- إنما على النقيض من هذا، لأن العقل أداة قوية فى خدمة الإيمان - بل لأنه حاول رد "الإعجازى" إلى نسق عقلائى، "اختبار". ويذهب برونو ناردي إلى أن الاقتناع الفكرى الذى يسند الوليمة، التى يتحول دانتي نحوها بعد وفاة بياتريس، كان أن العلم، بمعنى المعرفة، هو الكمال المطلق لروحنا، وفيه يمكن أن نجد سعادتنا النهائية^(٣٣). إن وضع "الاختبار" والمعجزة معاً، القصيدة التراجعية الوليمة فى اتهام بياتريس تشير بدقة إلى عمى إيمان دانتي السابق بأن بإمكان العقلانية أن تقدم برهاناً إعجازياً. لقد تبع دانتي كتاب معلمه الثروة Tré sor إلى الدرب الفلسفى كفاية فى ذاته فى الوليمة. كانت هذه هى الغواية التى أفضت إلى علاقة غير مشروعة مبنية على خلط بين العجائب الوهمية والمذهلة للمساعى العقلانية والبحث اللاهوتى الحق. كأمر البحر- وهى كلمة من أصل عربى- فى استعمال دانتي تجمع المعجزة والمرشد البصرى- مركز بياتريس للإعجازى الحقيقى كتنقيض لمعنى العجب الذى تلهمه البحوث العقلانية التجريبية (الإمبريقية) أو المناظر التى شاهدها الرحالة التجار أو الحجاج.

يجدل دانتي استخدامه كلمة أعجوبة بموضوعات "مادة الشرق" بما فيها الموضوعات الأساسية لأدب العجائب، ولكنه يحول هذه المادة أو يغيرها. فهو يستعمل كلمة أعجوبة ليصف اصطفااء الرب، "الربيع المعجز" (الفريوس، ١٢:٣٠) - سواء كان شخصاً أو أشخاصاً أو حياة شخص - وينبغى أن لا نقاجاً إذا اكتشفنا على من على

وجه التحديد يطلق هذه الصفة. وقصيدته تضيء طابعاً جذلاً على هذه باعتبارها العجائب الحقيقية، علامات الرب في الكون. يشير دانتي في الأنشودات الأولى من *الفردوس* إلى بياتريس، على نحو ما فعل في الحياة الجديدة، باعتبارها "شيئاً عجيباً" (٢٥:٢) ويشير إلى "المنظر العجيب" لبيكاردا^(ش) وأولئك الذين يرافقونها (٥٨:٢). ويلمح الشاعر إلى القديس فرانسيس باعتباره "الحياة العجيبة" مرتين (٩٥:١١، ٣٢:١٢)، كما يشير القديس بونافنتورا إلى نظام القديس دومينيك الرهباني بأنه "الثمرة العجيبة" (*الفردوس*، ١٢:٦٥). ويبدأ القديس بنديكت في كتابات دانتي إشارات محددة إلى مناقشة أوغسطين للأعاجيب. ويحكى حياة الفقر والتواضع المثلى التي عاشها القديس بطرس والقديس فرانسيس وهو ذاته (٨٨:٩٣-٩٢)، تلك التي تتعارض تعارضاً حاداً مع أسلوبه الحياة الذي تبناه القساوسة والمتدينون الذين ساروا على خطاهم. فيقول القديس بنديكت: "مع ذلك فإن تراجع نهر الأردن وانحسار البحر حينما أراد الرب، قد أثار مرأماً عجيباً أشد من العون هنا" [*الفردوس*، ٩٤-٢٢-٩٦]. ويذهب القديس أوغسطين ويونافنتورا على المعجزات التي أتى بها الرب (ومن بينها ينكران كلاهما تقسيم نهر الأردن ودخول يشوع أرض الميعاد) وهي أمور تافهة في نظر الرب، ولكنها مهمة للغاية في قوة توجيهها للفانين^(٢٤). ويقول بنديكت - حسب دانتي- في تواضع تام أنها كانت معجزة حقاً حينما ارتد نهر الأردن وفر البحر لأن الرب حوَّله. وبالمثل فإن فعل الرب "المعجز"، أي العناية الإلهية في فعلها، يوجه آلة السماوات الفلكية الهائلة، التي جعلت بالإمكان الهروب من المنفى لجميع المختارين: "سترى تطابقاً عجيباً بين ما هو كبير والأكبر وما هو صغير والأصغر في كل سماء فيما يتعلق بقواها العاقلة" [*الفردوس*، ٢٨:٧٦-٧٨]. وأخيراً فإن دانتي يرى "الرَّبيع العجيب"، المختار في الأنشودة ٢٠ من *الفردوس*. ويتوازى هذا مع "العناية

(ش) Piccarda Donatti شقيقة كورنر وفوريز دوناتي، صديقي دانتي، وقرينة جيما زوجة دانتي. كانت تمتاز بجمال باهر. وقد ختمت حياتها راهبة. (المترجم).

الإلهية في الأنشودة ٣٠ من المطهر، إنما هنا يتجاوز الراعى الإمكانات المبالغ فيها المحتفى بها في "الفردوس الأرضي"، بينما المشهد السماوى يجتاز الربيع إلى "الأعجوبة". ومرة أخرى يتبع دانتى خطى استعمال أوغسطين ويونافنتورا المعجزة باعتبارها "الأعجوبة" التى تشهد على عمل الخلق الإلهى.

يحول دانتى أعاجيب العالم الشرقى على أنوات رمزية للاقتراب الحميم من "أعاجيب" العالم "الحقيقية". إن بلىنى والموسوعيين يحددون موضع المصدر الأولى للأحجار الكريمة فى الشرق الأوسط والهند. وبالمثل فإن المسردات الصليبية وأغنيات الإيماء بالمثل تتركز على كل الأشياء الثمينة فى حوزة الأغراب "الذين أضيف عليهم طابع عجائبي" الذين أجروا اتصالاً مع الأوروبيين سواء فى المارك أو فى التجارة. ويلمح دانتى إلى الأحجار الكريمة عدداً من المرات فى قصيدته، وإن كانت إشارات تزداد كلما مضينا معها: يرد تلميح واحد فى الجحيم وأربعة فى المطهر ويرد كثير فى الفردوس، وإن كان اسم الحجر ليس محدداً دائماً^(٢٥).

إن مصادر دانتى الممكنة لهذه المادة هى كتاب بلىنى التاريخ الطبيعى وكتاب سولينوس *Collectanea Rerum memorabilium sive Polyhistor*، كما حفظتها موسوعات مثل موسوعة إيزيدور وموسوعة فينسان بوفيه، وكتاهما تضم أقساماً تتعلق بالأحجار الكريمة^(٢٦). وقد قام بلىنى بجدد الأحجار الكريمة وتعريفها ضمن عظمة الطبيعة وعجائبيها، وشجب سوء استعمال البشر لها^(٢٧). وثمة مصادر ممكنة أخرى منها ماربود رين (٩٣٥-١١٢٣) عن الأحجار الكريمة *De Lapidis*، الذى يتضمن قسماً موجزاً عن الأحجار الكريمة يعطى الأحجار صفات صوفية -رمزية: بارتولومايوس إنجليكوس *Bartholomens Anglicus* (اشتهر فى الفترة ١٢٣٠-١٢٤٠) فى كتاب *De Proprietatibus Rurum* (٩١٢٣-) الذى اشتمل على قسم عن الأحجار الكريمة؛ وبطبيعة الحال ألبرت الأكبر فى كتاب عن المعادن *De Mineralium*. ومن

الأعمال في العصر الوسيط باللاتينية أو العامية التي تستخدم الأحجار الكريمة كرمز لعجائب الشرق: الحكايات^(٢٨) Novellino، مسردات صليبية، أغنيات الإيماء^(٢٩) وكتاب ماركو بولو المليون^(٣٠). وتضم المصادر الممكنة الأخرى، خاصة عن الاستخدام الرمزي للأحجار نبوة حزقيال (١٠:١١-١١) ورؤيا يوحنا (٢١:١٥-٢١). وبالإضافة إلى هذا كله فإن العالم الآخر الموصوف في كتاب المعراج، الذي ألهمته هذه النصوص التوراتية، يتضمن أحجاراً كريمة.

ويبرز كتاب ألبرت عن المعادن - الذي يتناول كافة المعادن- كعمل من أعمال العلم الجاد. والحقيقة أن جيولوجيى أواخر القرن العشرين يقرون به كمساهم مهم في علمهم^(٣١). وعلى النقيض من التركيز على العناصر "العجيبة" في الجواهر كما فعل مؤلفو أدب الرحلات والموسوعات العامية، فإن ألبرت قارب موضوعه بموضوعية. سعى إلى وصف مظهر المعادن والجواهر وصفاتها وأماكنها الأصلية واستخداماتها، في محاولة لجعل موضوع لم يكن حتى ذلك الحين قد نوقش علمياً، حتى من جانب أرسطو، موضوعاً قابلاً للفهم ومنهجياً.

إن مؤلف ألبرت مثير للاهتمام بنوع خاص في سياق استعمال دانتى للجواهر كمجاز دال على المباركين. أولاً، بالإضافة إلى ندرتها الواضحة ونفاستها وقواها الخاصة، فإن قدرتها أن تعكس الضوء تجعلها وسيطاً ملائماً لتقريب الخاصية البصرية للسماء^(٣٢). بالإضافة إلى هذا، حينما شرح ألبرت لماذا تتشكل صور الأشياء على أنماط الجواهر وليس على أنماط أشياء أخرى- على سبيل المثال المعادن الخام، العظام، وما إلى ذلك - تكهن بأن الأحجار الكريمة هي أكثر إذعائاً للتأثير السماوى أثناء تشكيلها. كانت هذه مجرد نظرية كما يشير هو نفسه: "هذه الأشياء، ليست علماً طبيعياً بحثاً". ولكنها - يضيف - "لأنها عقيدة جيدة فإنها مدرجة هنا"^(٣٣). هكذا كان أولئك الذين هم أكثر إذعائاً للتأثير السماوى. إن مقارنة ألبرت العلمية تتجاهل كل

دعايات "مادة الشرق" بشأن الأحجار الكريمة. فعلى الرغم من أنه يعترف بأن أندر الأحجار الكريمة وأغلاها توجد باستمرار في الهند أو في الشرق، فإن هذا عند ألبرت جزء من تاريخها الطبيعي. مع ذلك، وكما في لاهوت الطبيعة عند بونافنتورا ينظر ألبرت إلى الجواهر باعتبارها المنتجات الأجمل بين منتجات الخلق الإلهي، باعتبارها علامات إلهية. ولأنها علامات فإنها لا تجعل الرب حاضراً، إنما هي الوسيلة لحالتها، التي تستطيع بذاتها أن تعكس أو تحاكي شبيهاً فحسب.

يتبنى واحد من استخدامات دانتي الأولية لحجر نفيس موضوع "العجائب" بغرض الانتقال من قدره. يرد هذا في الأنشودة ٢٤ من الجحيم، وهي الأنشودة التي تبدأ بتشبيه مطول رائع يشير إلى منتصف الشتاء (١-١٥) والأمل. المشهد إيطالي على وجه التحديد (البحر الأبيض المتوسط) مع تأكيد على الصقيع، على "الفلاح" الذي يدفع أغنامه أمامه نحو المرمى" (١٥:٢٤). وعندما يصل فيرجيل ودانتي في النهاية إلى الحفرة التالية، يرى دانتي - على نقيض حاد مع صورة الرعي الساذجة في هذا التشبيه- "حشداً مخيفاً" (٨٢:٢٤) وطاعونا. ويجعل هذا المشهد بحدوث هتاف، في صورة بيانية، من حيات جهنم: "دخانات" و"قفازات" و"حفارات" و"رقطلات" و"أفعالوات" (٨٦:٢٤). هذه المخلوقات تثير تلك العجائب المخيفة في مناطق الحدود (ليبيا، الحبشة، البحر الأحمر) الجحيم، ٨٥:٢٤، ٨٩، ٩٠. حيث - في حياة دانتي- شاع أمر تحديد مواقع أنواع كثيرة من العجائب. لقد تفجرت الطبيعة لأقصى فظاعتها وأماها المخيفة، فيما يصف الشاعر الاندفاع الجنوبي بحثاً عن مكان للاختباء أو عن عقيق (٩٢:٢٤).

بالإضافة إلى الأفاعي، التي تظهر في مادة "الأعاجيب"، اليتروپيا "elitropla" - حجر نادر وصفه ألبرت بأنه حجر بابلي - كان المعتقد أنه يملك القدرة على جعل الشمس تبدو وكأنها تمر بحالة كسوف^(٢٤). حجر العقيق كان يستخدم في استحضر الأرواح

بسبب قدرته الأكيدة على خداع الحواس وحتى جعل الأشخاص غير مرئيين، يظهر أيضاً فى الحكايات، ولكن على النقيض من برهان الحكايات على الاستعمال الناجح للعقيق لعمل السحر، يؤكد دانتي المظهر الزائف والقوى الخادعة المرتبطة بها، والتي تربطها فى الوقت نفسه ببابل، مدينة الفساد الأسطورية. هكذا يصبح العقيق مجازاً دالاً على براعة السرقة والقدرة على جعل الأشياء وكأنها تختفى.

فى "الأشخاص العراة والفرعين" [الجحيم، ٢٤:٩٢] الذين "بلا أمل (٢٤:٩٣) يبحثون عن آمال زائفة، يستدعى دانتي تقاليد العجائب التي كانت تربط العقيق بقوة الاختباء والخداع. ويخطئ الناس، حين يتحولون نحو مثل هذه الأحجار لنيل مساعدة خادعة، فيظنون الرمزى هو المادى (العلامة على أنها الشئ) أو يدركون المادى على أنه غاية فى ذاته، تماماً كما فعل اللصوص فى الحياة فى هذه الأنشودة. على النقيض من هذا ترى "الحكايات" علامات الطبيعة وتكتسب أملاً جديداً: "يستعيد الأمل حين يرى أن معالم الأرض غيرت فى برهة وجهها [الجحيم، ٢٤:١٢-١٤] (٣٥). يستنبط دانتي - عبر هذه المقارنة - الفرق بين عالمه المعروف فى إيطاليا ووهم الآمال الزائفة، بين الأمل فى علامات الطبيعة والآمل الزائف فى العقيق. يتبين دانتي وصف ألبرت الخصائص الشهيرة لهذا الحجر على كشف مرأى اللصوص الزائف. وتنتشر إشارة الشاعر "إضفاء طابع الغرابة على الشرق" وتستخدم أرض الخطر والغموض كموضوع، ولكنها تذكر صفات العقيق المذكورة. إن العقيق يقدم أملاً زائفاً على النقيض من أمل حقيقى، الذى هو فى الحقيقة يقين إلهى، لأن "الحكايات" يمكن أن تعرف أن الربيع سيأتى بملاحظة علامات الطبيعة. وفى إمكانية التنبؤ بعلامات الطبيعة توجد آثار بونا فنتورا أو حضور رمزى للرب.

يفتح دانتي المطهر - فى مواجهة التقليد الشعبى الذى يربط "الجنة الأرضية" بـ "الشرق" (٣٦) - بإشارة محددة إلى جوهرة أخرى فى المنطقة. "لون رائع من

لازورد (ص) الشرق (١٣: ١)^(٣٧) يشير ليس فقط إلى بداية يوم جديد، إنما إلى بداية أمل جديد وبهجة "أعاد البهجة إلى عيني" (١٦: ١). وقد اشتهر اللازورد بأن له خصائص كثيرة واسعة. فلو أنه الأزرق الشفاف كان يرتبط بنور الصباح الباكر الباهر الذي يأتي من الشرق^(٣٨). وكان يرتبط بصفة خاصة بالهند، طبقاً لما يقول ألبرت الذي يكتب: "اللازورد حجر شهير للغاية ويأتي معظمه من الشرق، من الهند"^(٣٩). ويؤكد ألبرت أيضاً أن اللازورد يجعل المرء قوى الإيمان ومكرساً للرب بينما يثبت العقل على الخير. وهذه بوضوح خصائص مناسبة لبنيّة تطهيرية. ومما له دلالة أيضاً بالنسبة لـ المطهر أن اللازورد كان يستخدم لعلاج الأمراض الهيئية^(٤٠). لكن دانتي يذهب إلى أبعد من مجرد الإشارة إلى خصائص الحجر: يقول أن رؤية الفجر الذي يشبه اللازورد يشع بهجة في عينيه. هنا يبدو دانتي عازماً على أن يجمع صفات العجائب، لأن فردوسه، شأن الفردوس الإلهي عند يوحنا، وعلى النقيض من مسردات العجائب - هو فردوس متخيل. أما بالنسبة لبونافنتورا تحت تأثير بزيديو - ديونيسوس (في كتاب الطبقات السماوية (Caelestri Heirarchia)، فإن فهم المجال المادي للعالم، وهو صفة مفارقة رابعة للوجود being، يسمح للمرء بأن يخبر الانسجام والابتهاج والتناسب^(٤١).

حجر كريم آخر - هو الزمرد، لون "الأمل" smeraldo الذي وصفه ألبرت بأنه أغلى من معظم الأحجار الأخرى، وبأنه يأتي من بلاد الحيثيين وبريطانيا والنيل، وبأنه أخضر ونصف شفاف^(٤٢) - يرد ثلاث مرات مهمة في المطهر، في قصيدة الأمل الغنائية:

إن الذهب، والفضة الخالصة، والقرمز، واللؤلؤ، والنيلج، والخشب الهندي اللامع والرائق، والزمرد البراق لحظة شقّه، لتخسف ألوانها جميعاً إذا ما وضعت بين

(ص) Saphire هو أيضاً الياقوت الأزرق في العربية. (المترجم).

الأعشاب والأزهار فى نيك الوادى، على نحو ما يتفوق الأكبر على الأصغر [المطهر، ٧٣: ٧٨].

هنا تؤدى "مادة الشرق" دور ورقة النبات تحت الحجر الكريم: أخضر دانتى الرعوى المتحول فى المطهر يتجاوز كثيراً هذا الحجر نفسه، الموصوف فى نصوص الرحلات والنصوص العلمية والموسوعية. أما الاستخدامان الآخران للزمرد فى المطهر، فإنهما يربطان بصورة محددة لونه بالموضوع السائد للقصيدة الغنائية. وفى الأنشودة ٢٩ هو لون الأمل الفاضل: "كانت الأخرى كأن لحمها وعظمها قد صنعت من الزمرد (١٢٤-١٢٥) وفى الأنشودة ٣١ هو لون عينى بياتريس: "ها قد وضعناك أمام الزمردتين" (١١٦) اللتين من داخلهما أسر الحب الشاعر. وحيث أن كلا من ألبرت وفينسان بوفيه يقرران أن "الزمرد يشفى البصر"^(٤٣) فإنه من قبيل التشبيه الملائم لعينى بياتريس، اللتين هما وسيط استعادة الشاعر صحته الروحية. وهو بالمثل حجر مناسب للمطهر، حيث تظهر العينون الخاطئة التى اختارت بطريق الخطأ لذات الأرض. إن المادة "الشرقية" من الأحجار الكريمة تعاد صياغتها كعلامة رمزية على الأمل.

يشير دانتى مرات أكثر إلى الجواهر فى الفردوس، حيث تصبح واحدة من وسائله المجازية للتلميح إلى المباركين "الجواهر البراقة" (١٦: ٢٠)^(٤٤) هو هنا يستخدم أسماء الأحجار - كلمة حجر ذاتها - كجزء ذى علاقة بالحديث - واللفظة الجديدة المجوهرات lingemarsii للحديث عن حالة أو ظرف المباركين (٧١: ١٠، ٢٢: ١٥، ١١٥: ٨، ١١٧: ١٨، ١٧: ٢٠)^(٤٥) وتستخدم بعض الكلمات الدالة على أحجار فعلية مرة واحدة فقط لتأكيد تفردهما، ولكن بعضها أشير إليه ثلاث مرات. الماس (٢: ٣٣) واللؤلؤ (٣: ١٤) مستخدمة مرة واحدة، ولكن الدرة ترد ثلاث مرات (٢: ٢٤، ١٢٧: ٦، ٢٩: ٢٢). وعلى الرغم من أن الياقوت (٦٦: ٣٠)، والياقوتة الصغيرة (٤: ١٩) وياقوتة بالاسو (٦٩: ٩) مذكورة كل منها مرة واحدة، فإنها جميعاً مترادفات للياقوت. يزعم مؤلف كتاب De Bestiis et Aliis

Rebus أن الياقوت Amethystus أو Carbunculus يأتي في ثلاث درجات من اللون الأحمر، الذي يدل - باعتباره لون المحبة - على عذاب الشعور الملتهب نحو الرب الذي يشبه نار المحبة^(٤٦). وعند ألبرت فإن الياقوت يمتلك قوى أعظم من قوى الأحجار الأخرى، وتوجد منه ثلاثة أنواع (على الرغم أن أحسنها الليبي) والأكثر أهمية أنه يشع في الظلمة^(٤٧). واستخدام دانتي لثلاثة مترادفات للياقوت هو تلاعب شعري بالثالوثية، لأن الياقوت هو واحد وثلاثة على السواء. هذا الحجر، الذي له لون الحب، يصبح مجازاً آخر لمن خلصته السماء. على سبيل المثال فإن الشاعر البروفنسي فولكو المارسيلى يوصف بأنه "مثل ياقوتة نقية" (٦٩:٩). وهنا يستخدم دانتي كلمة balassa - واحدة من أندر أنواع الياقوت - ليفرد بها شاعراً عامياً ترك حياة راحة إلى أحد أديرة البندكتان. وهذا الشاعر الذى اختار مساراً متطرفاً من الفقر على هذه الأرض يعرف المعنى الحقيقى للثروة، أى الجواهر "السماوية". وبالمثل فإن كل من المخلصين المباركين فى "النسر" - الذى يشير إليه سانجوينى على أنه "مساقل الأحجار الكريمة الغامض"^(٤٨)، يبدو ياقوتة "تبدت كل منها كأنها ياقوتة صغيرة" (٤:١٩) فهي نادرة ندرة الحكام العاديين.

إن أول إشارة إلى الأحجار الكريمة فى الفردوس تصور كيف يستخدم دانتي هذه الأشياء لخدمة أغراضه الشعرية فى القصيدة الغنائية الثالثة، ذلك أن المجوهرات هي هنا تشبيهات أو مجازات للمباركين:

بدا لى أن سحابة قد غطتنا، وكانت متلألئة، كثيفة، ناعمة، صلبة

كأنها ماسة سطعت الشمس عليها. وفى طياتها تلتقتنا اللؤلؤة الخالدة،

كما تتلقى المياه شعاع نور وتبقى غير منحصرة (الفردوس، ٣١:٢-٣٦)

ولكن فى هذا المثال تتبع الاستخدامات الفعل بدا *parer* والفعل الشرطى غطى *coprisse* حتى يمكن أن تكون فقط "مثل ماسة" أو بالإمكان "لؤلؤة خالدة" فى طيات السحاب. إن قدرتها على أن "تشع" و"تعكس النور" و"تضربها الشمس" كما تتلقى المياه شعاعاً من النور، بينما تحتفظ بكثافتها أو صلابتها أو عدم قابليتها للتغير توفر فضيلتها المجازية، لأنها تعكس صفتها عن بعد، وهى غامضة من حيث الدلالات اللفظية. وتوحى اللغة بقابلية الحضور الفعلى للأرواح للزوال السريع، مع ذلك فإنها تماثل فى صلابتها الأحجار. هذه الحالة من التناقض بين لفظين مجتمعين هى مركب خبرة الحاج قبل هذه الرؤية: المخلصون هم حقيقيون ولهم صلابة ونفاسة معظم الأشياء النفيسة على الأرض، ولكن مكانتهم فى ذاكرة رؤية الشاعر - أى فى القصيدة - لا تزال مجرد مجاز. إن مكانتهم الأصلية تتجاوز اللغة، إنما المجاز وحده يمكن أن يكون بديلاً عن واقعهم. ويشكل هذا تناقضاً حاداً مع صخرية جهنم الحقيقية، حيث تهيم الصخرة المتخيلة - مثلاً- كتذكير ساخر بإخفاق مشترى المناصب الكهنوتية فى أن يخدموا "صخرة" الكنيسة (الجحيم، ١٩) أو حيث تؤكد العوالم الحجرية - فى مرأب جهنم الدنيا بوجه خاص- صلابة الأرواح المحصورة فى جهنم وصلادة الأماكن التى يجدون فيها أنفسهم^(٤٩).

لو كانت قواف فظة لازعة تناسب الفجوة البائسة، التى ارتكزت عليها كافة الصخور، لأمكننى أن أفى بالتعبير عن عصارة أفكارى على نحو أكمل [الجحيم، ٢٢: ١-٤].

وعن الأحجار ذاتها فإن "الدرة" [الفريوس، ١٢٧: ٦، ٢٢: ٢٨-٢٩]، التى ترجع بأصلها إلى الهند، حسب ما يقول ألبرت، هى أكثر الجواهر بياضاً، كما أنها تومض^(٥٠). وعلى الرغم من أن فينسان بوفيه يستذكر اللآلىء الهندية العظيمة لدى الملكة الغانية (أى كليوباترا)^(٥١)، فإن تخصيص دانتي اللآلىء للإيمان نحو مظهر

المباركين يفصل عمداً الأحجار عن الممارسات المادية للرومان الذين استولوا عليها لاستخدامهم الشخصي ومن أجل السلطة - وهى عادة أدائها بالطبع بلىنى إدانة شديدة.

تتألق اثنتان من أنشودات **الفردوس** بوجه خاص بإشارات إلى الأحجار الكريمة، الأنشودة الخامسة عشرة والأنشودة الثلاثون. إذ يوصف كاشياغويدا - شأن كل المباركين الآخرين - بصفة مبدئية بأنه جوهرة عامة " وهذه الجوهرة لم تترك وشاحها، ولكنها سارت على طول الشريط المشع وبدت كنار وراء المرمر الشفاف" (٢٤:١٥-٢٢). ولكن حينما يخاطب دانتي كاشياغويدا يشير إليه بأنه "توباز حى": " أنت أيها التوباز النفيس" (١٥، ٨٥-٨٦)^(٥٢). وحسب ما يقول ألبرت فإن التوباز يفعل فعل امرأة، يعكس صور الأشياء^(٥٣). لهذا يوحى استخدام دانتي تشبيه كاشياغويدا بتوباز حى، مرآة تكسر شعاع الصور. يراكم دانتي الجواهر، واحدة فوق أخرى ويربطها باللفظة الجديدة *ingemmi* فى إشارته الى كاشياغويدا، فيصعد فعل "التجوهر" والانعكاس المرأتى، حتى وتجاوزه المجازى يبرز استحالة وصف ما يشهده الشاعر. فى الوقت نفسه فإن فائض المجاز يبرز استحالة وصف ما يشير إليه.

وبالمثل، وعلى الرغم من أن المجازات تصف بما لا يتجاوز الخيال، فإن طبيعتها المحددة - فى كل حالة يشار فيها إلى "الأحجار الكريمة" - لا يمكن التمعن فيها بصرياً. وعلى سبيل المثال:

ورأيت نوراً فى صورة نهر يتلأل فيه الضياء، بين صفتين

يزينهما ربيع عجيب رائع، ومن ذلك النهر انطلقت شرارات

ساطعة، وانتظمت بى الأزهار على الجانبيين، وكأنها

يواقيت فى حلقات من ذهب [الفردوس، ٢٠:٦٦-٦٦].

يرى دانتى "المباركين" كنور فى صورة نهر، شرارات حية، ياقوتات، ذهب، الكل فى حركة فى أن معاً، نور ساطع، لون واحة رعوية متحولة، "ربيع عجيب". يصف دانتى - وقد تجاوز قواه "أخذت أسمو على مالى من قوى" [الفريوس، ٥٧:٣٠] - نقوش أنفس سمات الطبيعة للإيماء إلى ما يمكن أن تكون السماء. هنا الضوء هو نهر رسم ضفّتيه رسمهما ربيع إعجازى، ومن هنا مسألة المباركين، الذين ينزلون على الزهور كما الياقوت فى الذهب. تتحدى الروعة الجمالية للسموات قوته الشعرية، من ثم تتمثل هذه الرؤى المتجرئة فى كلمات تحل محلها. وكما تشرح بياتريس الأمر له، "الجدول وجواهر التوباز التى تدخل وتنطلق، وابتسامة الأعشاب، ما هى إلا ظلال لمقدمات حقيقتها" [الفريوس، ٧٨-٧٦:٣٠]. وتتفق الإشارة إلى الأرواح هنا فى سماء التأمّلات كما جواهر التوباز اتفاقاً تاماً مع ما يعرفه روبرت أم . بورلنغ Robert M. Durling بأنه تقليد صنع الإيقونات الذى يربط الحجر "سواء من النوع الأزرق أو الذهبى، بالحياة التأملية والرؤية الجميلة."^(٥٤)

وعلى الرغم من أن دانتى يستخدم هذه الأحجار الكريمة ليصف المباركين، وعلى الرغم من أن الأحجار التى تشع (الأحمر، الأصفر، الأبيض، ما لا لون له) تخترق السموات مثل النجوم، فى كثير من الحالات، فإنه يرفق الملاحظة ببناء مجازى. إنه - إذ يستخدم الألفاظ تقريباً، جملة، يبدو، بعض مثل، أو لفظة جديدة كفعل تأملى، فإنه ينكر على تخيله أى إمكانية محاكاةية. الوسيلة لا يمكن أن تتساوى مع إشارة دقيقة. هذه الحيل الأدبية معاً تؤكد المكانة الخاصة (الحركة، النورانية، الصلادة، التفرد، والجلال) لما رآه، إنما هى تقوض الحسية المحاكاتية^(٥٥). مركزى لأسلوب دانتى الشعرى فى السماء أن الأحجار الكريمة هى مجازات، وعلى النقيض من الرؤى الأخرى للعالم الآخر، فإنها لا تشاهد فعلاً. فى الحقيقة هى ليست مجرد مجازات، لأنها تبدو قابلة للمقارنة. إن أنفس الأشياء فى العالم الطبيعى، تلك التى تقرب الواقع

إلى السماوات، - والتى يعبر عنها في المستقبل، كما لو أنه لم يخبر هذا : هناك سنرى ما ندركه بالعقيدة، وهو ما لا يبدو في الظاهر، إنما ندركه في ذاته [الفريوس، ٤٣:٢-٤٤]. إن معارضة اللاهوت البولصى (والأوغسطينى-البونافنتورا) للنزعة السكولانية (المدرسية) ("غير العرضية") يستذكر دانتى التعريف البولصى للإيمان: "أما الإيمان فهو قيام المرجوآت فينا وبرهان غير المنظورات" [رسالة القديس بولس إلى العبرانيين، ١: ١١]. ومن المثير للاهتمام أنه يستخدم الأشياء الطبيعية الأندر، الأحجار الكريمة، للإشارة إلى *sperandorum substantia rerum* وهو هنا أيضاً يميز بين تجارب جهنم والمطهر مقابل تجارب الجنة. فى هذين العالمين الآخرين برهن على عواقب الخطيئة، حتى يكون بإمكان الحاج أن يتعلم عقلائياً، أما فى الجنة فسوف يرى ماذا على الأرض ينبغى أن يقوم على أساس الإيمان.

فى الجحيم اعتمد أسلوب دانتى على المحاكاة، شعرية واقعية، وفى المطهر انتقل إلى أسلوب شعرى أشبه بالحلم. أما فى الفريوس، الذى يهيمن فيه "اختلاف" مجازى فإن المكانة الرمزية للأحجار الكريمة تؤكد الجمال الذى تعكسه وعجزها فى الآن نفسه عن أن تكشف عنه بأى درجة من الدقة^(٥٦). إنها مجرد وسائل شعرية لتقريب روعة الرؤية. وعلى الرغم من أن اللغة والوسائل الشعرية تعزز المكانة الخاصة لموضوع دانتى، إلا أن مكائنتهما اللغوية (كمجاز أو تشبيه أو *polionomesia* أو حس متزامن *synthesia* أو لفظ جديد) تعلن أنها بدائل شعرية عن الشيء الحقيقى. هى "مقدمات مبهمة" *a hapax legomenon* فى الكوميديا "لحقيقتها" (٧٨:٣٠). والمقدمات هى إشارات محددة إلى علامات بونافنتورا فى عالم الطبيعة بأن الخلق قد حدث خلال إرادة إلهية، وليس بواسطة ضرورة طبيعية كما يذهب خطأ أرسطو والأرسطية العربية، ٥٧ فعند بونافنتورا إن جمال العالم الرائع- كعلامة- هو الوحي الدائم للرب إلى البشر^{٥٨}. يزيل الشاعر هذه الأشياء الجميلة الثمينة من مجال الممارسات المكانية

المادية، سواء كانت فكرية، تجارية، أو عسكرية. وتصبح عنده وسائل شعرية للإيماء إلى ثراء العالم وندرته؛ وحتى في هذه الصفة فإنها فقط "مقدمات مبهمة" لجمال الجسم السماوي الحقيقي. وفي مركّب شعري للمواقف اللاهوتية-الفكرية للنزعة السكولائية(المدرسية) والمذهب البونافنتورا الفرانسيكاني، يربط دانتي مناقشة ألبرت الأكبر العلمية لأصول الأحجار الكريمة واستخداماتها وخصائصها بالفكرة البونافنتورا عن الجمال البصري في العالم كعلامة للرب غير المرئي الذي خلقها^(٥٩).

في الفردوس، يستخدم دانتي "مادة الشرق" كأداة شعرية ليحكى قصة القديس فرانسيس "الأعجوبة الحية" (٩٥:١١، ١٣:٢٢)^(٦٠) ويؤدى دوراً خاصاً في الكوميديا أيضاً نهر الكانج، النهر العجيب الذي يربط الكتاب الرومان بالحدود الشرقية لحملات الإسكندر، والذي هو مجاز دال على "أطراف الأرض" التي - على النقيض من الإسكندر - لم يصل إليها الرومان كغزاة. يقول دانتي، في ربط بين ميلاد القديس فرانسيس وذلك النهر البعيد عند الحدود الشرقية للأرض، عن ميلاد القديس فرانسيس:

طلعت على العالم شمس، كما تطلع شمسنا على نهر الكانج أحياناً، لذا دع من يتكلم عن هذا المكان لا ينطق بكلمة أسيشي، إذ سيقصر في قوله، إنما فليمسّه إذا أراد بالشرق إذا أراد قول الحقيقة [الفردوس، ١١: ٥٠-٥٤].

يلعب دانتي على الألفاظ، أسيسى (مسقط رأس فرانسيس) وأشيشي (ض) فيربط مولد فرانسيس الشرقي بميلاد المسيح وطلوع الشمس بينما تصل أبعد شرقاً لتشمل "الشرق" Orient. وهكذا فإن الهند والكانج - حيث تولد الشمس - يصبح مسقط رأس القديس فرانسيس المجازي. وتزاوج الأنشودتان الحادية عشرة والثانية عشرة حياتي

(ض) Ascisi معنهما في اللغة الإيطالية الصعود والطلوع (المترجم).

القديس فرانسيس - من "الشرق" - والقديس دومينيك - من "الغرب" - من شروق الشمس إلى غروبها، الأمر الذي يشير، كما ذهبت الحجج - إلى عالمية رسالتيهما^(١١). ويذهب سيلفيو باسكوآزي Silvio Pasquazi إلى أن القديس فرانسيس يتطابق مع الرسول إلياس ويتطابق مع القديس دومينيك مع البطريرك إينوك، وكلاهما من كتاب الرؤيا الأخوية. ويؤكد باسكوآزي أيضاً - مستخدماً بوناڤنتورا مصدراً له - أن بوناڤنتورا يعادل بين القديس فرانسيس وملاك الكرسي الثالث في رؤيا القديس يوحنا، وأن هذا يفسر إصرار دانتي ودافعه إلى تقديم معلومات جغرافية وفلكية تتعلق بميلاد كل من القديس فرانسيس والقديس دومينيك^(١٢). واحد منهما باعتباره "أعجوبة حية" والآخر باعتباره مصدر "الثمرة العجيبة" يدخلان معاً العالم في أبعد مناطقهم كعلامتين "عجيبتين" على عمل الرب في العالم. وهما معاً يغطيان العالم بأسره. ولكن القديس فرانسيس "الأعجوبة الحية" - وإن كان قد ولد من السماء الشرقية - قد عاش في إيطاليا، ويبدو دانتي عازماً على أن يبرهن على أن دوره التنبؤي الأخرى كان مقصوداً به أن لا يتم من إيطاليا. إن محاولة القديس لتحويل المسلمين عن عقيدتهم أخذته إلى بعثة تبشيرية سلمية إلى الشرق، ولكنه يعود بعد أن يجد أن الناس هناك غير متقبلين لأفكاره إلى أرض أكثر خصوبة، ومن ثم يتوجه غرباً، مثل إينياس وبولس ودانتي نفسه. وهذا مهم جداً لتوجه دانتي إلى الشرق لعدد من الأسباب. أولاً، على الرغم من أنه يقدم حياة القديس فرانسيس وحياة القديس دومينيك كنموذجين عالميين، يغطيان الشرق والغرب، فإنه لا يفعل هذا ليدعم أية حياة إيديولوجية أو سياسية لهذه الفضاءات. على النقيض من ذلك هو يلاحظ أن القديس فرانسيس أدار ظهره للنشاطات التبشيرية في شرق البحر الأبيض المتوسط. ولكن دانتي يشير إلى بعد مكاني آخر في حياة القديس فرانسيس: إنه نموذج لحياة عند عتبة الشعور، حياة الفقر الشديد خارج الأفكار التقليدية للمكان المادي. فباعتباره إيقونة "الأعجوبة الحية" عاش في فضاء طوباوي (في مدينة الرب) حيث كانت التراتبات التقليدية للثروة

والسلطة والمركز والفضاء العلماني مقلوبة. وهو إذ يفعل هذا يكون "أعجوبة"، علامة على إمكانية أن يقلده آخرون^(٣٣).

وذكرنا دانتى - وهو يكتب بعضاً من أقوى أشعاره فى حياتها كلها - فى الفردوس مراراً وتكراراً بأنه قد تجاوز موهبته الشعرية: إن الألسن التى تفتت بها أخواتها جميعاً والأغنية المقدسة (Polyhemnia) نفسها لن تكون جزءاً من ألف من الحقيقة فى التغنى بالابتسام المقدسة [الفردوس، ٥٨:٢٣-٥٩]. إنه لا يملك ذاكرة دقيقة، ولا لغة ملائمة، ولا مبدأ محاكاة:

هناك رأيت جمالاً ييتسم لرياضتهم وأغنياتهم، فكان هو البهجة فى عيون الطوباويين بأسرهم. ولو كانت لى فى الحديث ثروة مساوية لما لى فى التصور، لما جرؤت على محاولة التعبير عن أدنى بهجتها [الفردوس، ١٣٣:٣١-١٣٨].

Synesthesia، التشبيه البعيد المنال والمجاز، والمواربة، الكناية، الألفاظ الجديدة، pollonamasias، هى أدوات لمفارقة الشعر شعرياً فى الرحلة فيما وراء المكانية والفهم الإنسانين. هذه الأدوات - الوسائل اللغوية المركزية للاهوت - تلغى المعانى الأدبية حتى وهى تسمى إلى استحالة وصف فيما وراء الاستيعاب الإنسانى. وعلى الرغم من أن الشاعر يريدنا أن نعتقد أنه كان حقاً هناك، فإنه يلاحظ باستمرار أنه لا يستطيع أن يتذكرها أو يصفها - أو يجرؤ على أن يحاول تقديمها. مع ذلك فإنه يشير مرة بعد أخرى بصورة محددة إلى "البهجة" و"الفرح" و"السعادة" و"الألعاب" و"الأرواح المرحّة". وفيما تمت مواربته هناك، حيث "فى كل مكان فى السماء فردوس" (٨٨-٨٩)، "حيث العالم أكثر حياة" (٧٨:٥)، "ليس لهذه السماء من مكان آخر إلا العقل الإلهي" (١٠٩-١١٠)، "حيث كل ubi وكل quando مرتكزة" (١٢:٢٩)، فتح الحب الأبدى ذاته لمحات جديدة (١٨:٢٩).

وبينما يتبنى دانتي موضوعات "مادة الشرق" فإنه يحولها لأغراضه اللاهوتية والشعرية. إنها لا تفيد فقط خياله الطوباوي، إنما تصبح أيضاً واحدة من وسائله لمواجهة المداولات الفكرية المركزية لزمانه. إن أعاجيب الشرق أكثر من مجرد أشياء تلتهم فكرياً أو تجارياً. إنها الأشياء الحية التي يجعلها علامات (مجازات) الرب. غير أن المجاز - وإن كان يؤكد على الاختلاف - لا يقصد به هنا خلق انقسام جذري ميتافيزيقي بين أشياء دنيوية وأشياء إلهية، إنما الأخرى أنه الوسيلة الشعرية لإعادة تأكيد الصلة بين الإلهي والدنيوي وفي هذا الصدد فإن أسلوب دانتي المجازي في الفردوس يؤكد ما كتبه جيورديو أغامبين Giorgio Agamben عن رؤيا الرب في العالم: "إن الفرضية القائلة بأن الرب لا يتكشف في العالم يمكن التعبير عنها أيضاً بالعبارة التالية: إن ما هو إلهي على الوجه الصحيح هو أن العالم لا يكشف الرب" (٦٤). يهذب دانتي "مادة الشرق". الأشياء والأماكن النادرة والمدهشة التي يحكي عنها "الكذابون" و "الرحالة" وكتاب تأثروا بقصص هؤلاء. يحول دانتي الأعاجيب إلى "روائع"، وعلى خطى تقاليد رؤيا القديس يوحنا، يواجه تراتبات وطغيانات زمانه في رؤيا تقرب "الربيع العجيب" [الفردوس، ٣٠: ٦٣] وعمل "المبدع الحق" [الفردوس، ٢٦: ٤٠].

هوامش الفصل الخامس

- (١) (ص ١٣١ - هامش ١).
- (٢) بشأن مناقشة للمشكلات مع هذه النظرية في المجاز انظر: The Philosophy of Rhet- ,Richards
90, oric .
- (٣) انظر: (ص ١٣١ - هامش ٣).
- (٤) (ص ١٣١ - هامش ٤) .
- (٥) (ص ١٣١ - هامش ٥).
- (٦) (ص ١٣١ - هامش ٦).
- (٧) بشأن تحليل للكيفية التي يطبق بها بونافنتورا فكرة "الكلمة الملهمه" على عمله التوليبي، وخاصة في تعليقاته على Hexaëmeron، انظر Verbum Inspiratum, Maranesi .
- (٨) (ص ١٣١ - هامش ٨).
- (٩) في كتابه Dante Philomythes and Philosoph, 43-51، يناقش Boyde مفهوم "الاعجوبة" Marviligia عند دانتي .
- (١٠) بشأن نقد دانتي لـ الوليمة انظر: (ص ١٣١-١٣٢ - هامش ١٠).
- (١١) انظر: Li Livres dou tresor, Brunetto, 1.1 وإنني أحيل الى مناقشة مازوتي Mazzotti لعلاقة دانتي بكتاب برونيتو وصلته بنظريات المعرفة والشعر. انظر: (ص ١٣٢ - هامش ١١) .
- (١٢) (ص ١٣٢ - هامش ١٢).
- (١٣) (ص ١٣٢ - هامش ١٣).
- (١٤) بشأن ارتباط الغرقين بالزمرد انظر: (ص ١٣٢ - هامش ١٤).
- (١٥) 'إن ما يسمى بالغرقين حيوان..... جسمه جسم أسد، جناحاه ورأسه تماثل نسراً' ١٧، ٢، ١٢. [Etimologias]

(١٦) ص ١٣٢- هامش ١٦) الذى فيه يقول بالغرفين بوصفه المسيح. ولكن- على خطى هاردى Hardie في The Symbol of The Gryphon يذهب درونكى "Dronke في المظهر، الأنشودة ٢٤، ص ١٢٠، إلى أنه لا يوجد مثال واحد في التقاليد المسيحية على غرفين ربط بالمسيح قبل دانتي. ويوضح درونكى قائلاً أن الغرفين يستحضر جن دانتي وتستدعى العربية روحه (١٣٢). ويقول R.E.Kaske - فى حججه الواردة فى "The Seven Status Ecclesiae" أن الموكب فى الفردوس، ١١٧-١٠٩:٣٢ يمثل الدرجات الكنسية السبع، ويفترض أن الغرفين هو المسيح.

(١٧) (ص ١٣٢- هامش ١٧).

(١٨) بشأن مناقشة موسعة لهذه الأنشودة ودور ماتيلدا فيها انظر: Kirkhan, "Purgatorio xxviii",

(١٩) بشأن دور ماتيلدا فى الفردوس الأرضى ، انظر: (ص ١٣٢- هامش ١٩).

(٢٠) انظر : (ص ١٣٢- هامش ٢٠).

(٢١) Abelard, Expositio in Hexaemeron ويشأن توضيح لهذه النقطة ، انظر: Singleton, Dante's Commedia, 206-7 وملاحظات فى 677-79 الكوميديا، حيث يقتبس من المزمور على النحو المطبوع هنا.

(٢٢) يورد هوكينز Hawkins هذه النقطة ويربطها بلاموت بونافنتورا. انظر: ١٩٨-٢٠٠ watching Ma- "The Dream" Mazzotta لمال 20 انظر مناقشة مازوتا "Convivio", 23 Nardi, telda "Dal 149-50, of the Siren" in Dante's Vision

(٢٤) انظر: (ص ١٣٢- هامش ٢٤).

(٢٥) بالطبع فإنه لا غنى لمناقشة عن استخدام دانتي تحيل الحجر الكريم فى شعره عن Durling and mar- "Appendix 3: Precious stones in Time and the Crystal, tinez "the paradiso", 273-76 والمناقشة الرامنة فى أكمل إيضاحاً فى مقالتي: "Wonders on the Border"

(٢٦) (ص ١٣٢- هامش ٢٦).

(٢٧) (ص ١٣٢- هامش ٢٧).

(٢٨) (ص ١٣٢- هامش ٢٨).

(٢٩) (ص ١٣٢- هامش ٢٩) على سبيل المثال تتضمن - بصورة لا تقدر بثمن- "عجائب" مثل الجواهر أو الخيام الجميلة أو مؤشرات أخرى للثروة فى حوزة العدو الإسلامى.

(٣٠) (ص ١٣٢- هامش ٣٠).

(٣١) انظر (ص ١٢٣ - هامش ٣١).

(٣٢) لدراسة لميتافيزيقيا النور عند دانتي، انظر Mazzero, "light Metaphysics", 52, " وفيها يكتب إن فردوس دانتي [هو] أعظم عرض شعري لميتافيزيقيا النور في العصور الوسطى.

(٣٣) (ص ١٢٣ - هامش ٣٣).

(٣٤) المصدر نفسه، ٨٨-٨٩، بشأن مناقشة موسعة لاستخدام دانتي "العقيق" كوسيلة شعرية انظر: Dur- 109-37, Time and the crystal, ling and Martinez

(٣٥) بشأن مناقشة لذا التشبيه الافتتاحي انظر: (ص ١٢٣ - هامش ٣٥).

(٣٦) انظر (ص ١٢٣ - هامش ٣٦).

(٣٧) انظر (ص ١٢٣ - هامش ٣٧).

(٣٨) يقول مؤلف كتاب De Bestiis et Aliis Rebus أن الياقوت الأزرق هو لون السماء حينما تكون صافية.

(٣٩) (ص ١٢٣ - هامش ٣٩).

(٤٠) (ص ١٢٣ - هامش ٤٠).

(٤١) انظر (ص ١٢٣ - هامش ٤١).

(٤٢) (ص ١٢٣ - هامش ٤٢).

(٤٣) (ص ١٢٣ - هامش ٤٣).

(٤٤) (ص ١٢٣ - هامش ٤٤).

(٤٥) بشأن مناقشة للكيفية التي تعمل بها الألفاظ الجديدة في الفردوس للإشارة في أن واحد إلى الجليل وهو للإعلان بواسطة مكانتها الخاصة باعتبارها لغة "مخلوقة" أو "مكسرة"، إن الجليل لا يمكن أن يوصف، انظر مقالتي "Dante's Neologisms"

(٤٦) (ص ١٢٣ - هامش ٤٦).

(٤٧) (ص ١٢٣ - هامش ٤٧).

(٤٨) (ص ١٢٣ - هامش ٤٨).

(٤٩) ندين بالفضل لفيلكتوريا كيركهام Victoria Kirkham لاقتراحها هذا التعارض مع "الصخور السماوية.

(٥٠) (ص ١٢٣ - هامش ٥٠).

(٥١) (ص ١٢٣ - هامش ٥١).

(٥٢) بشأن مناقشة موسعة للتوازي في سداسية لبترايك تقدم نظرة أكاديمية عن هذه الحجرة تلك الحقبة، انظر

"Petrarch's Giovane donna sotto un verde lauro", Durling

(٥٣) (ص ١٢٣ - هامش ٥٣).

(٥٤) (ص ١٢٣ - هامش ٥٤).

(٥٥) تركب مناقشة فريتشيريو *freccero* لـ "اللؤلؤ على الحافة البيضاء" هذا النوع "المهزوم ذاتياً" من الشعر الذي يتغلغل في الفردوس، انظر Dante, 13-212

(٥٦) بشأن مناقشة كاملة ومقنعة للكيفية التي يؤدي بها "الفرق" وظيفته في الفردوس انظر، Barolini, 166-93, *The Undivine Comedy*

(٥٧) (ص ١٢٣ - هامش ٥٧).

(٥٨) (ص ١٢٣ - هامش ٥٨).

(٥٩) بشأن مناقشة للاموت الجمال عند بونافنتورا، انظر Spargo, *The Category of the Aesthet*, 50-71, ic

(٦٠) أشار نقاد عديدين إلى أوجه التوازي بين الأنشودة ١١ والأنشودة ١٢. انظر، على سبيل المثال، (ص ١٢٤ - هامش ٦٠).

(٦١) (ص ١٢٤ - هامش ٦١).

(٦٢) (ص ١٢٤ - هامش ٦٢).

(٦٣) بشأن تطوير هذه النقطة في حياة القديس فرانسيس وأعماله، انظر Turner, *The Ritual Process*, 131-65, cess

(٦٤) (ص ١٢٤ - هامش ٦٤).

المؤلفة فى سطور :

دكتورة بريندا دين شيلدغين

هى أستاذة الأدب المقارن بجامعة كاليفورنيا مدينة ديفيز الاميركية . وبهذه
الصفة فانها عضو فى الهيئة التعليمية المشرفة على برنامج الأدب المقارن فى هذه
الجامعة . ويجد بالذكر فى هذا المجال إنها تشغل فى جامعة كاليفورنيا المنصب الذى
كان يشغله المفكر الفلسطينى العربى الراحل الدكتور إدوارد سعيد أستاذ للأدب
الإنجليزى المقارن فى جامعة كولومبيا (نيويورك) .

لها كتب أخرى غير دانتي والشرق أهمها : ديكاميون وحكايات كانتربيرى -
مقالات جديدة عن مسألة قديمة ، وكتاب الوثنيون والتاتار والمسلمون واليهود فى
حكايات كانتربيرى (الشاعر الإنجليزى تشوسر) .

المترجم فى سطور:

سمير كرم

من مواليد القاهرة (١٩٣٧) تخرج من قسم الفلسفة (آداب القاهرة - ١٩٥٨ . عمل فى الإذاعة المصرية والصحافة المصرية (الأهرام) ثم الصحافة اللبنانية ثم جمع بين العاملين الصحفى والاكاديمى فشغل منصب مدير الدراسات بمركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) وعمل مراسلا صحفيا بالولايات المتحدة طوال الفترة من ١٩٨١ الى ٢٠٠١ .

له ترجمات أخرى عديدة منها: الموسوعة الفلسفية تأليف روزنتال ويودين - الشيوعية الأوروبية والدولة لسانتياغو كاريو ، الفن والتحليل النفسى (مختارات لفرويد ويونج)، تطور الفكر الفلسفى لتيودور اويزمان، أفكار لازمة الحرب والموت (مختارات بحثية لفرويد).

التصحيح اللغوى : طارق عبد الفتاح
الإشراف الفنى : حسن كامل

